أسئلة الشمس

دراسات أدبية

في شعر سعاد الصباح

علي المسعودي

2014

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

علي المسعودي .
دراسات أدبية في شعر سعاد الصباح- ط 1
- دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع ، 2014
217 ص : صور ؛ 2 سم
ردمك: 3 – 028 – 2 – 99906 – 978
دراسات أدبية في شعر سعاد الصباح

رقم الإيداع : 586 / 2013
ردمك: 3 – 028 – 2 – 99906 – 978

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إخراج وتنفيذ. م: أحمد محمد عقل

مراجعة وتصحيح: وائل حمزة

الناشر

دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع
ص. ب: 27280 الصفاة
الرمز البريدي: 13133

حقوق الطبع محفوظة للناشر
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه أو ترجمته بأي شكل من الأشكال
دون إذن خطي مسبق من الناشر

الطبعة الأولى 2014

إهداء إلى:

إشراقات 22 مايو ..

استهلال..

يعتبر القيام بإنتاج دراسة أدبية حول الشعر العربي الحديث من أعقد المهام التي يضطلع بها الدارسون والنقاد، لما في ذلك من تشابك فني وفكري في القصيدة الواحدة، فضلاً عن أن تتناول الدراسة ديواناً كاملاً أو نهجاً أيديولوجياً لدى شاعر أو مجموعة شعراء أو اتجاه أدبي، وهو ما يعني الحاجة إلى إنتاج موسوعة نقدية لعلاقة الدراسة بفئة الأدب المتناول فيها.

الأدب في معناه الحديث والدراسات الأدبية يشكلان بانسجامهما بنية أكاديمية وفكرية حديثة نسبياً، وهو ما لم يكن سائداً في الشعر العربي القديم، حيث كان الشعراء يبدعون الملاحم زاعمين الإلهام من جنيّات الشعر، ليحكوا حياة إنسان عظيم -ذكراً أو أنثى- أو حياة أمة أو شعب أو قبيلة، إلى جانب ما يحيط بهم من عوالم الصحراء والكائنات الموجودة فيها، ويكون التفاعل الجماهيري مع ذلك بحفظ هذه الملحمة وتناقلها كابراً عن كابر عبر الأجيال، وربما يكون ذلك ملاذ فخر القبيلة ومن فيها على امتداد الزمن.

نما الشعر في القديم بأغراضه المتعددة من غزل ورثاء وقصائد احتفالية ومديح وشعر غنائي وهجاء وغير ذلك، وهذه الأشكال ترجع في تاريخها إلى مئات السنين، أما الدراسات الأدبية فليست إلا عملية متأخرة تتناول الفلسفة والبلاغة والسرد واللغة الشعرية وسوى ذلك من فنون النقد الحديث لدى ناقد معين تجاه شاعر معين أو قصيدة معينة.

في شعر سعاد الصباح يستشعر قارئ الدراسات الأدبية التي تقدّم بها الدارسون والنقاد مدى شمولية مفاهيم إنتاجاتهم لجوانب: المرأة – الإنسان – المعذَّبين – البُعد النفسي – الوطن – العروبة – الوفاء للشريك.. إلخ، وكأن شعر سعاد الصباح قالب حلوى تجمع حوله نفرٌ يتذوق كلٌّ منهم طعماً ليس متاحاً لمن جاوره، رغم اقتراب المسافة، ثم يخرج كل منهم بنتيجة ظاهرها

الاختلاف وباطنها الاتفاق على أن سعاد الصباح ظاهرة شعرية معاصرة، لا يمكن تأطيرها بأنها فعالية نسائية أو كويتية أو خليجية بقدر ما يمكن القول إنها ظاهرة فكرية لمعت ككوكب في ليلة غير قمراء.

وجاء عنوان هذا الكتاب مستنبطاً من قراءة مستفيضة لحالة النص لدى سعاد الصباح، والذي يبنى غالباً على السؤال، فقصيدتها هي قصيدة الأسئلة المدببة والجارحة والحزينة والمؤلمة..

كما أن مفردة (الشمس) تكررت كثيراً في أشعار سعاد الصباح وحواراتها، وقد حمل بعض دواوينها المفردة بجلاء مثل: (خذني إلى حدود الشمس)، وكأنها كانت دوماً تطرح أسئلة الشمس بوضوح وسطوع.. ومواجهة حاسمة.

وكنت قد أصدرت عدداً من الكتب تتناول دراسة أدبية أو سيرة حياة أو إضاءات فكرية لدى سعاد الصباح عن دور نشر متفرقة، أما وإنني أصبحت جزءاً من دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع فلا أظن من اللائق أن أصدر كتابي هذا عن دار نشر أخرى. أقول هذا لأجلو حقيقة يستنكرها البعض بصدور كتاب عن د.سعاد الصباح عن دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع.

إن صاحب الحُجّة ألحنُ بمراده من غيره وأقدر على إظهاره، وصاحب الدراسة أدرى بشعابها، وما على المتلقي إلا أن يبحر في هذا الكتاب مع مجموعة منتقاة من الدارسين والنقاد والأكاديميين الذين غرفوا من شعر سعاد الصباح نقداً وتحليلاً ليضعوا خلاصة عملهم في إناء الأدب العربي الحديث شراباً سائغاً طعمه يسرُّ الشاربين.

علي المسعودي

الكويت أبريل 2014

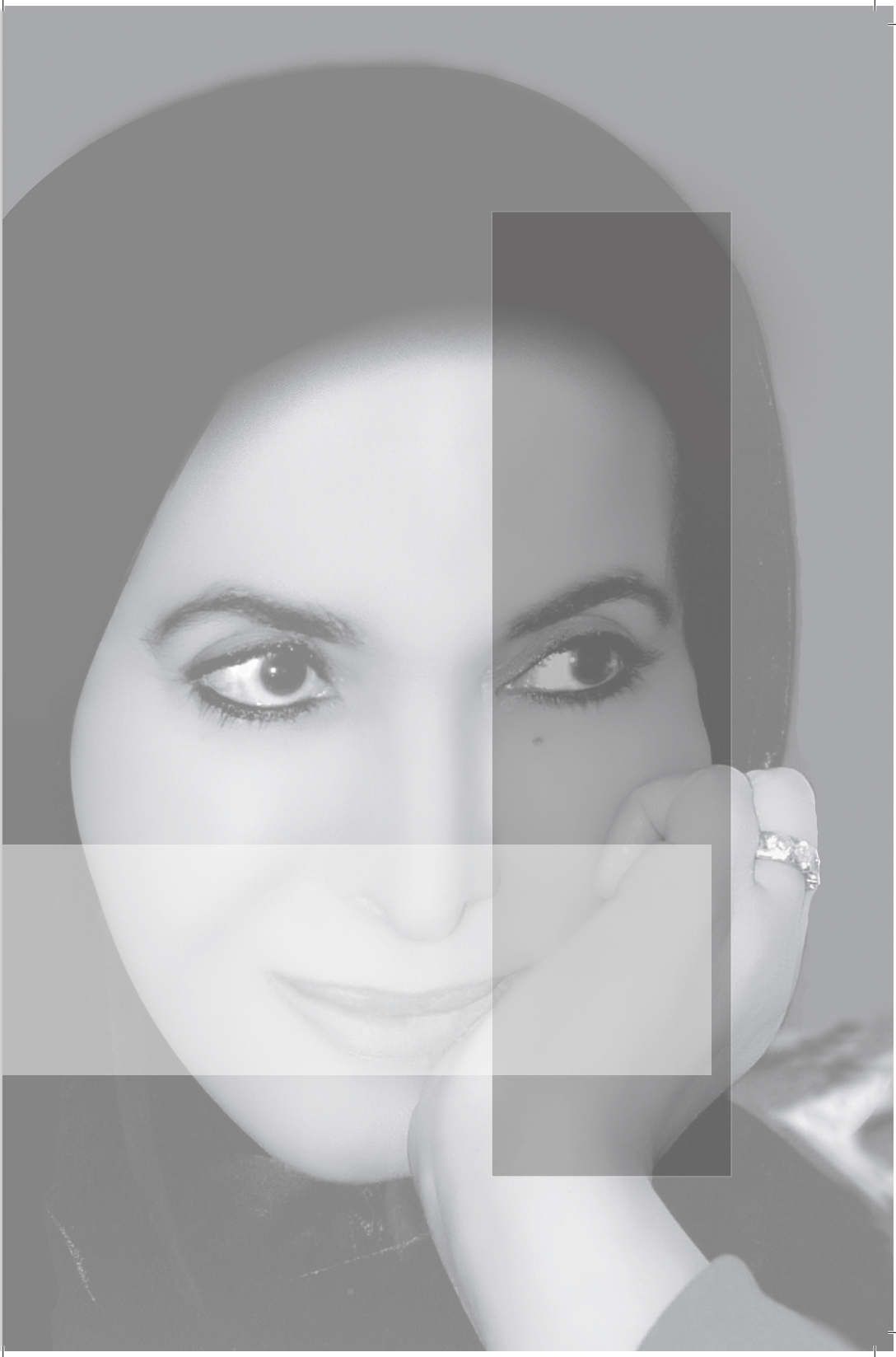

سعاد الصباح البدوية العاشقة
قراءة في ديوانها "والورود تعرف الغضب"

عدنان محمود عبيدات *
زهير محمود عبيدات

تبحث هـذه الدراسة فـي ديوان **"والورود تعرف الغضب"**، إذ ركزت الشاعـرة فيه على معاناتها وآلامها الشخصية لفقدان زوجها الأمير عبدالله مبارك الصباح، فقدمت تجربتها الإبداعية بقصائد دالة موحية، تؤكد ترابط الأسرة المتمثل في تعلقها الاستثنائي بالأمير الزوج من جهة، والثورة والتمرد على سلطة الرجل مـن جهة أخرى، تناصر المرأة العربية، وترفض أن تظل مأمورة طائعة من دون أن يكون لها رأي أو موقف. يظهر في الديوان تمسكها ببداوتها وعروبتها، وأنها ترفض أنصاف الحلول، مع أنها قبلت سلطة الرجل الزوج.

وقد كانت قـادرة على تشكيل الحدث بأسلوب تصويـري بديـع، يظهر فيه الانتماء والصبر والعشق للأسرة وللوطن وللأمة وللإنسانية، لكنها في كثير من الأحيان طوقت نفسها بالماضي الحزين الذي لم ينطفئ على مر الزمن. فقد أكدت سعاد الصباح في ديوانها أن المرأة تحب وتغضب كما الرجل تماماً، وعبرت فيه عما في داخلها من عشق ورفض وكره وثورة.

ولا بد من الإشارة إلى أن ما صدر من نقد لشعر الشاعرة يقتصر على ما ورد في هذا الديوان، وما ظهر من ملاحظات كانت الشاعرة قد أشارت إليه في كثير من مؤلفاتها وإصداراتها، لكننا نتحدث عن عمل شعري كان الحديث في أغلبه يدور حول معاناة الشاعرة بسبب فقدان زوجها.

أولاً- عتبة البحث:

يقـوم هـذا البحـث علـى سبـر أغوار نفسية سعاد الصباح من خلال ديوانها "والورود تَعرِفُ الغضب"، واللافت للنظر أنهـا طرحت في أغلب شِعرها قضية مهمة شغلت بال المرأة العربية والمهتمين بها زمناً طويلاً، وهي العلاقة بين الرجل والمرأة، وحاولت أن تصور نفسها ثائرة رافضة لسلطة الرجل المستعمر الذي نصّب نفسه وينصّبها سيداً متسلِّطاً على الطرف الأهم في المعادلة الحياتية وهي المرأة.

كانت سعاد الصباح قد استسلمت لسلطة الرجل/الزوج، ومكّنته من نفسها، ورفضت إلا أن تراه قوياً مستعمِراً، ولا ترضى إلا أن تأتمر بأوامره، كما ظهر في غير ديوان لها. تُشعِرك في ثورتها بتوتر عميق وطرب داخلي مؤلم، قدمته بفعل شعري ناضج، وبانفعال غير محسوب، تتجول في الأزمان كلها، تصور معاناتها ببراعة وتصف الأمكنة بتفاصيلها وهي تتذكر زوجها. وقد ركزت مدارات سعاد الصباح على المرأة في موقع الحبيبة، والمرأة في موقع الزوجة، والمرأة في موقع الأم، والمرأة في موقع الأنثى، والمرأة في موقع المواطِنة. وعبرت سعاد الصباح الشاعرة الكويتية المعروفة عن هموم جيلها بجرأة واسعة الصدى، وأشركت الطبيعة- مكوناتها ومفرداتها -في التعبير عن أحاسيسها ومشاعرها، بل إنها خلعت أحاسيسها على الطبيعة، وأشارت إلى أن للمرأة دوراً لا حدود له في الحياة، فهي عندها ليست مجرد أنثى بل كيان قومي حضاري، ولا بد من استيعاب أبعاده، وتدعيمها وتعميقها، بل تتجسد فيها أحياناً عناصر الطبيعة التي تميـز بلدها.

تتحدث الشاعرة سعاد الصباح في ديوانها "والورود تعرف الغضب" عن معاناتها الشخصية لفقدان زوجها الأمير عبد الله مبارك الصباح، فالشعر الملجأ الكبير الذي تلوذ به للبوح بآلامها، تقول: **"إنني ألجأ إلى الشعر لأتحرر من الخوف الذي تَشعر به الأنثى في هذه المنطقة، ألجأ إليه لأنه يحميني ويقويني، ويستمع بقلب كبير إلى أسراري الصغيرة،**

وهمومي الكبيرة، إنه الصديق الرائع الذي أستطيع أن أبوح له بكل شيء.. ومن دون أن يخونني.. ألجأ إلى الشعر لأنه المكان الوحيد الذي أستطيع أن أصرخ فيه بحرية وأغنّي بحرية وأضحك بحرية وأبكي بحرية"، ويثير هذا الديوان كثيراً من الأسئلة الإشكالية، حاولنا أن نشير إلى بعضها قدر الاستطاعة، علماً أنه "لا يوجد معنى حقيقي للنص" كما يرى بول فاليري.

ثانياً- صرخة امرأة:

تربط الشاعرة بين المرأة والورود في عنوان ديوانها، وتُشير إلى أن هذه الورود تغضب كما يغضب الرجال، وتعبر عما في داخلها من عشق أو كره أو رفض أو ثورة كما الرجال تماماً، ولعل هذا جاء حصيلة مجموعة من المواقف أو على الأرجح ارتبط بتجربة ذاتية خصبت لديها شعوراً بأن المرأة فاعلة في مجتمعها، ومن ثم فإن صرخة الشاعرة الغاضبة في ضوء تجربتها الشعرية لا تُحقِّق كينونة مفقودة أو طموحاً مغيباً، وإنما تشير إلى حالة من الرفض لظروف اجتماعية طارئة، جاءت حصيلة فقدان الشاعرة لزوجها، ملهِمها ومعلمها وسيدها الذي أخلصت له كل الإخلاص، وجسدت في زوجها عبدالله مبارك الصباح "المثال الإنسان الذي يحق للشاعرة أن تبكيه بدموع كالأنهار وتفقد الأمان بعده"، إنك تقرأ في شعر الشاعرة ثنائيات ضدية عميقة وكثيرة، فقد كانت رافضة ومتحدية وعاشقة في آن.

أسست أول قصيدة في الديوان لحالة غضب أو ثورة على المجتمع الذكوري، وسعت إلى محاولة البحث عن كينونة قادرةً على إثبات الذات الأنثوية التي تشعر بالقهر أمام الرجل، فتتمرد عليه لتتساوى معه كياناً وشعوراً ووظيفة، لكن هذه الصورة تُستنزف أمام الزوج الذي يمتلك حق القوامة أو التصرف، فهل تعيش الشاعرة حالة من التناقض في إثبات وجودها؟ أم أنها تحاول الفصل بين وجودها الاجتماعي العام ووجودها الخاص بوصفها زوجة؟ تتمرد

هناك وتبدي حالة من الخضوع هنا، تستدعي حالة من الوعي تتطلب ثورة وتمرداً على المستوى العام، واستكانة أو خضوعاً علـى المستوى الخاص، وإلا فكيف نفسّر حالة الخضوع أو التبعثر التي تعيشها في كنف زوجها حياً وميتاً؟ تساؤلات تلح على الدارس وتكرس حالة التناقض التي تعيشها المبدعة تجاه وجودها، وتلح عليها هذه المتناقضات فيما يتعلق بعلاقتها بزوجها، فسلطته تعزز حالة الاستعمار كما الحرية، وهل يمكن القول إن ذات الشاعرة تنشطر نصفين؛ الأول يستدعي الثورة والتمرد، والثاني الخضوع والاستسلام؟ وهـل تحاول تشكيل وجودها في حالتي الانعتاق والخضوع؟ أو في حالتي الرغبة والرفض؟ وهل تبحث عن وجود يقتضي العصرية أو ما يزامنها من مستجدات؟ وهل تحاول الفصل بين العلاقة الزوجية والحياة الوظيفية؟ وهل ترغب في التمرد على التقاليـد والخضوع لها فـي الوقت ذاته؟ فهي في داخلها ترفض استعمار الأرض الذي فيه ضيـاع وتشرد وذلّة، إلا أنها رضيت باستعمار الرجل، لأنها ستكون هي الأرض المستعمرة والوطن. تقول في ديوان" **امرأة بلا سواحل**":

"يا سيدي
يا أيها المَخبوءُ من عشرين عاماً.. في الوريد
يا من يغطّيني بمعطَفه
إذا سرنا معاً فوق الجليد
مَا دُمْت لاجئة لصدرك
ما الذي من هذه الدنيا أريد
ما دمت موجوداً معي..
فالعام أسعد من سعيد".

للإجابة عن التساؤلات الكبيرة التي تطرحها الدراسة، ويطرحها غير دارس، لا بد مـن القول: إن الشاعرة لم تكن لتتناقض مع نفسها في موقفها من

الرجل، والمتمثـل بعلاقتها مع زوجها من جهة، وفي تمردها ومطالبتها بحقوق المرأة العربية من جهة أخرى، فقد كانت سعاد الصباح عاشقة مطيعة تقبل الرجل/الزوج، وكانت تريد في علاقتهـا معه أن تكون أنموذجاً رائداً لكل علاقة زوجية، لا بد أن تقـوم على التقدير واحترام الرأي الآخـر، فأرادت أن تعمم تجربتها لتؤسس لعلاقة عشق بين الإنسان/الرجل والإنسان/المرأة، ولهذا لم تكن سعاد الصباح مدفوعة للتمرد، لأنها لم تكن تعاني من قمعه ولا من تسلطه، فكانت تتوحد مع ذاتها وزوجها وأسرتها توحداً استثنائياً، لكنها كانت تطالب الرجل بأن يكون كالزوج الأمير.

إنها تجربة إبداعية مليئة بالتساؤلات، ولكنها في الوقت ذاته تؤسس لانعتاقٍ أنثوي من سلطة ذكورية محببة قوامها العشق والتوحد والتوافق والمتعة، والانسجام مع الذات ومع الآخر الخاص/الزوج.

ثالثاً- البدوية الرافضة:

تقـرر سعاد الصباح في أول قصيدة في ديوانها أنها امرأة من مكان بعيـد، فهـي تعتز بأنوثتها وتصرح بها وتؤكدها، وتلفت الانتباه إليها، لكنها في الوقت ذاته تصرح بأنها امرأة استثنائية من مكان استثنائي، تقول:

" أَنا امرأةٌ من فَضاءٍ بعيد
ونجمٍ بعيد "

لقد نأت الشاعرة بتفكيرها عن واقعها الذي ترفضه، حتى وضعت نفسها في فضاء بعيد، وفي نجم بعيد أيضاً، لا يستطيع أحد أن يصل إليه، وارتكزت فـي هذا على تشكيل فني خاص، تؤسس لحالة أنثوية خاصة، تخرج معها من الليونة إلى الصلابة والتحدي غير آبهة بالوعيد، ولعلها بذلك تكشف عـن موقفها الذي يتسم بالثبات في التعاطي مع المواقف، فكما أنها ترفض

الخضوع أو الاستكانة أمام الوعيد، فإنها لا تقبل المساومة أيضاً مهما كانت الأسباب والمغريات، تقول:

" فلا بالوعود ألين...
ولا بالوعيد".

وقـد أكدت أنها صعبة المراس، فكررت وأبعدت في تحديد المكان فكانت "من نجم بعيـد"، وأقرت أنها من فضاء صعب ممتد، ولم يكن المكان عندها محدوداً، وسهل المنال، ولياً وطائعاً للساكن الجديد، ولم يكن من السهل أن تطأه الأرجل وأن تمشي فوقـه المتناقضات، بل كان فضاء لا محدوداً وفي غير المتناول، لا يستطيـع أحد أن يحلـق فيه إلا هي، فهي المستثناة، لكنها الوحيدة المحلِّقة، تُعبـر عن الرفض، وفضاؤها متسع اتساع رفضها وممانعتها، وقد تموضعت نجمـاً في مكان بعيد يراه الناس ولا يستطيعون الوصول إليه، وقد تكون في ذلك المكان مصدر إلهام ومدرسة علم وإشارة يراها الناس جميعاً، لمن أراد أن يعبر عن ذاتـه ورفضـه من الرجال والنساء في آنٍ.

إن الحالـة الاستثنائيـة التي ارتأت أن تموضع فيهـا الشاعرة ذاتها عبـر المكان "من نجم بعيد" تؤسس لحالة من التغيير، وهو بالطبع تغيير يجنح نحو فضاء إيجابي فيما يتعلق بفاعلية المرأة تجاه المجتمع، إذ يصبح فضاء المكان الممتد مؤشراً إلى هذه الرغبة، ولاسيما حين تتكشف أبعاد هذا الفضاء عن إشراقة أمل وإطلالة عبر هذا النجـم رغم بعد المسافة، فتؤسس الشاعرة لفكر واعد يبدأ بالذات المبدعة التي لا بد أن تكون مصدر وحي وإلهام لوعي قادم. وتقدم لفظة "أنا" في قولها "أنا امرأة" لتؤكد أنها تتحدث باسم جنسها، وتدافع عن قضاياها معتزة بدورها الذي تقوم فيه، ثم تقرر أنها بدوية فتبدأ جملتها الاسمية بالخبر لأهمية معناه، تقول: **"بدويةٌ أنا"**.

فهي تفتخر ببداوتها التي تتسم بالنقاء والبـراءة كالصحراء، "وفي البـداوة حسـن غير مجلوب" كما يقول أبو الطيب المتنبي، لكنها رافضة تحمل راية

الثـورة على واقعها الذي تشعر أنها مستضعفة فيه، وتبدو من خلال عبارتها أنها تتمسك بأصالتها وتاريخهـا وثقافتهـا وبداوتها التي تمثل في نفسها تاريخاً فيه مشقّة، وذاكرتها من خلالها تمثل ذاكرَة أمـة لا تُنسى مرت بعصور من القهر الذي يمتد عبر فضاءات الزمن البعيد، وهذه الذاكرة المسيطرة أكثر حفظاً وقـوة، لكنها قد تُمحى، فالزمـن قهر على الرغم من اعتزازنا به، وترى الشاعرة أن في الأفق القريب أملاً بحياة تُبعِد هذا القهر المركوز في الذاكرة، إنها أرادت من خلال احترام البداوة أن تعيد للأذهان حقيقة مفهوم هذه الميزة العربية، لكونها قانون حكم الحياة الغابرة، فكانت ملمحاً مشرقاً، طبع الحياة العربية بشكل متواصل، فقد حوت الكثير من مكارم البداوة وأخلاقها، وكانت المرأة مرتكزاً لتأصيل هذه المكارم واحترامها وحمايتها وقبول إجارتها وشاعريتها، ولهذا وجدناها مرتكزاً في التجربة الشعرية، إذ بها وحدها كانت تفتتح القصيدة، وعليها وحدها بكى العربي وجداً وسالت دموعه حزناً، وخلفها وحدها استمرت رحلته هابطاً ومرتفعاً بين السهول والأودية والجبال والسفوح، فأرادت سعاد الصباح أن تعيد للذهن المعاصر ما كانت تعني البداوة في بعض صورها المشرقة، وهي أن المرأة دعامة مهمة في حياة البدوي العربي، فتحدت كل من خان هذا المفهوم.

يلحظ قارئ هذا الديوان أن الذاكرة عند الشاعرة مخصبة تخصيباً عالياً الحركة والقوة، فالقهر في كل مكان، وملايين الشموس المستنفرة -كما تقول- تختبئ تحت جلدها، إشارة إلى أن بدائل القهر المضادة جاهزة للخروج والولادة والتصدي، وفيها خلاص وحرية وضياء ومحبة ومساواة، والجَلَد عندها حدوده قصوى، كأنه فضاؤها الذي أشارت إليه في المقطع الأول، تقول: "ويختبئ تحت جلدي ملايين الشموس"، حيث أشارت أيضاً إلى الكثرة والشدة في كلمة "ملايين" وفي كلمة "الشموس"، لتؤكد أن القهر - مهما كان قوياً -لن يستطيع أن يصمد، فمن صفات الشمس الواحدة أنها تضيء الكون كاملاً، فكيف إذا كان الخلاص والإشراق بملايين الشموس؟ وحالة القهر التي تختزنها ذاكرة الشاعرة في أعماقها لم تجعل منها امرأة مهزومة، وإنما ولدت

لديها شعوراً بالغبن الذي حرك فيها الذات الطامحة إلى الانفلات من التسلط والقهر، وولدت لديها حالة من الوعي والنضج الذي اقتحم صمتها وسلوكها على شكل شموس تبحث عن طريقها تحت جلدها، فهي تعبّئ الذات بالأمل للخلاص من القهر والألم، وهي في شدتها تحتاج إلى شموس كي تستطيع أن تتخلص من الظلام الدامس المرعب، المنتشر في فضاءات الإنسان العربي، بدلالة قولها:

"بدويةٍ أنا أختزن في ذاكرتي
عصوراً من القَهر..
ويختبئُ تحت جِلدي ملايين الشُّموس".

ففي هذا المقطع تأكيد "الأنا "البدوية المقهورة، وقد كرَّرت "الأنا" في غير طريقة في هذا المقطع،" فبدوية أنا" و"أختزن أنا" وهو الفاعل المحذوف، وفي ذاكرتي" أنا" والأنا هنا ليست أنا الشاعرة فحسب، وإنما أنا المرأة العربية البدوية التي تعيش القهر في مجتمع ذكوري، يلغي دورها، ولا يستمع لرأيها، ولا يسمح لها أن تقرر مصيرها، هي امرأة تطيع ما تحب وما تكره، وهي المرأة المنجبة المطيعة وكفى، كما ترى سعاد الصباح.

إننا نرى أن الشاعرة قد جانبت الصواب عندما ربطت بين بداوتها والقهر الذي تختزله على مر الزمن، فالبدوية لم تكن مقهورة كما ترى الشاعرة، ولو كانت كذلك لم تكن وحدها مفتتحاً للقصيدة الشعرية، بل كانت موضوعاً ملازماً لخيالات الشعراء والأدباء على مر العصور، يعبِّرون لها عن عشقهم وحزنهم وآلامهم وغربتهم، وقد رسموا لها الصورة الجميلة بتفاصيلها كلها، وعاشت المرأة هموم مجتمعها وأحلامهم ويقظتهم، وحروبهم، ومآسيهم، وكانت الشاعرَة والأديبة والفارسة وصاحبة الرأي، والشواهد على ذلك كثيرة.

ترى الشاعرة أن المرأة العربية على غير ما قرر الرجل، فهي القوية التي تستطيع أن تشارك الرجل، وأن تصنع المجتمع، وأن تكون عنصراً فاعلاً مضيئاً

مشرقاً،" فهي بدوية حتى النخاع حين تعشق، فعلى الرغم من حياتها المترفة وسفرها الدائم وإقامتها في عواصم العـالم التي عُرفت بالرقي الحضاري وجمال الطبيعـة والحرية، فإنها لم تستطـع أن تتخلص مـن النزوع إلى بداوتها".

إن هذه الشموس التي تتموضع في حركـة سكون مؤقت تكشف عـن طمـوح يتسامى بمقدار هذه الأصالة التي يعززها تاريخ هذه المرأة، فهي لا تسعى إلى أنصاف حلول، وإنما تسعى إلى خلق كينونة قادرة على تحقيق الذات، ومن ثم تصبح الشموس تعبيراً عن نضج ثوري للوجود الأنثوي الذي يرفض الاستجداء، ويسعى إلى خلق حالة فكرية تخصّب هذا الفكر الأنثوي بما يمتلك من قوة وأصالة وإبداع.

لقد أقامت الشاعرة تجربتها الأدبية على حافات خطرة في حياتنا الراهنة، السياسة والحب، ومن هذين المنطلقين صرحت سعاد الصباح بصوتها ممزوجاً بالرضى تارة، وتارة أخرى هادرة بالغضب والرفض والتحدي، والمرأة العربية ممثلة بالشاعرة نخلة عربية الأصول ترفض أن تكون رقماً، وأن تكون سلعة، وقد سخّرت النخلة مكوناً ثقافياً ورمزاً تمتد جذوره عبر الزمن، يتموضع في قلب هذه الأمة، وهو جزء من تاريخها وتراثها وعشقها لتعلن ثورتها واعتزازها بأنوثتها وكيانها، فكانت النخلة معادلاً موضوعياً لصورة المرأة العربية العاملة الفاعلة، فالنخلة عطاء وقوة وغذاء وطاقة، ولها خصوصية المكان، وقد ذكرها القرآن غير مرة، وذكرتها الأحاديث الشريفة غير مرة أيضاً.

كانت سعاد الصباح ثائرة باسم المرأة العربية النخلة بطولها وقوتها وصمودها في وجه قسوة الصحراء؛ حرها وبردها، وهي صامدة تعطي، ولهذا حُق لها أن ترفض وأن تقاوم وأن تثور على واقع يظلمها ويلغي وجودها، وتطلب أن يكون لها دور في صياغة المجتمع، تقول:

" أنا النخلةُ العربيةُ الأُصولْ
والمرأةُ الرافضةُ لأنصافِ الحلولْ
فبارِك ثورتِي."

هذه القصيدة أولى قصائد الديوان، وهي رمزية، تشير الشاعرة فيها إلى أفكارها، فاختصرت نفسها بكلمات دالَّة موحِية، تجسد الزمان والمكان في آن، وقد انتقلت بهذا الوصف من ذِكر المكان إلى ذكر الزمان، في موقعين مختلفين، تتحدث فيهما عن النسب بوصفه رمزاً ممتداً عبر الزمن، يتذكره أهل القبائل الذين يحترمون أصولهم، ويتمسكون بها، والموقع الثاني هو الزمن من خلال الإشارة إلى النخلة بوصفها ملمحاً ثقافياً يتجذَّر في المكان والزمان، لا تقوى عليها الرياح، ولا تنحني للأيام، فاختزلت الزمن بسكون أقوى من الحركة المتغيرة، فسكونها من خلال شجرة النخيل والفضاء البعيد أقوى بكثير من سلطة الحركة.

رابعاً- تخصيب الذاكرة:

تستغرق صورة الزوج عبدالله مبارك الصباح أغلب قصائد الديوان، الذي تقول عنه في تقديمها للقصيدة الثانية: "إلى عبدالله المبارك زوجي، ومعلمي... وصديق العمر الجميل في يوم ذكراه"، فبينها وبينه لغة عشق ووفاء ندر نظيرها، فزوجها كما تقول غيّر حياتها:

"أَعرِفُ بين رِجالِ العالَمِ رجلاً..
يشطُر تاريخي نِصفينَ
أعرفُ رجلاً يستعمِرني..
ويحررني..
ويَلملمَني...
ويبعثُرني...
ويخبئُني بين يديهِ القادِرتين".

وقد اتكأت الشاعرة هنا على التكرار، لتعبر عن مشاعرها ومكنوناتها، فكررت عبارة "أعرفُ رجلاً "مرتين، فجمعت فيها بين التعريف والتنكير، لتؤشر إلى أن بصمات هذا الرجل الزوج واضحة في حياتها، ولتؤكد أنها تحبه رغم تناقضاته،

فهو –تقول- يستعمرها ويحررها، يلملمها ويبعثرها، فصورة الاستعمار عند الإنسان صورة سلبية بأبعادها الفردية المتمثلة بسلطة الرجل؛ والجماعية المتمثلة بسيطرة الشعوب على مقدرات شعوب أخرى، لكن الاستعمار عند سعاد الصباح كان برضى منها، فتغيرت صورة المستعمر من صورة القاتل الظالم المهيمن المرعب المخيف الغريب إلى صورة المعشوق المرغوب فيه الرحيم المخلّص، سلطة لم تشعر معها باستنزاف الذات، بل بدت فيها العلاقة الروحية تطغى على كل شيء، وما إن اهتزت هذه العلاقة حتى خرجت صرخة الغضب مدوية، وكأن المقدمة هي الخاتمة، فهي تعيش حالة شعورية خاصة، يستنزفها الزمن حين تعود بذاكرتها إلى الزوج الذي عاشت معه حالمة مستقرة، لا يتعدى حلمها إطار الأسرة، وما إن فارقها الزوج حتى شعرت بالصدمة، فبدأت تبحث عن وجود جديد يعالج حالة الشعور بالاستنزاف، وتبحث في الدورة الوجودية للمرأة، وتفسر وجودها الحي الذي يتزامن مع وجود الزوج الذي يمثل حالة الخصب والعطاء والإشراق.

تتحدث الشاعرة عن ثنائية ضدية بصورة فنية جميلة، تختصر المسافة بين الرجل والزوجة المخلصة، فهو مستعمر ومحرر في آن، وهو يلملم ويبعثر في آن، وهذه الثنائية المتضادة في العلاقة الزوجية الراقية أحبتها الشاعرة، وَقبِلتها العاشقة، ثنائية جمعت الاستعمار والتسلط ثم التحرر والعدالة والتحرير والحرية والسلطة، وقد لحظنا أن فعل الرجل بالزوجة قد رتبته الشاعرة بطريقة واعية، وتقفل الحالة بقولها: "ويخبئني بين يديه القادرتين".

وقد أكدت في القصيدة الأولى أنها امرأة بدوية، وهذا تأكيد لسلطة الرجل، فله عندها مكانة خاصة، له الصولة والجولة، وهي راضية على الرغم من الثنائيات الحادة التي عاشتها، وهي تستسلم استسلاماً تاماً عندما تقول: "ويخبئُني بين يديه القادِرتين"، وهو يخبئها خوفاً عليها، فالحاضر الأول والأكبر في هذا الجزء في هذه القصيدة هو الزوج، الذي تكررت الإشارة إليه في اللوحة الأولى أكثر من ثماني مرات، وهو قوة فاعلة في نفسها، ويتحكم في جغرافية جسدها؛ يشطرها نصفين، أحدهما مستعمر والآخر محرر، والحاضر

الثاني في هذه اللوحة هو الشاعرة، فقد وقع عليها فعل الزوج، فثنائية الـ (أنا) والـ (هو) حاضرة لا تغيب، وثنائية الفعل الحركي الجميل بين الاستعمار الذي يعني القيد وبين التحرير الذي يعني الحرية، وبين اللملمة والبعثرة ..تسيطر على تفكير الشاعرة، وكانت النتيجة أنها تختبئ بين يديه بإرادتها، وهي تنظر إليه بأنه القوي القادر على الحماية.

نقلت الشاعرة صورة أخرى من صور الزوج "هو" الغائب، لكنه حاضر بقوة في نفسها، وهو عندها أسطورة إغريقية لها صفاتها، فمن عينيه يلمع البرق، ومن فمه تتدفق الأمطار، وهي بهذا الفعل حرّكت الجماد، واستعارت للأشجار روحاً وجسداً موظفة عنصر الحركة، تبحث عنه كي تسمع منه، فلم يكن الزوج في مكان عادي، فالأشجار كثيرة لكنه أطربها وأشجاها، كما وصفته بالبرق، إذ هو صورة من صور العطاء، لأنه يرتبط بفعل هبوط المطر، فلمعانه وهطول المطر وغناء الأرض للمطر، ترتيب تقبله النفس وتفرح به، ولا يرفضه العقل، فتكون الغاية بهذا الفعل حركة عطاء دائمة، وفرح لا ينقطع، وذلك بإشارتها إلى الأسطورة اليونانية القديمة.

وتعود الشاعرة مرة أخرى لتؤسطر صورة الزوج الرجل، فترسم له صورة أسطورية أخرى، ففي المرة الأولى كان حضور البرق والمطر والفرح والغناء ظاهراً في غابة تمتلئ بالصفاء والغناء والأشجار، فغنى وتبعته أشجار الغابة، تقول:

"أعرف بين رجال العالم رجلاً
يشبه آلهة الإغريق
يلمع في عيَنيه البرقُ
وتهطل من فمِه الأمطار
أعرفُ رجلاً
حين يغني في أعماقِ الغابةِ
تتبعه الأشجار".

وفي المرة الثانية رمزت له بآلهة أخرى من أساطير الإغريق، فبعد المطر والغناء، كان العطاء والخير يتدفقان بكثرة، فمن معطفه يخرج القمح رمز الحياة والعطاء والخير، ومن معطفه تصبح الأرض خضراء جميلة، والحياة كأنها حلم رائع.

بعد ذلك تصفه بالفراسة التي قلما يتصف بها أحد، فهو يقرأ الصمت ويعرف ما تريد العيون لأنه يعرف لغتها؛ بإحساس مرهف، تظهر قدرته على قراءة ما وراء الظاهر،

فهو يقرأ:

"ما بين الأهداب..،
ويقرأ ما تحت الأهدابِ"..

وهو يسمع ما تريد العين الصامتة، وقد عدّت الشاعرة هذه النظرات موسيقا يستمتع فيها الرجل الزوج، "ويسمع موسيقا العينين". ولهذه الصفات الكريمة تقرر الشاعرة أن تمشي معه" مثل الأرنب"، وهذه صورة العلاقة التي ارتضتها الشاعرة مع الرجل الزوج، فهو السيد وهي الطائعة طاعة عمياء،" لا أسأله أبداً... أين؟"، ولهذا ترسم ثنائية الحياة والموت، تمشي معه وقت الرفاء والمتعة والجمال والمحبة والسعادة، وتمشي معه فوق النار، فثنائية الحياة والجمال/الثلج مع الموت الحريق/النار، يضاف إلى هذه الصورة- أعني صورة النار- أنها تمشي معه مهما كانت قوة الإعصار، كناية عن شدة الأخطار التي يواجهها وتواجهه وصعوبتها، فلن تنحني وستبقى معه تعينه وتواجه معه الأخطار، تقول:

"أمشي معه، فَوق الثَّلج، وفوق النَّار
أمشيَ معه
رغمَ جنونِ الريحِ وَقهَقهةِ الإعصار".

وهي لإصرارها على المواجهة، تمشي فوق الثلج وفوق النار، وتتحدى، فقد شبهت الريح القوية العاتية المدمرة بشخص مجنون، والإعصار برجل يقهقه، وتجلت في هذا المشهد التصويري المعبر حركية الصوت وجمالية الحركة والخطوط ممزوجة بالألوان فتحدثت عن قوتها، وأبانت عن تعلقها بمعشوقها رغم ما يحيط بعلاقتها من تحديات صعبة قوية، فالريح المدمرة التي لا يقاومها أحد، ولا يصمد في وجهها إنسان ولا جماد، يرافقها إعصار مرعب مخيف قاتل، لا يبقي ولا يذر، تقف الشاعرة في هذا الجو المجنون مع زوجها، وتظل معه متحدية.

وترسم في اللوحة التالية من قصيدة "أعرف رجلاً" العلاقة الحميمة التي تربطها مع زوجها ماضياً وحاضراً، تُخلص له الود حياً وميتاً، يلاحقها كقدرها، تقول:

"أَعرِفُ رجلاً.. حيثُ ذَهبتُ
يلاحِقُني مثل الأقدار."

ويبدو أن لحظات السعادة جعلت الزمن يمر سريعاً" كالإسراء"، وهو نفسه الذي أيقظ في نفسها وأعماقها الأنوثة، وصنع عندها حب الآخر والاعتزار بأنوثتها والتمسك بها مع الاعتراف المطلق بسلطة الرجل المحبوب، فقد زرع فيها الحياة، حيث عادت الصحراء مثمرة بعد أن كانت قحطاً لا حياة فيها، فهي قبله كانت صحراء قاحلة، فشجّر في قلبها الصحراء وأعاد العطاء والحب والجمال لها، تقول:

"أَعرِفُ رجلاً...
أَيَقظَ في أعماقي الأُنْثى
حِين لَجأتُ إليه
وشجّر في قَلبَي الصحراء".

وتقـرر الشاعـرة فـي قصيدتها "تحت المطر الرمادي" أن نقطـة ارتكازها في وقت تهتز فيه الكرة الأرضية ومن عليها هو الزوج "أنت"، فهو غوثها وقت المطر الأسود الملوث، ذي الرائحة الكبريتية التي لا تطاق، هو يحميها من مطر يختلف عن الأمطار كلها، لونه أسود على غير العادة، ورائحته كبريتية على غير العادة، ويبدو أنها رمزت لهذا بالحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها في جو ملبّد بالسواد والوحدة والقلق والخوف والجهل، وهذا يعني انتشار ظاهرة الأمّية الفكرية والاجتماعية والسياسية وكره الآخر، فهو يحميها حتى بعد مماته، وهو ثقافتها التي تتعلم منه الحياة في وقت لا أحد يعرف فن الحياة، فلا أحد يقرأ ولا أحد يعرف الكتابة في مكان "هذه المدن" التي يجب أن تكون على العكس من ذلك.

وقد أكدت الشاعرة سلطة الرجل على المرأة، فكأنهـا صنعت لنفسها طاغية مثقفاً، واستسلمت له، وجعلها تتيقن أنه يشكل ثقافتها، تحقِّـق من خلاله العلاقة الروحيـة السامية وتحقق الذات الأنثوية، من حيث وجودها وخصائصها وحيويتها، وتمنح هذه الذات حياتها المغيبة وصفاءها الروحي، واستقرارها العاطفي، ينقلها من الموت إلى الحياة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي أساس الوجود الإنساني، وللمدن عندها رؤية أنثوية مستقلة، لكنها تتسم بالأمية، وتعكس علاقة الرجل بالمرأة، لكن الشاعرة على العكس من ذلك، فهي تقرأ وتكتب، علَّمها شريكها هذا الفن الإنساني الراقي، لكنها جمدت عند حدود الذات وعشقها.

وتواصل الشاعرة تقديم صورتها بعد وفاة حبيبها، فالوطـن ليس الوطـن، فهـو يتفتت تحت أقدامها كزجـاج مكسور، وكأن التاريخ عندها قـد توقف، لأن سائق العربة "زوجها "قد مات، فتغير حالها، فلم تعد قادرة على الحب ولا على الكراهية، ولا على الصمت ولا على الصراخ، ولا على النسيان أو التذكر، فكأنها تبلدت، لأن أشواقها ذهبت إلى مكان بعيد، فأصبح قلبها فاسداً لا يصلح لشيء، تقول :

"لم أعد قادرةً على الحب.. ولا على الكراهيه
ولا علَى الصمت ولا على الصراخ
ولاَ عَلى النِّسيانِ ولا عَلى التَّذكُّر
لم أعد قادرةً عَلَى ممارسةِ أُنُوَثتي..
فَأَشْواقِي ذَهبت في إجازةٍ طَويَلَه
وَقْلبي عُلْبةُ سردين
انتهت مدةُ استعمالِها.

وهي في القصيدة نفسها تتحدث عن الوحدة والفقد وعن الذاكرة وعن الحزن والضجر الموجود في كل مكان، وتتحدث عن تفاصيل الفجيعة مستخدمة أشياء حسية تذكرها بالماضي الجميل في مقاهي العالم، وبالفناجين التي تروح وتجيء، فالحزن هو الحاضر الصديق والضجر هو الرفيق، والساعة وحقيبة اليد من عناوين الذكرى في ذلك المكان، تقول:

"ماذا أفعلُ بالَفناجينِ الَّتي تَأتي.. وَتروح؟
وبالْحزنِ الَّذي يطلُع كُلَّ ربعِ سَاعةٍ
حيناً من ميناء ساعتي
وحيناً من دَفْتَرِ عناوِيني
وحِيَناً مِن حقيبةِ سَفرِي؟".

وتتساءل في القصيدة نفسها مستخدمة أسلوب الاستفهام" ماذا"، ومكررة هذه الأداة في مقطع واحد غير مرة، تتساءل عن كثير من التفاصيل غير المحسوسة ذات الوقع العاطفي في النفس، من مثل" ماذا أفعلُ بتراثك العاطِفي؟"، وهذا التراث له عطر الياسمين ذي الرائحة العطرة، فعواطفه مزروعة في دمها كأشجار الياسمين، وتتذكَّر صوته الذي يشبه صوت الديك ينقر في شراشفها، لتدلل على رجولة زوجها وشدة استيقاظه، ورائحته العطرة

التي لها فتك سمك القرش تسبح في ذاكرتها، وبصماته الذوقية ظاهرة على أثاث الغرفة، وفصيلة دمه تسافر ليل نهار في كريات دمها، فعشقه يسير في دمها، ولا تستطيع التخلص منه.

في هذا المقطع تتجلى حركية اللون والصوت والبصمات وحركية الحركة، وقد استخدمت التكرار في هذا المقطع غير مرة في غير مكان، لتؤكد عشقها الأزلي له.

وتعترف في قصيدة" زوجي المعلم وأنا التلميذة" بأنها تعلمت من زوجها الراحل الكثير مما لم تتعلمه امرأة من زوجها، وهي تسدي له الشكر، لأنه دربها كيف تثقف ذوقها، وعقلها، وكلامها وشكلها، فقد علمها كل شيء، في نفسها ولياقتها ولباقتها وفي أناقتها، وهي تتحدث عن مكان العشاء على أنها أميرة، وتعترف أنه أمير من نوع خاص بذوقه ولباسه وأناقته ونفسيته، يظهر ذلك في أنها تعلمت منه كيف تكون أميرة بين الرجال وبين النساء، تقول :

"لَك الشُّكْر يا سيدي
فَمنك تَعلّمتُ كيفَ أُثَقِّفُ ذَوقي
ومِنك تَعلَّمتُ كيف أُثَقِّفُ عقلَي
وكيف يكون كَلامي عَلى مسَتواك
وشكلي عَلى مستواك
وكيفَ، إذا ما ذهبنا معَاً للعشاءِ
أكُون حبيبي عَلى مسَتواك
وكيف أكوَن أمام الرجالِ أميرة
وبين النِّساءِ أميرة".

ولم تكتفِ الشاعرة بما تعلمته من معلمها/زوجها، فهي تلميذة نابهة كما تقول، أخذت عنه ألوف الأشياء الصغيرة، كيف تنتقي ثيابها التي تلائم ذوقه، حتى زينة وجهها، وكحل عينيها، وقصة شعرها، وهو الذي رسم شكل الجسد

وجغرافيته، ونحت رخامة فكرها، تقول:

" وأَنت غَسْلت بماء البنفسجِ ثَغرِي
وأنتِ كتبت تفاصيلَ عمرِي
كما كُنت تُريد
وأغنيت روحي..
وأغنيتَ فِكرِي".

وهي من ثم تناديه فتقول:

"أيا سيد الحب..
ليس هنالِك بين الرجالِ سِواك".

وتقول:

"أنا امرأةٌ صَنعْتني يداك..
فأصبح صوتي امتِداداً لصوتك
وأصبح رأيِيَ انعكَاساً لَرأيكَ
وأصبح نَبضِي سريعاً كنبضِك".

وقد حاولت الشاعرة أن تخصب ذاكرتها بالكلمة فلعِبت بالنار، وفتحت كما تقول قبرها بيدها، عندما قررت أن تعود بذاكرتها إلى" رسائلي القديمة"، فاحترقت أصابعها ثم احترق المصباح الذي تقرأ على ضوئه ثم احترق سريرها ثم احترق ثوب نومها فأصبحت" كوم رماد"، حيث وضعت الشاعرة نفسها في حالة سوداوية مرعبة عندما فكرت أن تعود إلى الذاكرة المكتوبة، لتحترق شوقاً وغراماً من جديد، فكان عليها ألا تدخل هذه المغامرة المُرّة، خاصة أنها تتعامل مع ذكريات لإنسان- كما تصفه- ترك فراغاً في حياتها، وفي تفاصيل أيامها الصغيرة كلها، فمن الطبيعي أن تكون هذه الرسائل قنابل ملغومة تحرق الأخضر واليابس، فكيف إذا كانت هذه الرسائل مليئة بعبارات العشق

والشوق والذكريات والأيام الجميلة بكل ما فيها من حركة وأسفار وأنس ولياليٍ سهر لا تُنسى؟ فكانت هذه الرسائل كما وصفتها ألغاماً، ومقصلة وموتاً وانتحاراً، كلماتها مجنونة، تقتل كل من يقترب منها من أصحاب العلاقة، تقول:

"وهذا ما فَعْلتُه هذه اللَّيَلةْ
حين فَتحتُ جواريري
وفتحتُ النَّار عَلى ذَاكرتي
وأيقظت الشيطان من نومه".

أصبحت الذاكرة عندها فعلاً شيطانياً يجلب الموت والدمار، وأصبح للزمن دور كبير في رسم مثل هذه العلاقة، فرسالة الحب يمكن أن تكون حياة ويمكن أن تكون موتاً، بحسب المقام والحال، فالرسالة كانت في وقتها عند الشاعرة عشقاً وغراماً، أما الآن وبعد الفراق الأبدي فهي موت وهلاك ودمار وانتحار، لأنها تثير في النفس أشجاناً لا تندثر، وأحزاناً لا تموت بل تتجدد وتثور كلما قرأها صاحبها، تقول:

"لَم أَكُن أَعرفُ أن رسائلَ الحب
يمكن أن تتحولَ إلى ألغام موقوَتةْ
تَنفَجر بي إذا لمستُها
لَم أكُن أعرفُ أن عبارات العشقِ
يمكن أن تأَخذ شَكلَ المقصلة..
لم أكن أعرفُ أن الإنسان
يمكن أن يعيشَ إذا قرأ رسالة حب..
ويمكن أن يموت إذا أعاد قراءَتها!!
أيةُ حماقة ارَتكبتُها؟
حين فتحت غطاء بركانٍ

هَمَدَ منذُ أعوامٍ...
وأية مغامرة دخلتُ فيها؟
حين أطَلْقتُ المارِد مِن قُمقُمِه".

يبدو أن ذاكرة الزمن هـي التي جعلت الشاعـرة كالدجاجة لا رأس لهـا، بعد أن أغرقت نفسها في بحر من الذكريات المؤلمـة لفراق عزيز، فتخاطبه بأنه الحاضر الغائب في الزمان والمكان، فكانت قراءة رسائله الغرامية بالنسبة إليها مذبحة حقيقية، وتجربة دامية.
وقد أثارت الشاعرة في نفسها ذكريات قاسية وصعبة عندما فكرت في أن تعود إلى رسائل العشق والمحبة التي كانت بينها وبين زوجها في الماضي الجميل، فتجربتها مع الزمن مُرّة، ولاسيما بعد فراق معلمها وملهمها وسيدها، تقول:

"قراءةُ رسائلي إليك بعد أعوامٍ من رحيلِك
مذَبحِةٌ حقيقية
وِها أنَذا أخرج من تَجربتِي الدامِيةْ..
كدجاجةٍ لا رأس لها"..!!

وقفت الشاعرة تستذكر الأيام وتستحضر الأمكنة التي تخصب الذاكرة عندها في "أوروبا" و"شتاء جنيف" و"شوارع لندن" و"جسور فينيسيا "و"بحيرة كومو"، ويخضع المكان بوصفه عنصراً بنائياً جوهرياً في المغامرة الفنية للعمل الإبداعي إلى مجموعة من الممارسات الجماليـة التي تضعه في قلب الفاعلية اللغوية للنص، إذ يتوغل في عمق الشبكة النصية وينشر علاماته وإشاراته على مساحتها ويلونها بألوانه، ويضفي على طاقاتها الإبداعية استعدادات جمالية أكثر تميزاً وحضوراً، حيث إن للأمكنة عند الشاعرة وقعاً خاصاً، تذكِّرها بالماضي، وفيها الكثير من صور الجمال الرائع في زمن وردي لا ينسى، لكن المكان عندها اليوم أصبح صورة من صور حصار الشاعرة الذي "لا يطاق"

كما تقول، فصار العالم كله بعد زوجها "ذرات غبار"، ولا شيء له قيمة بعد أن فقدته، ونسيت الشاعرة ألوان الجمال كلها، ومات في نفسها الإحساس بمفردات تلك الأمكنة، فأصبحت لا تعرف ولا تستطيع أن تتذكر لون البحر، ولا لون الغيم، ولا لون الشجر، لأن "الأشجار كلها لا تثمر إلا شجرة حنانك"، وهذه الأشياء كلها التي ذكرتها هي أجمل ما في الطبيعة من أشياء، فالبحر عالم رائع صامت حيناً وهادر حيناً آخر، يتناجى العشاق على شواطئه الجميلة، ويداعب الإنسان فيه موجه، ولا يستطيع أن ينسى ليله، أما الغيم ففيه جماليات لا تخفى على أحد، فيه الخير والدفء، وفي الشجر العطاء، وتحت ظلاله تكون أوجاع العشاق، وهمسات الكلام الدافئ، هذا كله لم يعد في ذاكرة الشاعرة، لأنها بعد موته **"تسكن قلب الإعصار"**، و**"لا شيء مهم إلا أنت"**.

ويلحظ القارئ في قصيدة" الرجل المستعمِر "استخدام ألفاظ من واقع معاناة الإنسان العربي في العصر الحديث، ترددت في مفردات الإعلام والمدرسة والشارع والجامعة، فاستخدمت ألفاظاً مكروهة مكرورة، لتعبر عن صورة العلاقة مع زوجها، وحولت هذه الكلمات من عدم القبول والرفض والامتعاض إلى الرضى بها عندها وعند المتلقي، فقد استطاعت الشاعرة أن تجعل لهذه الكلمات قبولاً، لأنها غيرت مدلولاتها، وأعطتها بعداً معنوياً جديداً، من مثل:

"يحَتلّني"
و"يرَفعَ راياته على أقاليم أُنوَثتي "
و"أيها الحاكِمَ بلا مراسيم ولا برلمان.. ولا استفتاءٍ شعبي"
و"أيها الاستعماري الكبير..
يا أجملَ البرابرة..
وأعدلَ الطُغاة..
أحبك.. وأعرفُ أنَّك مغتصب للسلطةْ
أحبك.. وأعرفُ لا شرعية احتلالِك

أحبك.. وأعرفُ عبثية الصراعِ معك
ومع هذا..
لا أطالِب بِخلعِك عنِ العرش"..

فالحب محَتلٌّ، والحاكم من دون مراسيم ولا برلمان ولا استفتاء شعبي، وكان المحبوب استعمارياً كبيراً. لقد نجحت الشاعرة في نقل المعاني من السلب إلى الإيجاب، وتحولت الذكريات الغائبة الحاضرة المؤلمة إلى ذكريات جميلة مرغوب فيها، صار فيها القبيح بفعله وقتله وحقده عادلاً وجميلاً، ولا ترغب في أن يزول أو ينتهي، وقد قبلت بهذا الاستعماري الجميل، لأنه يختلف عن صور الاستعمار الحقيقية كلها، فهو بربري في حبه ومتى كان البربري جميلاً وعادلاً في طغيانه؟ ومتى كان الطغاة عادلين؟ وهي تحبه ولا ترغب في خلعه عن العرش! ومتى كان مغتصبو السلطة محبوبين؟ هذه صورة العلاقة الزوجية الراقية، فمهما كان الزوج شديداً أو عطوفاً ومحباً أو جافياً، فلا بد أن تكون المودة والمحبة، ولا وشوق وأمان ولقاء، وبينهما طفل يولد أو يحبو أو يكبر، لا يمكن للمرأة البدوية العاشقة إلا أن تظل وفية لهذا الاستعماري الكبير، لأن استعماره حب ومودة بيتٍ، وفي هذا صلات وروابط تدخل في صميم حركة الدورة الدموية التي لا يستطيع الإنسان الخلاص منها أو التملص من الاتصال بها.

تخاطب هذا الاستعماري الكبير، فتقول:

"أدخلت الربيع والضوء والماء لنفسي فأينعت أيامِي..
وأورَقت ساعاتُ يومِي
فأصبحت شهيةً كالسكَّر
وصافيةً كالدمعة".

ويبدو أن تجربة سعاد الصباح في علاقتها مع زوجها وتعلقها فيه تذكرنا

بعلاقة غادة السمان مع زوجها وبخاصة بعد موته، فقد تشابهت التجربتان إلى حد كبير، وقد ذكرت غادة السمان تفاصيل كثيرة عاشتها مع زوجها مثلما فصلت سعاد الصباح، تقول غادة السمان: "وما زال صوتك يوقظني صباحاً، وأتوهم أنك تحمل لي قهوتي، وأشم رائحة البن والهال والفل الأبيض.. وكنت تقطف لي كل صباح فلة بيضاء مع قهوتي.. واليوم في ذكرى رحيلك وجدت على وسادتي فلة بيضاء، ولا أدري من أين جاءت!! هل زرتني وأنا نائمة؟".
وتقول عن زوجها:

"فأنت ما زلت حياً معي في البيت والشارع وكل مكان، ولكن لم يرك ولم يسمعك أحد سواي".

ركزت سعاد الصباح على تفاصيل الحياة الزوجية التي عاشتها في الماضي، والتي مازالت تعيشها في الحاضر، وضخمت معاناة البعد والفراق، فعبرت عن ماض جميل تولى، وتخيلت أنها ما زالت تعيش فيه، فكان الغرام هياماً، وكان التعلق قاسياً في الغياب والحضور، وكأنها تمثلت التجربة الصوفية في التعلق بالمعشوق، فهي كالعاشق الذي تشبث بكل سبب يتوهم أنه يوصل إلى المطلوب والفن والإبداع -كما يرى بعض الدارسين -كالتصوف يسعى إلى نقل الإنسانية إلى العلو وإلى نور الأرواح بعيداً عن ظلمة الجسد.

والحالة الشعورية الخاصة التي يعيشها كل من الشاعر والصوفي تتحد في مستواها الشعوري/الإنساني، فالشاعر لا شك يطمح إلى نوع من التسامي فيما يرويه من أفكار، وفيما يختلف في نفسه من مشاعر، وأحاسيس متجاوزاً بذلك قسوة الواقع وتناقضاته وآلامه، وكانت سعاد الصباح تتدفق وجداً وهياماً وتعلقاً في الحضور وفي الغياب، تتذكر التفاصيل وتسعى إلى توصيفها بأدق التفاصيل، فكانت خائفة مشتاقة حزينة رافضة، تستجلب الأحوال، أو تناجي الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة، تحاول أن تتّحد مع الماضي وتغيب

فيه، لكنه "والدهر لا يبقى على حدثانه"، "والدهر ليس بمعتب من يجزع"، وهي التي تختار أن تضحي بحريتها وصولاً إلى التوحد بالمعشوق، وهدم الجدران بين الـ(أنا) والـ(هو) على طريقة قيس بـن الملوح الذي كان في لحظات الوجد القصوى يظن نفسه ليلى، وينادي قيساً، وما تفعله الشاعرة في بعض الأحيان هو أن تستخدم الحق ذاته، وأن ترد التحية بمثلها.

خامساً- سلطةُ الثَّقَافة أم ثَقَافةُ السلطة:

أكَّدت الشاعرة الأميرة في أغلب قصائد الديوان العلاقة الخاصة التي تربطها بزوجها، الذي قالت عنه:

يا أيها النســـــر المضـرج بالأســـى
كـم كنت في الزمـــن الـرديء صبـــورَا
أأبـــا مبـارك كنـت أنت قبيلتـــــي
وجزيرتـي والشاطـئ المسْحـــــــورَا
يا خيمتي وسط الريـاح من الـــــذي
سيلـمّ بعـــدك دمعِـي المنْثـــــــورَا
يا من ذهبت وما ذهبت كأننـــــي
في الليـل أسمـع صـوتك البلـــــورَا
أنت الربيع، فلو ذكرتك مـــــــرَّة
صـار الزمـانُ حـدائقاً وعـبيـــــــرا
أنت السفينةُ والمظلـةُ والهـــــــوى
يا مـن غزلـــتَ لـي الحنان جُسُورَا

ولهـا الحق أن تقول في زوجها الأمير ما تشاء، لكنهـا نسيت في غمرة انفعالاتها بهذه العلاقة وإيجابياتها أن تشير في هذا الديوان إلـى هذه الشخصيـة الفذة مـن الجانب الإنساني، ونسيت أيضاً أن تصورها على أنها شخصية عامة، فهي

تتحدث عن الأميرة الإنسانة العاشقة، وتذكر الأماكن الجميلة في مدن الجمال العالمية، وتنقل صورة الماضي الجميل والحاضر الحزين في علاقتها مع هذا الزوج الرائع كما تصفه، ولم تتحدث عن الدور الإنساني لهذا الأمير، فهي لم تذكر كيف كان يتعامل في إغاثة محروم، أو إجابة طلب سائل، أو كيف كان يفكر في طبقات لا تجد الرعاية، كما أنها تصور مبادراته في الجانب الأشمل مع الناس وطبقات المجتمع المسحوقة، كي ننقل صورة حقيقية عن هذا الأمير النجيب، فلم تخرج هذه الشخصية عن حدود الاهتمام بها أو الاهتمام به، فقيّدته بها، وقيّدت نفسها به، وكان يجب أن تبتعد في تصويره إلى خارج حدود الخاص، وإلى خارج حدود ثقافة السلطة التي أشارت إليها في أغلب قصائد الديوان.

وهي عندما ذكّرت بفلسطين في إحدى قصائدها فكأنه أُقحم الحديث عنها إقحاماً، حيث جاء في غير موضعه في القصيدة، علماً أن الشاعرة في غير هذا الديوان قد أبدعت وأجادت وهي تصف الهم العربي، فهي في هذا الديوان تتحدث عن صديق الأزمنة الوردية، ووجهها يغطيه الفحم، ودواخلها تموج بالسواد، وفلسطين تحترق أيضاً، والسادية والغوغائية السياسية، وعشرات الأقنعة والملابس التنكرية، والطيور والأسماك تحترق، والإنسان العربي يحترق، ولا ندري لماذا هذا الإقحام على موضوع خاص! وعندما أرادت الشاعرة أن تشير إلى تأثير زوجها الأمير بالآخرين طلبت أن يظل ميراثه الكبير قلادة وفاء في عنقها، ولحظة باهرة في حياتها، وتاريخاً تُباهي به الدنيا، ثم تنتهي إلى القول:

"والذي سوف أتركُه من بعدي..
لأولادي ليتعلموا منه دروسَ..
الرجولة والكبرياء"..

فميراثه المخزون منهل يستفيد منه أولادهما كما يظهر في القصيدة، ولم تبتعد في ذلك ليستفيد منه المسحوقون والمحرومون والمقهورون والسعداء والأثرياء

والأبناء في آن، أي أن يكون مدرسة للبشر كلهم، ليس في حدود الإنسان العربي بل في حدود الإنسان على الأرض، علماً أن الشاعرة قد أشارت خارج هذا الديوان إلى كثير من مآثر زوجها، لكنها ظلت هنا عند حدود علاقة العشق العذري الذي لا يرى إلا معشوقه، وهي كما أرى لها العذر في ذلك، فهو الغطاء والرفيق والصديق والزوج الأمير.

الخاتمـــة:

تنّقلت الشاعرة خارج حدود المكان/الوطن والمكان/الأرض إلى فضاءات أشمل، فنشطت حركة الذاكرة عندها في أمكنة أغلبها في العالم البعيد، وهي لم تنسحب من المكان/الوطن لأسباب سياسية أو ثقافية أو اجتماعية بل لأسباب وجدانية ذاتية فردية، فسيطرت" الأنا" على أغلب قصائد الديوان، وكأنها تكتب شعرها في منفى بعيد عن مكانها الأصيل، وتسترجع ذكرياتها في جغرافيات تبعث الحزن والأسى، وتؤكد ارتباطها بماضيها الذي يشكل عندها فعل الحياة. فاستدعت الأمكنة بكل تفاصيلها الحسية وفضاءاتها البعيدة ومكوناتها، وسلطت ذاكرتها عليها لتكون شاهدة على هول المأساة التي عاشتها وما زالت تتذكرها، وهي تستحضر الماضي من خلال الخطاب المباشر أو الحديث عن الغائب أو تصوير آثار الماضي بالحاضر والعكس، ولهذا سكن الموت المكان في أوقاته الحاضرة كلها، ومرت الشاعرة بلحظات انكسار داخلي جعلها ترتد بعنف إلى الماضي بتفاصيله كلها الخاصة والعامة في علاقتها مع زوجها، ولهذا اكتسب هذا الارتداد بعداً زمنياً يتعلق بالمكان البعيد المتمثل بالأمكنة كلها التي زارتها مع شريك حياتها، والمكان القريب المتمثل في كل ما تتذكره في حياته، وما أسهم بتشكيله في أشيائها الخاصة، من مثل لباسها وشكلها وكحلها وأناقتها وأساورها وحقائبها.

وكان المكان طاغياً على أغلب تفاصيل العلاقة بين الشاعرة والزوج، وصورة القحط والجدب والمعاناة والموت تتراقص حولها في كل مكان، فلذلك تتساءل

كيف ستقابله بوجهها الفحمي الأسود الذي تشكل بفعل الموت، وهو من دلالاته، فمزجت بين الغياب والحضور، واتشحت الذاكرة بالسواد والموت وبالحياة، فكانت الصورة عندها تتحرك أجزاؤها ضمن طيف حركي شامل، وقد تكونت عناصر المكان من مفردات كثيرة من مثل الفضاء والنجم، وهما مكانان مفتوحان، أرادت من خلالهما أن تدلل على علو مكانتها، وسمو قدرها، ومن مثل" الإسراء" الذي يشير إلى سرعة الزمن، لأنه في غاية المتعة، وقد تغير الحال، فصار الزمن ثقيلاً، موجعاً صعباً، فالدهر لا يبقي على حدثانه، فأتعبتها الأيام، وأنهكتها الهموم.

لـم تقف عنـد الهم الجماعي إلا في القليل النادر، أو أنها جمعت بين الهم المفرد والهم الجمعي فـي هذا الديوان، أو أنها تحدثت عن هم قومي أو إنساني، فغرقت في بحر أحلامها وتوحدت مع جحيم علاقة وصفتها بالمشؤومة عندما قرأت رسائله في تلك الليلة القاسية قسوة الفراق.

وتجلت فـي الديوان ثنائيات بأبعاد مختلفة بيـن الفضاء المفتـوح والنجـم وبين الأرض، وبين الجسد والروح، وبين الورد" النرجس" وبين الفحمة، وبيـن الغائب والحاضر، وبين الحضور الروحي والحضور المادي، فقد كشفت في هذا النص عن لحظات فاصلة في حياتها، واختلفت عندها دلالات الأشياء بيـن الماضي بأحلامه الوردية النرجسية وبين الحاضر بأقنعته السلبية القبيحة، فكان فعل الحركة في الأزمان كلها فعلاً متسارعاً، لا يتوقف عند حدود الشيء الواحد بل يتعداه إلى أحداث كثيرة متناقضة وعبثية في كثير من الأحيان.

وغلب طابع الحزن على شعر سعاد الصباح، ولاسيما مرحلتها الشعرية الأولى، وذلك متأتٍّ من كونها امرأة، امتلأت حزناً، فهي تستشعره بشكل متواصل، لأنه يشكل جزءاً من فطرتها وذاتها، ويعمق هذا الحزن أمومتها الجريحة بعد فقدان ولدها، ويتضاعف بعد فقدان وطنها، فتوظف لفظة الأرض منطلقاً يستدعي مدلولات أخرى تناسب الألم والقلق والوحدة والفزع، فتحشد في شعرها من خلال لفظة الأرض مدلولات تجعل من هذا الحزن حنيناً فردياً وحزناً كونياً إنسانياً يوضح تصور الشاعرة لوضع الإنسان في هذا

الكون، وكانت أسباب الحزن قوية ثقيلة لا يقوى على حملها بشر، فكيف بامرأة رقيقة تصاب بأعز ما يصاب به إنسان، وتواجه موقف الموت المرعب منفردة وفي مكان بعيد عن وطنها، فقد فارقها ابنها فبكته وبكت حالها، لأنها لم تستطع إنقاذه، وتسلل من بين أصابعها كالماء ليلقى وجه بارئه. وعندما فقدت زوجها في الغربة ولم تستطع أخذه إلى بلده لتدفنه فيه، كانت فاجعتها مزدوجة، فنزلت إلى الشارع ترثي وطناً سلبه وطن، وترثي رفيق عمر تركها وأولادها في زمن رديء وغربة موحشة. وظهر بوضوح كثرة استخدام الصيغ الفعلية وبخاصة الفعل المضارع لتؤكد تسارع الأحداث وشدتها، وهي حركة مستمرة، تعبر عن استمرار الحالة التي تعيشها الشاعرة، وظهر حديثها في كثير من المقاطع بصيغة المتكلم المفرد وبتوتر عالي التردد حزين، يخضع لقوى المكان، ويعترف بالسلطة والتبعية.

كما يلفت نظر القارئ **كثرة استخدام أسلوب الاستفهام**، ويبدو أن ذلك يعود إلى إحساسها العالي بالقلق والتوتر والوحدة والشوق والفقد، وقد حشدت الشاعرة في هذا الديوان كثيراً من الألفاظ التي تقع في اهتمامات الأنثى من مثل ألفاظ الورود والعطور والثياب وحب الأسفار.

هي شاعرة مبدعة بصيرة الخيال، تغلب عليها الرومانسية، بعيدة في طورها الحاضر عن المثل القديمة، تتسم لغتها الشعرية بالجرأة، فمن ألفاظها ما يداعبك كشعاع، ومنها ما يظلك كظل ينثال منه النظم، فيتشهى سمعك منه الأصداء.

وبعد، فسعاد الصباح الأميرة الشاعرة تلزمك أن تقرأها، وتشدك بإبداعاتها، وتتعلق بشخصها وتُعجب بإخلاصها ووفائها وأنوثتها وصبرها وصمودها شئت أم أبيت، فقد ذاقت مرارة الفقد، وويلات الحزن، فعبرت عن دواخلها بطريقـة تشد القارئ، فيعيش جوها، ويتعاطف معها، ولاسيما أنها صدمت كثيراً بفقد زوج أمير في وقت صعب عليها وعلى وطنها، وبفقد ابنها في أعماق السماء، وفقدان وطن وتشتت الأحبة في غفلة من الزمن الرديء، فهي بإبداعاتها وقدرتها على تشكيل الحدث بأسلوب تصويري بديع أميرة

استثنائية وشاعرة مبدعة بانتمائها وبحزنها وعشقها.

ولا بد مـن تذكير المتلقي أن ما يلحظه مـن رأي فـي هذا البحث إنما ينطلق من قراءة للديوان المذكور، ومن أراد أن يتصدى لشعرها عمـوماً وكتاباتها في مختلف الميادين يجد إلماماً وحضوراً في القضايا كلها التي لم تتطرق إليها الشاعرة في هذا الديوان، وعندها سيجد لكل سؤال جواباً.

* الدراسة نشرت في مجلة جامعة دمشق

سعاد الصباح أنشودة الإبداع والعطاء

شوقي بزيع*

تبدو مقاربة مسار وتجربة حياة مفكر أو باحث أقرب إلى فضاء واسع في حضوره وتأثيره، ولا سيما إذا ما كان مالئ الدنيا وشاغل الناس في إبداعاته وتفرده.

الشيخة الدكتورة سعاد محمد الصباح شاعرة وكاتبة وناقدة كويتية، اسمها يحمل حضور بلدها وريادته في الفكر والسياسة وتعميم الثقافة العربية، حاصلة على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية، أسست دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع.

تم تكريمها في العديد من الدول، والتي كان آخرها وسام الجمهورية التونسية -الصنف الأكبر- الذي منحه لها الرئيس التونسي المنصف المرزوقي تقديراً لما قامت به من أعمال أدبية وإنسانية.

في شهر يوليو من العام 2012 جرت في العاصمة الكورية الجنوبية سيئول مراسم منح جائزة في الأدب للدكتورة الصباح، وكانت لجنة أدبية أشرف عليها سفير دولة الكويت في البوسنة والهرسك سعادة محمد خلف أنجزت وبالتعاون مع الشاعر عبدالحميد الدكاكني ترجمة عدة قصائد من ديوان الشاعرة سعاد الصباح إلى اللغة البوسنية.

يذكّر مسار وحياة الشاعرة سعاد الصباح بالدور الرائد للمرأة العربية في التاريخ.

قد يستبد المال بصاحبه فيحوله إلى مستبدّ، وبدلاً من إنفاقه فيما ينفع الناس يجعل منه سياطاً تكوي ظهورهم ولو عن بعد، وذلك عندما يصبح الإنفاق نوعاً من السفه جرياً وراء سراب السمعة أو الألقاب أو الوجاهة الاجتماعية أو عندما يكون تطبيقاً حرفياً لأحد لوامع نزار قباني في رثائه عميد الأدب العربي طه حسين في قصيدته "حوار ثوري مع طه حسين".

ولم يعتد العرب وجود الكثير من النماذج المضيئة التي سخرت المال لخدمة المجتمع وجعلته رافداً خيّراً في السر والعلن، وفي مجال الأدب والثقافة والعلوم.
وكان أول ما لفت انتباهنا ونحن في ريعان الصبا جوائز الدكتورة الصباح التي تمنح للأدباء والشعراء العرب الذين لم يتجاوزوا الخامسة والثلاثين من العمر، وقتها وفي العام 1988م تحديداً لم نكن ملمّين تماماً بكل المؤسسات الفردية التي تمارس دوراً إيجابياً في خدمة الأدب والفنون حتى عثرنا على تجارب مضيئة في عدد من الدول العربية والأوروبية، حيث يلتفت أصحاب المال إلى الثقافة كي لا تصبح يتيمة منبوذة، الأمر الذي سلكته سعاد الصباح.
"الدانوب الأزرق" توثق جانباً دراسياً عن الشعر وحضور الإنسانة الشاعرة سعاد الصباح في سعيها لتوثيق دور المرأة في المجتمعات العربية.
لا يملك المتتبع لمسيرة الشعر العربي الطويلة سوى أن يلاحظ نوعاً من أنواع المماهاة بين تربع الشعراء الذكور على سدة هذه المسيرة والبنية الذكورية للكتابة نفسها.
والشعر العربي منذ المعلقات حتى البارودي وشوقي وحافظ على المنسوب المرتفع لوتيرة الكتابة المتصلة بالاستحواذ والعصب المشدود وإطلاق نفير المعارك والحروب. كما أن غياب الملاحم الكبرى، بمعناها المألوف، عن مسرح الشعرية العربية لم يمنع الشعراء من التحلق حول مبدأ القوة وتمجيد العنف بوصفه الأداة شبه الوحيدة لتحقيق الغلبة في مجتمعات منقسمة على ذاتها ومحكومة بالعصبية والتنابذ القبليين، حتى ما بعد قيام الدولة الإسلامية وبسط نفوذها على جزء غير يسير من العالم.
هذا الارتباط الدائم والوثيق بين الشعر والغلبة الذكورية انعكس في بنية القصيدة نفسها، بحيث بدت على امتداد مئات السنين بنية صلبة ومتراصة ومحكمة الإغلاق على نفسها، كما لو أنها نظيرة الجسد الذكوري بعضلاته المتينة من جهة وبتناظره النمطي من جهة أخرى.
وليس ضرباً من ضروب المصادفة على الإطلاق أن نطلق على الطبقة الأولى من الشعراء القدامى تسمية "الشعراء الفحول"، حيث إن هذه التسمية

توائم بين القوتين العضلية والجنسية وقوة الموهبة وسطوة الحضور الشعري داخل الجماعة، وهذا المفهوم للكتابة يلحق الشعرية المتفردة بالذكور دون الإناث.

إذا كان بعض النقاد لم يتحرجوا من إطلاق صفة الفحولة على بعض الشاعرات المتميزات والمتصفات بالجرأة في اللغة والموقف فإن ذلك الأمر ظل استثناء نادراً وسط تفوق الشعراء الذكور وهيمنتهم شبه المطلقة على ساحة النظم، أما الأمر الآخر اللافت فيتصل بمنظومة الأعراف والقوانين التي اعتبرها النقاد الأوائل معياراً لشرعية القصيدة وجودتها الفنية، والتي اصطلحوا على تسميتها بعمود الشعر، ولا يحتاج الناقد المتأمل إلى الاستعانة بسيغموند فرويد للربط بين هذه التسمية و"الامتياز" الجسدي للذكور الذين لهم وحدهم أن يفصلوا في أمر الفحولة واكتمال شروطها التعبيرية واللغوية بمعزل عن رأي المرأة ومشاركتها.

قد تكون الحادثة الشهيرة المتمثلة في انحياز النابغة الذبياني في سوق عكاظ إلى شعرية الخنساء على حساب حسان بن ثابت حادثة فريدة وبالغة الدلالة، إلا أنها تسير عكس مجرى النهر، ولا تلغي حقيقة القمع والتغييب التي لحقت بالنساء العربيات على مر العصور، دافعة إياهن للتحول إلى موضوع للكتابة ومحل لاستثارة شهوة الرجل وهواماته، دون اعتبار لما يجيش في دواخلهن وحاجتهن المماثلة للإفصاح عن ذلك الجيشان الجسدي والوجداني والتعبيري.

ومع ذلك فإن الهامش الشعري الذي ترك للخنساء لم يكن ليتوافر لولا اقتصار شعرها كله على المحل "اللائق" بالنساء الشواعر، حيث الجسد الأنثوي مغيب بالكامل خلف دور الأخت المكلومة بفاجعة الموت والمسندة ظهرها إلى قبري أخويها القتيلين في ساحة الوغى.

صحيح أن نساء أخريات تجرأن على منازلة الرجل في عقر داره وفوق ساحة الغزل المشبوب كما فعلت ليلى الأخيلية وضاحية الهلالية وولادة بنت المستكفي، ولكن هذه الصرخات الشجاعة ظلت أشبه بالجزر المتباعدة وسط

محيط ذكوري محكم الإغلاق. وإذا كان قد سمح للجواري والقيان دون غيرهن بالإفصاح عن رغباتهن عبر مقطوعات إيروتيكية بالغة الجرأة فلأن مثل تلك النصوص الفاضحة كانت تتناغم مع الدور المنوط بهن في تسلية الرجل والسهر على غرائزه وشهواته.

من هنا نستطيع أن نفهم حقيقة الانقلاب الجوهري الذي أنجزته تجربة الحداثة العربية عنذ نهاية النصف الأول من القرن الماضي، والذي اقتحمته نازك الملائكة وبعدها لميعة عباس عمارة وفدوى طوقان وعشرات غيرهن، حيث شكلت الانتفاضة الجذرية على عمود الشعر انتفاضة رمزية على مفهوم الفحولة الذكورية واقتحاماً لفكرة القصيدة/القلعة التي نجح الرجال عبر عضلاتهم الجسدية واللغوية في حراستها جيداً من الغزوات المتلاحقة للنساء "الأمازونيات" الباحثات عن تحققهن في الحياة كما في اللغة، هكذا غدت الحداثة الشعرية ضرباً من ضروب تأنيث القصيدة، على حد قول الناقد السعودي عبدالله الغذامي، وسعياً حثيثاً لتخليصها من فائض العنف وتليين أشكالها وإيقاعاتها الرتيبة عبر أنساق جديدة ومختلفة تتموج فيها التفعيلات بما يحاكي تموج الجسد الأنوثي، أو تتحرر من كل قيد كما هو حال قصيدة النثر في نزوعها المطلق إلى الحرية.

ولم يكن تحرير الأشكال من صنميتها الثابتة مقصوداً لذاته بقدر ما كان استجابة طبيعية لمخاض العالم الجديد الذي تقف فيه المرأة مع الرجل على أرض أكثر عدلاً وأقل تمييزاً بين الجنسين.

في ضوء هذه الحقائق يمكن لنا أن نفهم ما جاء في مقدمة سعاد الصباح لمجموعتها "قصائد حب"، حيث تقول: "هذه قصائد أحاول بها أن أقيم ديمقراطية عاطفية يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح، بحيث لا يحتكر الرجل وحده بلاغة الخطاب الإيروتيكي، ولا تبقى المرأة مجرد مستمعة لأسطوانة الحب التي يعزفها الرجل ليلاً ونهاراً. إن لدى المرأة كلاماً عاطفياً مخزوناً منذ آلاف السنين تريد أن تقوله، فاسمحوا لها بأن تنزع الأقفال عن فمها وتقول للرجل الذي تحبه: "أحبك" دون أن تذبح كالدجاجة على قارعة

الطريق".

قد يكون العنوان اللافت الذي وضعته الشاعرة لديوانها "في البدء كانت الأنثى" هو الرد المضاد على هيمنة الرجل واستحواذه والتذكير بأن الأنوثة في بعدها الأمومي المتصل بالمرأة أو بالأرض الأم هي أصل الخليقة وحاضنتها، بمعزل عن القراءة الدينية التي تجعل المرأة مخلوقة من ضلع الرجل. فخروجها من ضلعه لا يوجب التحاقها به وخضوعها التام لبطشه ورغباته، وهو ما يفسر تمرد "ليليت" على آدم، ورفضها الانصياع لهيمنته، وفق ما جاء في الأسطورة، قبل أن تظهر حواء بعد ذلك ميلاً أكبر إلى الطاعة والخضوع.

ولا نستطيع في هذا السياق إلا أن نربط بشكل أو بآخر بين عنوان مجموعة الصباح "في البدء كانت الأنثى" وعنوان كتاب الباحثة نوال السعداوي "الأنثى هي الأصل"، حيث إن غاية تغليب الأنوثة وإظهار أهميتها وأسبقيتها واحدة في الحالتين، إلا أن المقاربة متغايرة تماماً، حيث تعتمد السعداوي على البرهنة العقلية والعلمية والتاريخية، فيما تستخدم الشاعرة أدوات أخرى متصلة بقدرة المرأة الهائلة على الحب والحنو. وسواء كانت أماً أو زوجة أو حبيبة أو أبنة أو أختاً فهي قادرة دائماً على تلبس دورها الأمومي الأصلي والنظر إلى الرجل بوصفه الطفل الذي لا يكبر.

تجانب سعاد الصباح قدر ما أمكن الوقوع في فخ "التسوية" بالمعنى الذي عملت فيه بعض الجمعيات والحركات النسائية المتشددة، والتي قارعت العصبية بعصبية مماثلة والإلغاء بإلغاء مضاد، قاصرة صورة الرجل على بعدها العضلي والوحشي والمتعطش إلى إشعال الحروب، على أن هذا الجنوح المفرط إلى أبلسة الرجل وشيطنته لا تلمسه في شعر الصباح ومواقفها حتى وهي تغضب وتجنح وتقارع الحجة بالحجة وترد الاتهام بالاتهام، كقولها في مقدمة مجموعتها "امرأة بلا سواحل":

فرق كبير بيننا يا ســـيدي فأنا الحضارة.. والطغاة ذكور

هنا لا نشعر بوطأة الحقد أو لفحة الكراهية بقدر ما نشعر بنفحة العتاب

والرغبة في تذكير الرجل الحاكم بأنه لطالما قاد العالم إلى حروب ضروس كانت المرأة وقودها وضحيتها، أو مضمدة جراحها الدامية.

وحتى لو قام من بين الرجال من ينقض هذه المقولة أو يدحض نزوعها إلى التعميم، فإن الحقيقة الشعرية مغايرة للحقيقة العلمية والتاريخية باعتبار أن الخيال والمبالغة هما في أصل الشعر وتكوينه الأولي.

في كل مجموعاتها الشعرية تأخذ سعاد الصباح على عاتقها مهمة تنبيه النساء الغافلات إلى خطورة دورهن ودفعهن إلى انتزاع المساحة اللائقة بحضورهن الآسر على هذا الكوكب الشقي، وهي لا تنسى بالطبع أن المسألة لن تكون سهلة بعد قرون طويلة من تكريس تفرد الرجل بالسلطة ورفضه التنازل عما يعتبره حقه الشرعي والبيولوجي والتاريخي، وهو ما ينسجم مع قول الشاعرة:

"هذي بلاد لا تريد امرأة رافضة
ولا تريد امرأة "غاضبة"
ولا تريد امرأة خارجة على طقوس العائلة
هذي بلاد لا تريد امرأة
تمشي أمام القافلة".

إلا أن الشاعرة التي ترفض الإذعان للأمر الواقع لا تلقي بتبعية ما يحدث على الجلاد وحده بل تحتج في الوقت ذاته على هشاشة الضحية وإذعانها، بل واستمرائها للظلم. والشاعرة تعرف بحكم ثقافتها وخبرتها معاً أن استمرار الظلم واستشراءه لا يمكن أن يتمّا إلا إذا تواطأ المظلوم مع الظالم والضحية مع الجلاد، واكتسب هذا التواطؤ قوة القانون وسطوة القضاء والقدر، فالضعف والقوة -في رأي الشاعرة- أمران نسبيان.

وفي مجتمعات الاستبداد يستأسد الضعيف دائماً على من هو أضعف منه وأقل شراسة، لعله يستعيد بذلك القليل من التوازن والثقة بالنفس:

"أيا أيها الدكتاتور الصغير
أنا لا ألومك مهما فعلت
ومهما قمعت شعوري
ومهما كسرت خيالي
ومهما بطشت
فلم تك يوماً قوياً
ولكن ضعفي "خلاك" تُحسب في الأقوياء".

كما تتكرر في نتاج سعاد الصباح صور شتى للرجل المهيمن والمستبد والمفاخر بذكورته مقابل عجز المرأة وخضوعها المزمنين، فهو الطاغية والدكتاتور والطاووس والديك، وهو شهريار الذي تتوعده شهرزاد الجديدة بالانتقام لا لنفسها فحسب، بل لكل نساء العشيرة من ضحاياه، كما أنها لا تكتفي بإغرائه من أجل إنهاء لعبة القتل، بل تعمد بدورها إلى قتله، ولو بالمعنى الرمزي، ودفن ما يمثله من تقاليد وقيم بالية:

"سأعلن يا أيها الديك
أني انتقمت لكل نساء العشيرة منك
وأني طعنتك
مثنى ثُلاثاً رُباعاً
وأني دفنتك تحت الطلول".

على أن سعاد الصباح تعرف كيف تحسن التفريق بين المفاهيم والدلالات، وكيف تميز بين الرجل والمرأة بوصفهما كائنين فاعلين ومتكافئين في الإطار الاجتماعي والإنساني، وبين الرجل والمرأة بوصفهما ذكراً وأنثى خاضعين لشروط العشق والحب، وللعبة الإغواء المتبادل التي يملك كل واحد منهما

الحق في اختيار دوره وموقعه الذي يريد فيها. فإذا كانت المرأة ترفض إخضاع الرجل لها، على المستوى الإنساني والحقوقي، عن طريق العنف والإكراه، فإن لها الحق -بوصفها أنثى- في أن تقبل هذا الخضوع وترتضيه، لا بل إنها تطلبه وتسعى إليه في بعض الأحيان، ففي الحب والعشق ليس ثمة شروط مسبقة إلا تلك التي يرتضيها الطرفان العاشقان من تلقاء نفسيهما وبملء إرادتيهما، ولكل طرف في هذه الحالة الحرية التامة في أن يتنازل طوعاً عما هو من حقه في الأصل، حتى لو تعلق هذا الحق بالحرية نفسها.

إن نزوع الشاعرة إلى الثورة والعصيان والتمرد ليس نزوعاً مقصوداً لذاته، وهو لا يهدف بالتالي إلى ضرب القيم الاجتماعية وتفويضها، بل إلى تصحيحها وتصويبها لكي تصبح أكثر أخلاقية من ذي قبل، ولكي تتواءم أكثر فأكثر مع شرعة حقوق الإنسان ومع الكنز الأكثر قيمة في حياته، أعني به الحرية، وهي في سعيها إلى استعادة المبادرة تعمل على خطين اثنين؛ استرداد الجسد المنتهك واسترداد اللغة المغتصبة.

فعلى الخط الأول تملك المرأة كامل الحق في التصرف بجسدها وفق ما تريده لنفسها لا وفق ما يريده نزق الرجل وجشعه الشهواني، ولأن جسدها، كما هو عقلها وقلبها وروحها، ملكها وحدها لا ملك الآخرين، فلها أن تمنحه أو تحجبه، أن تقهره أو تستجيب لنداءاته في ضوء قناعاتها وقيمها وحقها في اتخاذ القرار، إنها هي التي تختار أنوثتها وحبها المفضي إلى الحرية:

"أخرج على النص القديم للأنوثة
وأخترع أنوثتي كما أريد
أخرج من عباءة عنترة بن شداد
وأدخل تحت عباءتك
أخرج من بطن الخرافة
وأسنان شيخ القبيلة
وفناجين القهوة العربية

وأخلع الحذاء الصيني الضيق
من عقلي وقدمي
وأذهب معك إلى آخر الحرية".

وهي التي تختار أن تضحي طائعة بحريتها وصولاً إلى التوحد بالمعشوق وهدم الجدران بين الـ(أنا) والـ(هو) على طريقة قيس بن الملوح الذي كان في لحظات الوجد القصوى يظن نفسه ليلى وينادي قيساً، وما تفعله الشاعرة في بعض الأحيان هو أن تستخدم الحق ذاته، وأن ترد التحية بمثلها:

"أيها المحتلني شبراً فشبرا
أنت ألغيت عناويني جميعاً
فإذا ما هتفوا باسمي
فالمقصود أنت".

هي التي تختار أن تسحب أنوثتها من المزاد العلني، وأن تتعامل مع البعض بصفتها الإنسانية الخالصة بعيداً عن لعبة الذكر والأنثى أو العاشق والمعشوق.

والشاعرة تأخذ على الشرقيين أنهم لا يستطيعون أن يروا من ألوان العلاقة بين الرجل والمرأة سوى الأبيض والأسود، الاستسلام أو الصد، والحب أو الكراهية، فيما أن هذه العلاقة تستطيع أن تكون مفتوحة على عشرات الأشكال والاحتمالات بدءاً من الزمالة والاحترام والمودة وعلاقات العمل وصولاً إلى أفضل أنواع الصداقة وأمتنها. غير أن الشاعرة التي تنحو باللائمة على المفاهيم الضيقة للشرقيين لا تُعنى كثيراً بالوقوف على أسباب الظاهرة ودوافعها، حيث يسود الكبت وتكثر المحرمات ويستفحل الظلم والاستبداد، مما يدفع الذات المهددة والملغاة إلى التعبير عن حاجاتها بأشكال مرضية وغرائزية ومنحرفة. والشاعرة ليست مدعوة بالطبع إلى الوقوف على الأسباب والحيثيات والنتائج

لأن هذه التفاصيل من مهمات الباحثين والمفكرين وعلماء الاجتماع، فيما أن مهمة الشاعر تنحصر في الاستشراف والرؤية وطرح الأسئلة المقلقة من مثل:

"فلماذا أيها الشرقي تهتم بشكلي؟
ولماذا تبصر الكحل بعينيَّ
ولا تبصر عقلي
إنني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار
فلماذا لا ترى في معصمي إلا السوار
ولماذا فيك شيء من بقايا شهريار؟".

وفي مواضع أخرى تختار المرأة في علاقتها بمن تحب صورة الأم الناضجة بالحنان والإشفاق والرغبة في الرعاية، فالرجل بالنسبة لها يظل ذلك الطفل القاصر والمدلل الذي يحتاج في كل مراحل حياته إلى استعادة الأمان الذي افتقده والصدر الذي انتزع منه. وإذا كانت متعة الرجل تتحقق في الأخذ والكسب وديمومة الطفولة فإن من حسن حظه أن المرأة بالمقابل تجد متعتها الخالصة في العطاء والبذل. على أن سعاد الصباح تدرك، على الخط الثاني للمواجهة، أن كسب معركة المرأة في محاولتها لانتزاع حريتها وحقوقها المختلفة لا يتم على أرض الواقع وحده، بل على أرض اللغة نفسها ما دامت تناضل من موقع الشاعرة لا من موقع الأنوثة وحدها، وهي حين تخاطب الرجل المتربع كالسلطان على عرش الكلمات لا تتردد في التصريح عن رغبتها المكنونة في أن تتقاسم معه سلطة اللغة ومتعتها، حيث تقول:

"أمنيتي
بأن أكون فتحة
أو ضمة
أو كسرة في ذلك البستان

لو كان بالإمكان يا صديقي
لو كان بالإمكان".

إن النزاهة والإنصاف يوجبان الإقرار بأن سعاد الصباح استطاعت بشعرها الجريء والمتحرر من العُقد أن تكسر حاجز الخوف من البوح الذي وقفت الكثيرات خلف أسلاكه الشائكة رافضة فكرة المرأة الطريدة والمرأة القارورة والمرأة المانيكان والمرأة التي تلهم الرجل ولا تستلهمه بالمقابل، وهي محقة حين تقول: "لكني خنت قوانين الأنثى / واخترت مواجهة الكلمات"، ومحقة أيضاً حين تستشهد بقول نابليون: "الرجل نثر الخالق والمرأة شعره".

*شاعر وكاتب من لبنان

سعاد الصباح.. شاعرة تصنع غيرها

سعدية مفرح*

امرأة تبدأ بإصرار يشبه السكين في رهافته وحدّته رحلةً شعرية صعبة، رغم أنها تملك أداتها الأولى، حيث الموهبة قرار الممارسة، وحيث الوعي بهذه الموهبة وحدودها خطوتها الأولى نحو تحققها الأخير، ورحلة إنسانية أصعب رغم أنها تسير خلالها على طريق مفروش بالمجد العائلي التليد المسيّج بزهو السلطة الموروثة ورفاهية الثراء الموروث أيضاً، فالصعوبة عنوان الطريق، وعلى حديها الأدنى والأعلى توزعت مقولات الشاعرة المعلنة وغير المعلنة.

هكذا إذاً، وجدت سعاد الصباح نفسها، وفقاً لتفاصيل الرحلتين، وهي تعلن ذاتها شاعرة تخوض في تضاريس دقيقة من الشعر والتاريخ والسياسة والنقد والعائلة والحب والوطن في هويته المحلية وهويته القومية، وما يمكن أن يكون خيطاً تنتظم فيه كل هذه المفردات دون أن تطغى مفردة على أخرى تحت وطأة هاجس ما.

"شيخة" بالولادة، تنتمي لأسرة حاكمة، وزوجة لواحد من الكبار في تاريخ بلادها، وباحثة في المجال الاقتصادي، ولكنها قبل هذا كله بتاريخ كامل ربما، هي شاعرة تعي تلك الشعرية، وتحتفي بتحققها في زمان لا ينتظر أن تكون امرأة من هذا النوع شاعرة، ولا يتوقع منها إن كانت أن تحتفي بتلك الشعرية، لكنها كانت واحتفت.

شاعرة محتشدة بظنون الكلام الأليف، والكلام المخيف، وبسماوات لا نهائية من الشعر والنقد والصلاة والشك والأصدقاء تمضي، ونمضي نحن الذين ربما نكون نظرنا لها ذات حلم شخصي مكسور أو هزيمة مضنية بخصوصيتها وكأنها المرأة التي لا تعانـي ولا تنكسر ولا تنهزم ولا تظلم، ولا تحلم إلا ليتحقق حلمها قبل أن تحلم به. أليست هي سعاد الصباح؟ أليست هي

الشيخة التي تنتمي لأسرة تحكم واحدة من أكثر دول العالم ثراء؟ أليست هي الأميرة الجميلة التي يخطفها الفارس الأمير على حصانه الأبيض ليتزوجها ويعيشا في "تبات ونبات ويخلفان الصبيان والبنات"؟! نعم نمضي نحن قليلاً، قليلاً فقط، في الكلام، محض الكلام، ووجهه الحسن، رغم ما يفيض به علينا من علل تتجاوز حدود امرأة اسمها سعاد الصباح نحو نصف وطن من النساء يمتد من الماء إلى الماء، ليصير استفزازاً للنصف الآخر من ذلك الوطن بمجرد وجوده الأزلي، بل لتصير أي أنثى فيه وحدها استفزازاً سرّياً لتلك الذكورية الجاهلة بامتياز قوميٍّ تاريخيٍّ عريق. أما وإن تجرأت هذه الأنثى لتكون امرأة فهي تتحول فوراً لأن تصير استفزازاً معلناً، ثم يتضاعف هذا الاستفزاز عندما تحاول هذه المرأة أن تكتشف تلك الينابيع السرّية للشعر حيث الصدق ضرورة التحقق.

فماذا يحدث إن كانت هذه الأنثى التي قررت أن تكون امرأة تحترف كتابة الشعر تنتمي لعلية القوم وتحمل لقباً عائلياً نبيلاً؟! لهذا الوضع، بدوره، على علّاته المتوارثة وجه حسن، ولوجهه الآخر على حسناته الحلمية علة لا أعتقد أن أحداً عانى منها كما عانت منها سعاد الصباح التي كان عليها دائماً أن تكون النموذج الرائد، وأن تنحني لعواصف الادعاء الهوجاء دون أن تنكسر، وبين الممارستين خيط رفيع ظلت سعاد الصباح تجيد التعامل معه بدقة لم تفقدها عفوية وبساطة يشبهان الشعر في محضه وضرورته وجغرافيته وطقوسه أيضاً. فأن ينتمي مبدع للسلطة، حتى وإن كان ذلك انتماء عائلياً، يعني ذلك أن يعيش بين ظلال كثيرة من الظنون الآثمة وغير الآثمة وفقاً لمفهوم السلطة وتداعياتها في أي دولة من دول العالم الثالث، فهو معرض منذ البداية وبالضرورة لمن يرى فيه ظلاً لهذه السلطة، من ناحية مما يعرض لإنتاجها من نظرات التشكيك من قبل النقاد قبل المتلقين، ومن ناحية أخرى من يرى فيه أداة من أدوات هذه السلطة مما يعرضه هذه المرة لنظرات نقدية استرضائية قد ترضي نجومية الشاعر ولكنها تخدش جوهر الشعر فيه، كما أنه معرض من ناحية ثالثة لنظرة خاصة من قبل السلطة التي ترى فيه ما

لا تراه في الآخرين، وبالتالي فهي تتوقع منه ما لا تتوقعه من الآخرين.
لكن سعاد الصباح، ولعل هذا أهم ما حققته بالفعل نجت من هذا ومن ذاك، إلى حد ما على الأقل، لأنها وبذكاء فطري انحازت لمحض الشعر في بناء مكونات شخصيتها الشعرية دون أن تخفي اعتزازها بانتمائها العائلي الرفيع، ذلك الانتماء الذي أرى أنه أضاف بالضرورة صعوبة إضافية، حتى وإن كانت غير معلنة أو مقصودة، بدلاً من أن يذلل صعوبة متوقعة تعترض طريق امرأة، محض امرأة تبدأ، محض بداية!
لكن المثير فعلاً أن سعاد الصباح استفادت، مثل غيرها من المبدعات العربيات، دون قصد، من كل تلك المعطيات التي تحيط بتجربة أي امرأة مبدعة في أي مجتمع ذكوري، فمثل هذا المجتمع يقدم -دون أن يدري لحسن الحظ- لمثل هذه المرأة أول شروط أو أدوات الجودة والأصالة لممارسة الإبداع الشعري أو أي إبداع مشابه، وهو الصدق والجرأة المتناهية، فالمرأة التي تختار الشعر رهاناً لحياتها يفترض أنها منذ البدء تعرف صعوبة الاختيار ولذته، وتصير بالتالي مستعدة لإنجاز تجربتها الشعرية الحرة حتى وإن تم ذلك في مجتمع ذكوري قامع ورافض ومحارب لحميمية المرأة، ما دامت قد استطاعت عبور البرزخ السري الدقيق المؤدي إلى جنة الشعر وناره. وسعاد الصباح كانت واحدة من الأوليات اللائي استطعن عبور ذلك البرزخ.
كانت بأسئلتها تزرع دهشة معلنة في محيط القبيلة المأخوذة بجرأة امرأة تكتب شعراً ثورياً لا لتوقعه باسم مستعار ولا لتخفيه في الدرج السري لخزانة ملابسها، ولكن لتنشره على الملأ صادحاً في فراغ مهيب من خوف موروث ورهبة مزمنة وكثير من الأحلام المكسورة.
وبمدى يشبه الخضرة المتمناة باتساعه، كانت تعلن حضورها، حيث تغيب تفاصيل مهامها الأثيرة على هامش اليوم والليلة لتعيد توزيعها من جديد على هامش تاريخها كله، ولعله تاريخنا أيضاً -نحن النساء العربيات- الذي قدر لنا أن نتعاطى الشعر والكتابة:

"يَقُولونَ: إنَّ الكِتَابَةَ إِثْمٌ عَظِيْم..
فَلا تَكْتُبي
وَإنَّ الصَّلاةَ أَمَام الحُرُوفِ.. حَرَام
فَلَا تَقْرَبِي
وَإنَّ مدَادَ القَصَائِدِ سُمّ..
فإيَّاكِ أنْ تَشْرَبِي
وَهَأنَذَا
قَد شَرِبْتُ كَثِيْرَاً
فَلَمْ أَتَسَمَّم بِحَبْرِ الدَّوَاءِ عَلَى مَكْتَبِي
وَهَأنَذَا
قَد كَتَبْتُ كَثِيْرَاً
وَأَضْرَمْتُ فِي كُلِّ نَجْمٍ حَرِيْقًا كَبِيْرَاً
فَمَا غَضِبَ اللهُ يَوْمَاً عَلَيَّ
وَلا اسْتَاءَ مَنِّي النَّبِي".

ولعلنا نكتشف الآن أن سعاد الصباح التي أصرت على خيار الكتابة منذ البداية، أصرت في الوقت ذاته على خيار الخصوصية والجرأة فيها حتى وهي تكتب عن تلك المنطقة الحميمة في حياة أي امرأة شرقية، فهي بدلاً من أن تستسلم لحدود المساحة الشعرية العاطفية التي اعتادت الشاعرات العربيات المعاصرات قبلها خصوصاً أن يمارسن شاعريتهن ضمنها، اختارت أن تكسر هذه الحدود وتتجاوزها إلى حيث يمكن أن تكون الشريك الفاعل بدلاً من أن تكون الشريك المتلقي في أي علاقة بين رجل وامرأة:

"أريد أن أكتب إليك
لا لأرضي نرجسيتك كما تظن
ولكن لأحتفل

ربما للمرة الأولى
بميلادي كامرأة عاشقة..
وبتفجير انفعالاتي في وجه هذا العالم
فهل في مثل هذا ريادة ما؟".

ربما.. ولكنه على أي حال يكفي، على الأقل، لاسترجاع صورة تاريخية بالنسبة لي ولجيلي كله في الكويت، ذلك الجيل الذي قدر له أن يتماس مع أشعار سعاد الصباح عبر المنهج الدراسي المقرر على طلبة الثانوية العامة، صورة ترسم ملامح شاعرة لا تبعد كثيراً عن زمان ذلك الجيل وإن سبقتها ببضعة أعوام شعرية كانت كافية لكي تجعل منها المرجعية النسائية الأولى التي تنبع من تاريخنا الحميم وتتمدد على تفاصيل جغرافيتنا المحلية الخاصة، والبداية التي لا تشبه بداياتنا مع الشاعرات العربيات الأخريات اللائي يرسمن لنا في قصائدهن بساتين حلمية وثماراً لم نتذوق برتقالها الشهي وهو يتدلى من أشجار لم نرها إلا في كتبنا الدراسية التي تتحدث عن مواسم الآخرين وجغرافيتهم البعيدة كأنها الحلم الجميل.

ولكن كتابنا المدرسي لمادة النصوص الأدبية في ذلك العام خصوصاً كان مختلفاً عما درسناه من كتب شعرية في أعوامنا الدراسية الماضية، حيث كنا على أهبة ترك مقاعد المدرسة الثانوية بزيها الموحد الممل وجرسها الصاخب الزاعق في برية أحلامنا الطازجة، عندما اكتشفنا أن هناك شعراً لشاعرة نسمع باسمها لأول مرة، في ذلك الوقت، يمكن أن يكون مادة لأسئلة امتحان الثانوية العامة الرهيب، وفي الوقت نفسه مادة مستعارة لرسائلنا الوردية المختفية بنزق وحياء بين أوراق الكتاب المدرسي الأثير بانتظار أن تجد تلك الفسحة الزمنية الممتدة ما بين سور ثانوية البنات وسور ثانوية البنين القريبة، لتروح أو تجيء! وكانت عفوية الشعر في تلك الرسائل ومدلولاته الإنسانية التي تليق بمراهقتنا الأولى كافية لأن نحتفي، في المنهج وفي الحياة، بشاعرة اسمها سعاد الصباح وبقصيدة عنوانها "جنتي" ظلت تسكن في ذاكرتنا حتى عندما غادرنا

تلك المرحلة، أو لعلها غادرتنا:

"جنتي كوخ وبستان وورد
وحبيب هو لي رب وعبد
وصباح شاعري حالم
أتغنى فيه بالحب وأشدو".

وإذا كان لبعض زميلات تلك المرحلة أن يظل تماسهن بسعاد الصباح محكوماً بتلك "الجنة" الحالمة وتداعياتها في حياتهن الجديدة، فإن تماسّي أنا معها اتخذ بعد ذلك أكثر من صورة لم تبتعد به عن صورة تلك الجنة وتداعياتها الحلمية وإنما أضافت لها أبعاداً إنسانية خاصة.

هل أقول إنني مازلت مسكونة بتلك الكلمات المشجعة الحميمة التي بادرتني بها سعاد الصباح بعد أن شاركت في أول أمسية شعرية لي خارج أسوار الجامعة؟ ولكنني كذلك... عندما هاتفني منظم الأمسية الشعرية التي كان من المقرر إقامتها في رابطة الأدباء يدعوني للمشاركة في هذه الأمسية لم أتردد بسؤاله عن الأسماء الأخرى التي تمت دعوتها، فذكر أربعة أو خمسة أسماء لشعراء كويتيين معروفين من بينهم اسم الدكتورة سعاد الصباح بالإضافة إلى اسم شاعر شاب في مشاركته الشعرية الثانية أو الثالثة، وكأن محدثي أحس بما يجول بخاطري فقال ضاحكاً: "الحقيقة أن جميع هؤلاء الشعراء قد اعترضوا على مشاركتك أنت وزميلك الشاب في أمسية كبيرة كهذه معهم، والوحيدة التي لم تحتج ولم تسأل كانت هي الشاعرة سعاد الصباح"، هل أقول إنني تشككت بما يقوله ذلك الرجل؟ ولكنها كانت اليقين ذاته بعد الأمسية بكلماتها المشجعة وإطرائها الحنون وطيبتها المتبدية من بين الكلمات.

هل أقول إنني ما زلت مسكونة بفرح الجائزة الشعرية الأولى التي فزت بها في حياتي؟ ولكنني كذلك. وما زالت جائزة سعاد الصباح الأولى للإبداع الشعري التي فزت بها عن كتابي الأول "آخر الحالمين كان" هي الأهم بالنسبة لي، ربما

لأنها الأولى، ونحن ضعفاء أمام فرحنا الأول. ولعل هذا أهم ما يميز جوائز سعاد الصباح الشعرية عن غيرها من الجوائز الشعرية في الوطن العربي، فلأنها لا تمنح إلا لمن هو دون الثلاثين من العمر، تنجح في أن تكون الفرح الأول لمن تمنح له مما يضيف لمعناها معنى إضافياً لعله الجدير بتمييزها.

وماذا بعد، هل قلنا عن سعاد الصباح كل ما أردنا قوله؟ بالتأكيد لا.. ولكننا على أية حال نستطيع أن نقول أيضاً إن سعاد الصباح تنجو، عبر مدى متسع من الشعر في معناه الذي يتجاوز حدود التعريفات النقدية إلى آفاق لا حدود لها، بالقصيدة وتنجو القصيدة بها، وبين نجاتين متناوبتين تذهب إلى طرف الدهشة الأخيرة لتكون الشاعرة.. الشاعرة!

*شاعرة وكاتبة صحفية من الكويت

سُعاد الصّباح.. القصيدةُ إقامةٌ في الوطن

عِذاب الركابيّ *

1- القصيدةُ حالةُ عشقٍ ينفقُ في فضائها الشاعرُ العاشقُ ذهبَ وقتهِ، لكنّها تجعلهُ نشوان:

(ويقفزُ كعجلٍ صغير) كما يُعبّرُ كازنتزاكي، حالة عشقٍ من نوعٍ آخر، ممغنطة بكهرباء الجسدِ، حكمتِ القلب، زادتِ الليالي دفئاً.. وزهواً، ولكنّها أخذت منها تاريخها، ومن هنا يفقدُ الليلُ كينونته، ويصبحُ (بلا تاريخ) كما رأى غاستون باشلار.

الشاعرُ أوكتافيو باث يرى القصيدة (أغنية)، وحينَ أرادَ أنْ يمنحها تاجَ الوجودِ أخرجها من دائرةِ اللعب بالكلماتِ إلى أنّها (سرٌّ مقدّس) كما جاء في كتاب (الشعر ونهاية القرن) ص5.

والقصيدة بتعريف مالارميه: (حدثٌ في اللغة)، ولهذا تظلُ القصيدةُ تلكَ العاشقة السّاحرة (توقظُ الأرواح النائمة في اللغةِ) لكيْ (تصلَ إلى المجهول) حسب تعبير الشاعر الروائي آرتور رامبو.

أمّا الشاعرة سعاد الصّباح الّتي تعيشُ حياتها بكلّ تفاصيلها شعرياً وتربطُ بينَ (الشعر والحياة) كأجمل وأعمق ما يكونُ، فإنّ القصيدة لديها ملاذٌ، ودفءٌ، وحريةٌ، ووطنٌ..!! بلْ إنَّ هذهِ الشاعرة العربيّة النبض والهوى ترى القصيدةَ:

"إقامةً في الوطن!!
لا تتركوا السيفَ على غمده
فتاركُ السيف عدوُّ الرشادْ
وقبّلوا المدفعَ يثأر لكُمْ
ولا تبالوا بالليالي الشّدادْ
حتّى تعودَ الأرضُ صفواً لنا
ويرجعُ الكوخُ، ويحلو الرّقادْ
ويسمعُ الليلُ أغاريدنا
في ملتقانا، في ليالي الحصادْ
ويفرحُ اللهُ بنا عندما
تزولُ أسطورةُ أرض المعَادْ".

قصيدة (أمّ الشهيد) ص33

2- القصيدة وطنٌ:

هكذا تقولُ عناقيدُ الكلماتِ الممتدة من قلبِ الشاعرة النابض بالحُبّ، وحتّى آخر ذرّة ترابٍ، في أبعدِ مدينةٍ عربيةٍ، تحتفلُ بمواكبِ الضوء، والفرح، والأطفال، والمطر.
والقصيدة شريان الأرض الظامئة للمحبّةِ والعناق أبداً. إنّ شمسَها، وتربتَها، وحقولها، وأشجارها تؤلّفُ الأغاني والأناشيد والأدعية، ليظلّ حليبُ الأرض، ودمعها الصّادق العنوانَ والهويةَ والطريق:

"في بلادي.. في مغاني أرض أجدادي الجميلةْ
لي حكاياتٌ، وآياتٌ، وأبياتٌ طويلةْ
.. أنّهم جاؤوا وفي جعبتهم خيرُ عَتَادْ

من تقاليدَ، وأخلاقٍ، وحبٍّ للجهادْ".

قصيدة (زمان اللؤلؤ) ص31.

والعروبة عند الشاعرة سعاد الصباح هيَ كلّ العشق، وكلّ الحياة، وهي نزيفُ الكلمات، وإذا ما بدا إيقاعُ همّها العروبيّ عالياً فذلكَ لأنَّ نبضَها القوميّ يتجدّدُ في كلّ كلمةٍ وكلّ قصيدة، على ضوء كلّ مدينةٍ، وعلى رقصةِ كلّ قطرةِ مطرٍ عربيةٍ دافئة، فهذهِ مصرُ النخلة الباسقة، والغيمة الحبلى بالماء، ولآلئ اللقاء، هيَ البداية. وهذا عبدالناصر الرمز الثائر هوُ عمرو بن العاص، وابن زياد، وعُقبة، وهوَ يُؤسّسُ للألفةِ والمحبةِ والوحدة، ويضعُ حجرَ الأساس للمودة، واللقاء العربي الحميمي الأبدي، ويُؤرّخ للحظةٍ عربيةٍ خالدة، رتّبتها القصيدة، وشمس النضال القومي، والتربة النابضة بالحُبّ والدفء والأمان:

"لا تقولي.. سقطَ الفارسُ عنْ ظهرِ الجوادْ
وسجا الحُلمُ المرجّى، وهوى الصرحُ ومادْ
إنّهُ كانَ النبض الّذي يغذو الفؤادْ
إنّهُ كانَ الّذي علّمنا معنى الجهادْ
بيد تبني وتُعلي.. ويد فوقَ الزنادْ
إنّهُ استشهدَ كي يُصبحَ للجرح ضمادْ
باذلاً في جهده من دمه الغالي مدادْ
لوفاقِ العُربِ بعدَ المحنِ السّود الشّدادْ
ارو عنهُ.. أنّهُ قرّبَ أيّامَ الحصادْ
لقيامِ الوحدةِ الكبرى.. وتحقيق المرادْ
سائراً في دربِ عمرو.. وطريق ابنِ زيادْ".

قصيدة (عندما رحل عبدالناصر) ص34

3- القصيدة عندَ الشّاعرة سُعاد الصّباح إيحاء:

هذهِ الرموز العربية الّتي سطّرتْ أنصعَ وأخلدَ الصفحاتِ في التاريخ العربي والإنساني هيَ مصدرُ الإلهام وعصب الرؤيا، وهيّ الهاجس العروبيّ الكبير، هيَ الثروة، والمجد، والتاريخ، والنبض الحي، هكذا ترى الشاعرة، أنَّ الماضي البطولي سلاح، وأنّ الذاكرة العربية تقاوم الخضوع والكسل بذلك الماضي الجميل، فهوَ الهاجس، والدليل، وباقة النجوم إنهاء سلطة ظلمة الحاضر، والتخلص من سهام مستقبلٍ غامضٍ مُرعبٍ ومخيف:

"أجّجوا الحقدَ أيُّها الأشقّاءُ
لمْ تَمُتْ في عروقنا الكبرياءُ
من حنايا عروبتي رضعَ المجدُ
وكانَ العُلا، وهانَ الفداءُ
أنا أُمّي الغرّاءُ فاطمةُ الزهراءُ
وأختي العظيمةُ.. الخنساءُ
وأبي يعربُ الّذي باركَ الأرضَ
وقامتْ في ظلّه الأنبياءُ
وأخي قاهرُ الغَزاة الصّليبيين
يا ليت تنطقُ الأشلاءُ
هؤلاء الكرامُ قومي، فقولوا
مَنْ هَمُ قومُكم؟ ومِنْ أينَ جاؤوا؟".

قصيدة (صيحة عربية) ص36

4- القصيدة نغمةٌ:

هذا الإيقاع الصّادر من تربةِ همّها القومي ليسَ تقليدياً، ولا مُكرّراً، إنما هوَ

إيقاع جديد، دافق بالحياة بكلّ صدقٍ، وشفّافية، وحراةٍ.
والشاعرة إذْ تبدو مُستسلمة لهمٍّ إنسانيّ يُؤرّقها، ويسقيها عذابَ اللحظةِ المشتعلة بالأحلام، ذلكَ لأنّها صَبورة، مُطيعة، خاشعةٌ في حضرة القصيدة الّتي فوضت الشاعرة إليها أمرَها، وبدتْ هيَ والقصيدة كعاشقين أسطوريين، قاموس عشقها الشعريّ أبجدية لعصرٍ جديدٍ، ووطنٍ جديدٍ، وحياةٍ لا تُعاشُ إلاّ شعرياً:

"إنّ في قلبي جواداً عربيّا
عاشَ طولَ العمر في الحُبِّ أبيّا
فإذا عاندتهُ، ألفيتهُ
ثارَ كالمارد جبّاراً عَتيّا
همسةٌ تأتيه عنْ غيرِ رضىً
يملأُ الكونَ ضجيجاً ودَويّا
فحنانيكَ.. وحاذرْ غضبتي
إنّ في قلبي جواداً عربيّا".

قصيدة (جواد عربي) ص43

5 - القصيدةُ لُغةُ الجسدِ الحالمِ:

أصابعُ الشاعرة الّتي ترتعشُ حُبّاً، لمْ تخط شيئاً غير قلائد الحُبِّ والانتماء لهذا الوطن، في قلبها خوفٌ، وحزنٌ، وقلقٌ، ويأسٌ، وأملٌ نحيلٌ، وخوفٌ من أنْ يديرَ التّاريخ ظهرهُ للبطولات والأمجاد العربية؛ خوفٌ من أنْ يحزنَ السيف العربي، ويُسلّم بريقه للصمت والضجر والكآبة؛ خوفٌ من أنْ تهجرَ الجياد خطواتها الشجاعة؛ خوفٌ مُزمنٌ يعقبهُ غضبٌ شرسٌ، وهي ترى الوطنَ كمريضٍ في سرير اليأس، تغزو جسده الأوهام، والذاكرة مُحاصرة برياح البلادة والذبول، من أجلّ كلِّ هذا تبكي الشاعرةُ.. تمرضُ.. تتحطّم، ولكنّها لا تُهزم، بلْ تزدادُ

انتماءً للوطنِ، وهي تنتظرُ كلّ صباح الفارسَ والمنقذ الّذي تشرقُ فوقَ كفّيه الودودتين شمس الولادة والخلاص والانعتاق:

"كُلّما مَرَّ ببالي عربُ اليوم.. بكيتْ
كُلّما أبصرتُ هذا الوطنَ اَلممتدَّ
بينَ القهرِ والقهرِ.. بكيتْ
كُلّما حدّقتُ في خارطةِ الأمسِ
وفي خارطةِ اليومِ.. بكيَتْ!!

* * *

هلْ منَ الممكنِ إلغاءُ انتمائي للعربْ؟
إنَّ جسمي نخلةٌ تشربُ من بحرِ العرَبْ
وعلى صفحة نفسي ارتسَمتْ
كُلُّ أخطاءِ وأحزانٍ وآمالِ العربْ!!
سوفَ أبقَى دائماً..
أنتظرُ المهدي يأتينا،
وفي عينيه عصفورٌ يُغنّي.. وقمَرْ
وتباشيرُ مَطَرْ..!!".

قصيدة (إنّ جسمي نخلة تشرب من بحر العرب) ص94

6 - القصيدة رؤية:

(رؤية ما لا يُرى وسماعُ ما لا يُسْمَع) آرتور رامبو
في شعرِ سُعاد الصّباح الوطنُ هوَ النبضُ، وتربتهُ الرؤية، وإنسانهُ الشريانُ الّذي يحملُ الدمَ والحياة، ومن هُنا يظلُ الثائرُ الرمزُ شريانَ هذا الوطن

المُصادر، وانتظاره كمُحرّر، ومسيح جديد، أو المهدي المنتظر تُنبئ به قصيدة الصّباح، وتُبرّرهُ، وترصدُ خطواته الملائكية في الحضور والغياب، كعاشقٍ جديد، يأخذُ من الكواكب علوّها وبريقها، ومن الشمس ضوءها وهندسة ضفائرها، وهوَ حُلمُ الإنسانَ الجديد، المشدود لضوء نهارٍ ليسَ كلّ النّهارات:

"كانَ هوَ المهديَّ في خيالنا
وكانَ في معطفه يُخبّئ الأَمطارْ
وكانَ إذْ ينفخُ في مزمارهِ..
تتبعهُ الأشجارْ
* * *
كانَ هوَ النجمةَ في أسفارنا
والجملةَ الخضراءَ في تُراثنا
كانَ هوَ المسيحَ في اعتقادنا
فهوَ الّذي عمّدنا،
وهوَ الّذي وحَّدنا،
وهوَ الّذي علّمنا،
أنَّ الشعوبَ
تسجنُ السَّجانْ".

قصيدة (من امرأة إلى جمال عبدالناصر) ص121

7- الاتحاد والتآلف:

في قصيدة سُعاد الصّباح يتحدُ الجزءُ بالكلِّ، وتتآلفُ الأشياء على ضوء الحروف وخطواتِ جياد الكلمات، يتماهى الشعورُ القوميّ بالإنسانيّ، يأخذانِ إيقاعاً واحداً، والكلمةُ والسيفُ والرصاصةُ تولد من رحمٍ واحدٍ، في وطنٍ ينشأ في

أحضانِ بركانٍ، وطن ظامئ للحرية، تحرسُ خطوات أبنائهِ وثوّارهِ قوافل من الورود والقصائد والأحلام:

"يا عصرَ المنافي والشتاتْ
يا زماناً عربيّاً..
لمْ تعُدْ تنفعُ فيه الكلماتْ
يا زمانَ القُبحِ.. مِنْ أينَ يجيءُ المبدعونْ؟
في بلادي..
وعلى أيّ صليبٍ من دموعٍ يُولدونْ؟
أعطني شبراً منَ الأرضِ يُسَمّى وطَنَاً
ما به مشنقةٌ.. أوْ مخبَرونْ
أعطني شبراً من الأرضِ يُسمّى وطَناً
لا تُغطيه المنافي.. والسجونْ".

قصيدة (وصل السيف إلى الحلق) ص133

8 - باعث الحركة:

إذا كانَ الشعرُ يستوطنُ الجسدَ الحالمَ، فلا بدّ أنْ يكونَ باعثَ حركتهِ الريحانية، وإذا كانت القصيدةُ وطناً، فيحقّ لهذه الشاعرة أنْ تقيمَ في الوطن، بلْ ترسم وتشكّل بدمع كرستاليّ ملامحَهُ وخارطتَهُ الجديدة!!

هذا شعرٌ يُشبهُ تظاهرة الورد، المُؤيَّدة بالصّحو المنغّم البهيج، وهذه شاعرة ثائرة تحرّك المفاصل المعطلة في جسد هذا الواقع، وتضفي عليهِ جمالاً، وهيّ تمغنطهُ بحرارةِ نبضها القومي والإنسانيّ.

قصائد سُعاد الصّباح تجرحُ، وتبعثُ على الأملِ معاً، وهي شاعرة تهزمُ اليأس وتُعيد لهُ ربيعهُ الآفل وورودهُ الذابلة، قصائدُ تبتهجُ بالوطن، وتقيمُ للمحبةِ

والألفة كرنفالاً دائماً، شاعرةٌ تسكنُ الوطنَ، ويسكنها، ويحتفلُ الاثنانِ بولادة الصّباح والدهشة والقصيدة!!

سعاد الصباح شاعرة لا تحكي جُرحَها فحسب، إنما تنتمي وتقاوم أيضاً، والوطنُ في قصائدها لا يغيبُ، إنما يُولدُ ويتجدّدُ. قصائدُ لا تُضيء ولا تقترحُ فحسب، إنما تبني الوطن الحلم، والإنسان الحالم، تترجمُ هاجسَ أرضٍ لا تنبتُ شجراً وعسلاً فحسب، إنما تلدُ الرجالَ والثوارَ والأحلامَ وكرنفالاتِ الفرح، كلُّ هذا تُوحي بهِ قصائد سُعاد الصباح!

*** شاعر وناقد من العراق**

سعاد.. خليجية عاشقة!

ريم الصالح*

سيظل اليوم التاريخي الذي استعادت فيه المرأة الكويتية حقوقها السياسية مرتبطاً بالصورة التي تداولتها الصحف للشاعرة سعاد الصباح وهي تسطر قبلة النصر والامتنان على جبين رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد في ذلك الزمن وسمو أمير البلاد الآن.

عدت إلى دواوين هذه الشاعرة وجدتها تفيض بالعشق وتفيض بالوجع الذي يفسر هذه النظرة الحزينة التي تملأ عينيها حتى وهي تبتسم، في شعرها الكثير من العشق: عشق الرجل، عشق الأرض، عشق الزوج، عشق العروبة.

في عشق الرجل تقول في مقدمة ديوانها "قصائد حب": "لقد تغزل الرجل بالمرأة منذ بدأ التاريخ، ولم يترك لها هامشاً صغيراً من الحرية يسمح لها بالتغزل به"، وقد قالت غادة السمان حول ديوانها "أعلنت عليك الحب": "أردت أن أكسر القاعدة وأبدأ بإعلان حبي للرجل، كان على امرأة واحدة أن تبدأ وتعلن وقررت أن أبدأ".

في هذا الديوان تطالب سعاد الصباح أن يكون هناك مساواة في الحب، وأن تقول للرجل الذي تحبه أحبك دون أن تذبح كالدجاجة على قارعة الطريق.

وللكويت عشق واعٍ في قلب هذه الشاعرة، فهي تدرك جيداً أن قوة الكويت في حريتها كما تقول في ديوانها "برقيات عاجلة إلى وطني":

"كويت يا كويت
لحرية الرأي فيك تراث طويل
وطفل المحبة بين ذراعيك طفل جميل

وزرع العروبة فيك قديم.. قديم
كهذا النخيل
فظلي كما أنت قلباً كبيراً
ونجما منيراً".
وفي موقع آخر تقول:
"يسعدني أن تكون بلادي
ملاذ العصافير من كل جنس
وبيت المغنين والشعراء
وسقفاً لمن تركتهم حروب العروبة
دون غطاء".

ويظل من أكثر دواوينها حرقة هو ديوان "آخر السيوف" في زوجها عبدالله المبارك ومنه:

"هـــا أنت ترجـــع مـثل سـيف متعب
لتنـــــام في قـلب الكـــويت أخـــيراً
كســـرتك أنبـاء الكويت، ومـــــن رأى
جبـــلاً، بكـل شمـــوخه، مقهـــوراً".

هناك الكثير من التعابير الجميلة في شعر سعاد الصباح تلك الشاعرة التي اختارت قدرها كما قالت في قصيدة مواجهة الكلمات:

"قد كان بوسعي أن أتجمل
أن أتكحل
أن أتدلل
أن أتحمص تحت الشمس

وأرقص فوق الموج كالحوريات
قد كان بوسعي
أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
لكني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات".

يا له من اختيار شجاع في زمن أصبح فيه الممسك بالكلمات كالممسك بجمرة، والحروف تثير الشهية لإخراسها بالقنابل والرصاص والعبوات الناسفة.

* كاتبة سعودية
عن جريدة السياسة الكويتية

سعاد الصباح سيمفونية رائعة تتغنى بالشعر والأدب

دنيا هـاني*

تستسقي حروفها من تفاصيل حكاية ترنو في مخيلتها وتسعى لإكمالها.. تخرج كلماتها مصرحة عن بدء فصل آخر للحكاية تتناثر على فصول الحياة. تعترض كل ما لا يعجبها تحت المطر الرمادي، فقد عبرت عن فلسطين خاصة ووضع العرب عامة في وصفها لـ(الهولوكوست) حينما قالت: (ليست فلسطين وحدها هي التي تحترق.. ولكن الشوفينية والسادية والغوغائية السياسية وعشرات الأقنعة والملابس التنكرية.. تحترق أيضاً، وليست الطيور والأسماك وحدها هي التي تختنق ولكن الإنسان العربي هو الذي يختنق داخل (الهولوكوست) الكبير.. إلخ).

أشعارها نهاية لقصة لم تبدأ بعد وبداية لم تنته.. مزاجية في اختياراتها ولا يحكمها أحد، متمردة على الكلمة، وتمقت الظلم الذي تعرض له (العربي) مفتخرة بأصلها، وتشجع الإبداع وتحفز المبدعين في جميع المجالات.

تكره الرجل الذي يقلل من شأن المرأة، ويعتبرها مجرد وردة يشتم عبيرها متى ما شاء ويرميها حينما ينتهي عطرها.. تحدته في كثير من المواقف، ودافعت بكبرياء عن المرأة العربية التي اعتبرتها تعيش في عالم يهضم كل حقوقها، وتسخر من أولئك الذين يريدون سلب حقها في الحياة، ومع هذا فهي عاشقة للرومانسية وجمال الطبيعة الخلاب، وتتغنى بأصوات العصافير في فجر الصباح.

هي من قالت:

"يقولون إني كسرت بشعري جدار الفضيلة..

وإن الرجال هم الشعراء..
فكيف ستولد شاعرة في القبيلة؟..
وأضحك من كل هذا الهراء..
وأسخر ممن يريدون في عصر حرب الكواكب..
وأد النسـاء..
وأسأل نفسي: لماذا يكون غناء الذكور حلالاً..
ويصبح صوت النساء رذيلة؟".

إنها المثيرة للجدل دوماً، الشاعرة والكاتبة والناقدة الكويتية سعاد الصباح، الحاصلة على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية، تجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقد تم اختيارها لشغل مواقع عديدة عززت من وجودها في الساحة الأدبية.

• مقتطفات من سيمفونياتها الأدبية:

"من اسمك تبـدأ جغرافيـة المكان
ومن عينيك تأخذ البحار ألوانها
ومـن ثغـرك يولد الليـل والنهار
ومن إيقاعات صوتك
ومن شـرايين يديك
أولد أنا

* * *

فاجأتك..
تشرب القهوة السوداء..
من نهر عيني..
وتـقرأ فيهما جريدتك الصباحية

فصرت ارتاد المقاهي..
لتشربني..
وأشتري الصحف الصباحية
لتقرأني..

* * *

في مدينة صدرك..
يمر عطرك في مخيلتي
كسيف من المعدن
يخترق الجدار والستائر..
يخترقني..
يبعثر أجزاء الزمن
يبعثرني..
وتتركني أمشي حافية على زجاج المرايا
وترحل..

* * *

قد كان بوسعي
مثل جميع نساء الأرضِ
مغازلة المرآة
قد كان بوسعي
أن أحتسي القهوة في دفء فراشي
وأمارس ثرثرتي في الهاتف
دون شعور بالأيام.. وبالساعات
قد كان بوسعي أن أتجمل..

أن أتكحل
أن أتدلل..
أن أتحمص تحت الشمس
وأرقص فوق الموج ككل الحوريات

* * *

على هذه الكرة الأرضية المهتزة
أنت نقطة ارتكازي
وتحت هذا المطر الكبريتي الأسود
وفي هذه المدن التي لا تقرأ.. ولا تكتب
أنت ثقافتي..

* * *

إنني مجنونة جداً
وأنتم عقلاء..
وأنا هاربة من جنة العقل
وأنتم حكماء
أشهر الصيف لكم
فاتركوا لي صيف انقلابات الشتاء".

هذه هي سعاد الصباح تارة هادئة وتارة مجنونة، تختار كلماتها من وحي العالم الذي تعيش فيه، عالمها الخاص الذي ترسم عليه صورة تبروزها في إطار تجارب الحياة. أبدعت في سطر كلماتها، وهكذا هي تتمرجح الكلمات بين قصائدها لتضفي فلسفة عميقة في عقول غريبة.

*صحيفة 14 أكتوبر الإلكترونية / 31 أكتوبر 2011

الشـــعر كائن حـي

محمد ياسين رحمة*

إن يك الشعر خطيئة، فهو أعظم خطيئة إنسانية في وسعها تطهير الكائن البشري من خطاياه في حق الجمال والحب والحرية والطبيعة والحياة ذاتها. ومن يتوسد الخطيئة لا يحلم إلّا باغتيال العصافير، لذلك يتوسد الشعراء وسادة الحلم كي يحلم بهم الحلم، فيستيقظون في أوراق دفاترهم أشعاراً مطهرة للبشرية.

والنصوص الشعرية هي أزهار يهابها الذبول، ولا تعترف بفصول الشحوب والصقيع والكوابيس، لأن أهم رسائل النص الشعري أن يقاوم الذبول الإنساني ويقيم فصول الإزهار في النفس البشرية، لذلك ينبت الشعراء أزهارهم من أعماق أعماقهم، ويجتهدون في سكب الفتنة عليها وإبداع جمالها وروعتها بصدقهم ونقائهم و(براءتهم الإنسانية).

غير أن الشاعر الذي أدرك حقيقته الشعرية هو ذلك الذي يستطيع أن يُشبع قصائده برحيق شاعريته المتميّز، ويخبئ فيها طلسم الإغواء الشعري الذي يفعل بالقارئ ما يفعله السحر بالساحر. والشاعر الذي لم يدرك حقيقته الشعرية قد تكون أزهاره آيات جمالية فاتنة ولكنها أزهار تفتقد الرحيق، لنقل إنه شاعر بلا بصمة شعرية تنطبع في النفس البشرية (نفسية المتلقي).

• يقولـــون:

"إني كسرت بشعري جدار الفضيلة
وإن الرجال هم الشعراء

فكيف ستولد شاعرة في القبيلة؟
وأضحك من كل هذا الهراء
وأسخر ممن يريدون في عصر حرب الكواكب..
وأد النســاء...
وأسأل نفسي:
لماذا يكون غناء الذكور حلالاً
ويصبح صوت النساء رذيـلة؟ ".

الشاعرة سعاد الصباح أدركت حقيقتها الشعرية، وصوبت نحونا مجموعتها (في البدء كانت الأنثى) كي تطهرنا بالخطيئة من كلس القرون وساعات الرمل وثغاء الفجر، وأيضاً كي تعيد جدولة حروف (الأنثوية)، هذه الأنثوية التي ارتبطت بالخجل والتردد والخفوت ومظاهر الخوف من طرق أبواب كُتب عليها (أبواب لا يطرقها إلا الرجال). فنحن أمام أنثوية متحررة من كل خوف، ولكنها تلبسه وتتحصن به كقوة تفجر الكوامن (الأنثوية) وتدفع بها إلى أن تطرق الأبواب التي لا يطرقها الرجال.

• رجل تحت الصفر:

"يا هولاكو هذا العصر..
ارفع عني سيف القهر
إنك رجل سوداوي..
مأساوي..
عدواني..
لست تفرق بين دماي
وبين نقاط الحبر".

ليس رفضاً للذات ولا تمرداً على المجتمع بقيمه وموروثه، بل هذه محاولة لتجاوز الأنثوية بالمعنى الشرقي أو العربي، ونحت معنى آخر يخلع عن

(العربي) عباءته الحضارية كي يبصر حقيقته، إنه طينة بشرية مجبولة من التوحش لا تفرق بين قراءة الجسد وقراءة الورقة، وكأن الأنثى هي مجرد ورقة في يوميات هولاكو يكتب عليها غزواته وفتوحاته بذكوريته.

• الديمقراطية:

"ليست الديمقراطية
أن يقول الرجل رأيه في السياسة
دون أن يعترضه أحد
الديمقراطية أن تقول المرأة
رأيها في الحب...
دون أن يقتلها أحد!".

(لغة شعرية) واقعية لا تهدف إلى التأريخ أو إعلاء صوت التنديد، ولكنها لغة تعيد تكييف (القضية الأنثوية) بلغة تقتات حروفها من ملح الأزقة الضيقة ومسالك الأقدام التي تنعل البشمق ومن أحاديث الفناجين التي تخطط وتنظر وتحلم.. نيابة عن المرأة.

• الحب في الهواء الطلق:

"حين أكون بحالة عشق..
أشعر أن العالم أضحى وطني
وبإمكاني أن أجتاز البحر
وأعبر آلاف الأنهار
وبإمكاني..
أن أتنقل دون جواز
كالكلمات.. وكالأفكار".

أحياناً يكون الشاعر أكثر شاعرية من نصه الشعري، يحدث ذلك عندما يكون

النص الشعري بوابة الغواية إلى عوالم التيه في لذاذات المعنى المخبوء خلف الصور، وهناك نلمس عطر الغواية في التحرر من أسر (الأنثوية) بتوظيف أنثوية اللغة في إعادة اكتشاف عوالم المرأة في أبعادها الإنسانية.

• يقولــون:

"إني كســرت رخامة قبري...
وهذا صحيـح.
وإني ذبحت خفافيش عصري...
وهذا صحيـح.
وإني اقتلعت جذور النفاق بشعري
وحطمت عصر الصفيح
فإن جرحوني...
فأجمل ما في الوجودِ غزال جريح
وإن صلبوني.. فشكراً لهم
لقد جعلوني بصفّ المسـيح".

كمن يحاول اغتيال العدم، حاولت الشاعرة سعاد الصباح أن تغتال صنم الشعر، كي تؤكد أن الشعر كائن حيّ يتنفّس ويقتات ويتكاثر، والأهم أنه يعشق.. يعشق الأنثى كي تتحرّر من شرنقتها، وتعلن في عوالم الذكورية أنها إنسانة عشقها الشعر فكتبته بالحروف ذاتها التي كتب بها الرجل، وشربته بالمعاني التي ترتاد المجاهيل وتكسر الأبواب التي كتب عليها (أبواب لا يطرقها إلا الرجال).

*صحيفة 14 أكتوبر / 5 ديسمبر 2011

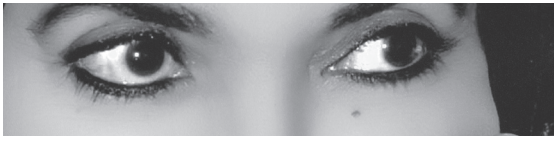

قراءة في ملامح نزار الغزلية ووجودية سعاد الصباح الشعرية

عبدالقوي الأشول*

قولي أحبك كي تزيد وسامتي
فبغير حبك لا أكون جميلاً

ذلكم هو الشاعر الراحل نزار قباني المتماهي بوسامته حتى وهو في أعوامه الأخيرة، إذ عرف عنه اهتمامه البالغ بأناقته الشخصية باعتبارها عنواناً لشاعر غزلي وجد نفسه في عالم الأنثى التي ملكت خيالاته ومنحتها ذلك الأنف الشعري البالغ العذرية والرقة.

نزار يخاطب عالم الأنثى بشيء من الحس الفني والاقتراب الموضوعي الشديد والمناجاة التي نستطيع أن نصفها بالسهل الممتنع.. عالم مخملي جسّد من خلاله نسقاً شعرياً فريداً لم يكن سباقاً إلى مناهله إلا أن فرادته تكاد تكون ببصمة شعرية لا يمكن أن تنسب إلا إليه. فهل كان يزهو عمر بن أبي ربيعة بحالات فرط حبه لوسامته التي كانت موضع اهتمام نساء أحياء مكة في ذلك الزمن أم أنها حالة من توارد خواطر بين من أيقنّا أن للوسامة خطاً في إلباس حلتهما الشعرية قدراً من الاهتمام خصوصاً من عوالم النساء المولعات بكل ما يأتي على لسانها من وصف رقيق وشعر متناهي السلاسة والعذوبة في وصف مفاتن المرأة الموجبة بكل تلك الجداول الشعرية العذبة التي تسري جداولها منسابة دون تكلف أو حشو أو رتابة؟

فأنا من بدء التكوين — أبحث عن وطن لجبين
عن شعر امرأة يكتبني — فوق الجدران ويمحوني

عـن حـب امـرأة يأخذنـي لحـدود الشمـس ويـرمينـي
عن شفـة امـرأة.. تجعلني كغـبار الذهـب المـطحـون

يقال إن عوالم نزار ثرية معينة على الاغتراف من معينها متى أراد بكل سلاسة ممكنة.. مضيفاً إليها رقة ألفاظه ووضوح معانية، أما وصولها للمتلقي فيكون على هيئة همس شجي موح ربما كان لموطن نزار الدمشقي نصيب في خلق تلك الصورة الحالمة المضمخة بعطر الياسمين ومطر أيار وربيع الشام الذي تضيء قناديله على جنبات الحياة التي أدمنها نزار كما أدمن بحاسته عطر الأنثى وأكاسيرها ورضاب الشفاه ولمح العيون ورشاقة الأجساد الشامية لبنات حواء ممن لم يجد الشاعر بدّاً من نصب خيمته الشعرية وسط تلك السوق التي يفوح عطرها ويبعث في شغاف نفسه قدراً من التجلي والإبداع قلما كان موضوع مأخذ على هناته القليلة، والتي إن كانت فهي فيما يعده البعض قدراً من الإباحية في الوصف فإنها مآخذ لا يمكنها الانتقاص من شاعرية نزار معها:

أنت يـا وعـد يصحـو مقـبل بعطـايا فـوق وسـع البيـدر
الثـواني قبـل عينيك سـدى وافـتـكار بـإنـائي جـوهـر
لو معي حبك لاجتحت الذرى ولحـركت ضمـير الحـجـر

مرارة مشاعر لا تبارح مخيلته وحالات وجد لا شفاء منها، حنين متواصل إلى عوالم المرأة.. وقيل شبق، فقيم وحالات تمنٍّ ليس لها من آخر، وحتماً ليس لها من ارتواء:

حبيبي أخاف اعتياد المرايا عليك
وعطري وزينة وجهي عليك
أخاف اهتمامي بشكل يديك
أخاف اعتياد شفاهي مع السنوات على شفتيك

فكيف ستنسى الحرير وتنسى صلاة الحرير على ركبتيك؟

سمات وضوح وبيان شعري غير معهود في زمننا هذا إلا عند القليل من الشعراء أمثال نزار والجواهري، فنزار قباني مدرسة الأناقة الشعرية، والغزل مدرسة اعتمدت في أركانها الأربعة على محور المرأة، أو قل إن شئت سحر العيون ونضارة البشرة ودقة الملامح ولون الشعر، ولكن بلغة مترفة تميزت ملامحها وقسماتها بمثل هذا الاتكاء على المرأة الموجبة.. فهل استطاع نزار عبر تلك المدرسة إبراز جوهريته الشعرية التي لا يمكن قراءتها في عطاء غيره؟ أم هي امتداد لدروس من سبقوه وإن كان فيمن سبقوه من قصيري النفس في مواضع معينة من يستغرقون في وصف المرأة ثم ما يلبثون أن يدخلوا بعد هذا الاستقرار من القصير اللذيذ في نفس آخر ربما ما كان يصب في نهاية الأمر في الصورة المتجانسة للقصيدة.

نعم لقد نهل نزار من بحور الشعر العربي، واستخلص تجارب من سبقوه، وإن كان أكثر ما استوقفه تلك الغزليات الشعرية الرقيقة التي وجد فيها ذاته، واستطاع أن ينفذ من خلالها إلى عالم المرأة المخملي الأنيق بكل ما تكتنز دهاليزه من أسرار وجماليات.

• هل كانت سعاد الصباح الشاعرة الأميرة صورة نزارية أخرى؟

على الجانب الشعري الآخر نجد سعاد الصباح الأميرة التي استطاعت أن تمنح الشعر دفقاً أنثوياً متميزاً بل جريئاً، يخترق في معانيه جدران الصمت والمحظور التقليدي إلى فضاء الروح التي تفيض بمكنونها ينبوعاً منبجساً من أعماق هذا الصوت الأنثوي، هي وجه نزاري آخر مختلف، لكنه لا يختلف من حيث مضامينه التي تصب في مجرى الشعر الذي لا يجيز لنا بأي حال اعتباره أدباً أنثوياً. تقول:

"من أنت؟
أنا امرأة من فضاء بعيد
ونجم بعيد
فلا بالوعود ألين
ولا بالوعيد
من أنت ثانية؟
بدويةٍ أنا أختزن في ذاكرتي
عصوراً من القهر
وتختبئ تحت جلدي
ملايين الشموسٍ
من أنت أخيراً؟
أنا النخلة العربية الأصول
والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول
فبارك ثورتي".

جرأة شعرية لا تبلغ حد التمرد، ولا تقف عند حدود المهادنة والمحايلة، لا تقتحم أسوار المحظور الديني، لكنها تكشف محذور العادات التي استبدت بالأنثى وألزمتها الخنوع وعدم مجاراة الرجال في شاعريتها أو البوح بأسرار مغاليقها الأنثوية، تقول:

"أعرف بين رجال العالم رجلاً
يشبه آلهة الإغريق
يلمح في عينيه البرق
وتهطل منٍ فمه الأمطار
أعرف رجلاً

حين يغني في أعماق الغابة
تتبعه الأشجار
أعرف رجلاً
يعرف ما في رحم الوردة من أزرار
يعرف آلاف الأسرار
يعرف تاريخ الأنهار
يعرف أسماء الأزهار
ألقاه بكل محلات المترو
أراه بسحابةٍ كل قطار
أعرف رجلاً حيث ذهبت
يلاحقني مثل الأقدار".

أعني أن لوعة نزار الشاعر تقابلها وجودية سعاد الأميرة، وعند كليهما تتجلى صورة شعرية أخاذة، وإن كانت عند نزار تلتزم معايير القصيدة المقفاة فهي عند سعاد مقاطع لؤلؤية عميقة التأثير والدلالات مفعمة بقدر هائل من دخائل الأنثى وعطر أدواتها التي لا شك أنها تمنح النص الشعري قدراً من الحضور والتجلي.

*صحيفة 14 أكتوبر المصرية / 3 مارس 2008

أميرة الشعر
خنساء العرب في العصر الحديث

كثيراً ما يستوقفنا عطاء الشعراء من مختلف أقطارنا العربية، إلّا أن القليل من هؤلاء يفرض عليك التعاطي مع شعره بصورة مختلفة.. وذلك بعد أن غادرنا الشعر بما فيه من موسيقا وإيقاع وأجراس والتزام بالقافية، ناهيك عما في شعر الآخرين من أصالة وجودة والتزام لقواعد الشعر المعروفة ومحاسن الصور مثل التشبيهات والكنايات، إلى ما هنالك من إبداع للشعر ومتانة في الأسلوب.. الأمر الذي حفظ للشعر العربي الجاهلي حيويته ووجوده بعد قرون من قوله رغم ما في واقع حياة شعراء العصر الجاهلي وما بعد الجاهلي من تباين مع بيئات العصر الراهن، لكن شعر تلك الأزمنة سريعاً ما يجد طريقه إلى الاستحضار في ذاكرتنا، ولا يختلف الحال في التجمعات الحضرية عن البدوية في طريقة حفظ الكثير من موروث تلك العصور الغابرة بل وتداول سير فطاحلة الشعراء في تلك العهود، فهل غابت عنا في صورة الحاضر كل ملكات الشعر ولم تعد تأتي جنّ وادي عبقر حتى يأتوا بنصوص شعرية تطرب لها ويسري تناقلها كما كان في شعر الأسلاف؟ أم أن صورة الحاضر فيها من واحات الشعر والشعراء وإبداعاتهم ما يجعلنا نؤمن أن امتدادنا من أرومة عربية جاءت برهط الصعاليك وما خلّفوا من معلقات، ومجانين العشق والحب العذري بما جسدت حالات هيامهم وربما جنونهم من معان مفعمة بصدق العاطفة وعذرية العشق في محيط عربي عرف بمكارم الأخلاق حتى في جاهليته؟

نعم الحال كذلك، ما يوحي أننا أمة الشعر والشعراء وآذان موسيقية وحس ناقد ومتذوق لكل قول شعري يزرع في الذات حباً وهوى يلامس ما فينا من إرث شعري، ولأن تواجد المرأة في العالم الشعري يكاد يكون غير ملحوظ إلا

بما خلفت بعضاً من شذرات العطاء النسوي على مر الأزمنة من جودة الشعر ومتانته كشعر الخنساء ورثائها الشهير لأخيها صخر:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل غروب شمس
فيا لهفي عليه ولهف أمي أيصبح في التراب وفيه يمسي؟

إلا أن خنساء من الزمن الراهن تضاهي في قدرتها الشعرية خنساء التاريخ مع قدر هائل من عطر أنثوي في دخائل صورها الشعرية المفعمة بصدق العاطفة وقوة الوجدان الذي يفرض على هاجسها كل تلك الكثافة الحسية والصورة الجمالية التي تتوغل في نفسها الإيقاعي المتوثب الجميل.. أسلوب لا يمكن أن ينسب إلا لخنساء العرب العصرية المتدثرة بعباءة أميرة مرموقة وبدوية خالصة.. وتارة أخرى امرأة من لون هذا الواقع ومن قلب معاناته.
إنها الأميرة سعاد الصباح، سليلة أسرة آل الصباح الأميرية في الكويت الشقيق، وهي الأسرة الحاكمة الأكثر انفتاحاً على الثقافات الأخرى، ما جعل مناخات الكويت بؤرة ثراء ملفتة من حيث تأثيرها الثقافي في محيطها العربي.

• نتاجها الشعري:

قبل أن ندلف إلى خمائل هذه الشاعرة، أشير إلى ملامح هذه المرأة أو الأميرة المبدعة التي ارتسمت عليها تعابير حزن دفين في أغوار ذاتها المبدعة، وهي العلامات التي استمد بعض من قابلها من الصحفيين سؤالاًعن سر علامة هذا الحزن الذي زاد من "كاريزما" الأميرة المحبوبة تألقاً ومسحة جمال.
الملفت هنا أن الأميرة الشاعرة عبرت عن قدرة من حزن أمومة دفين ارتبط بحادثة رزية جابهتها ولم تبارحها بعد.. أي فقدان زهرة من زهرات روحها "الابن".
حين طالعتني مثل هذه الإجابة أشبعت ما كان في من فضول. لكن الحال بعث تساؤلاً آخر، أي علاقة الشعر بالحزن وبالفرح، علاقة شظف العيش

وحياة الثراء والدعة بالعطاء الشعري؟ ولعلنا نجد في نصوص سعاد الصباح إجابات شافية لما سلف، وهو حال يذكرني بسؤال صحافي وجه للشاعر الأمير خالد الفيصل عن سر نبرة الشوق والحرمان في شعره وهجر المحبوب رغم كونه أميراً كثيراً ما تلبى حاجاته ولا يرى السائل للحرمان مكاناً في عالم الأمير الشاعر؟ إلاّ أن الشاعر الأمير خالد الفيصل أعطى إجابة صادقة قاطعة للسائل، فحواها أنه مثل غيره من عامة الناس يعيش الحب وإخفاقاته، والوصل والهجر وعناد المحبوب، ما يجعله يعيش تلك اللحظات التي تعكسها قريحته الشعرية وروحه المنسلة من محيط الإمارة إلى عوالم البشر والعوام وأحاسيسهم.

• سعاد الصباح الأميرة الشاعرة:

تقول:

"أنا أرفض الحب المعبأ في بطاقات البريد
إني أحبك في بدايات السنة
وأنا أحبك في نهايات السنة
فالحب أكبر من جميع الأزمنة
والحب أرحب من جميع الأمكنة".

هي كثيراً ما تنشد بلسان حال جنسها، مخاطبة الرجل، ولكن بصورة مختلفة عن المألوف الشعري الذي غالباً ما يبدو على هيئة ذم كامل للطرف الآخر قفزاً على محاسن الحياة المخملية التي تعيشها الأنثى مع الطرف الآخر بعيداً عن نواميس وعادات القوم التي غالباً لا يحبذ أصحابها الاعتراف بمبدأ التكافؤ بين المرأة والرجل.. وبأنهما مكملان لبعضهما في الحياة. تقول:

"يا سيدي..
يا من يغيّر في أصابعه حياتي

يامن يؤلفني ويخرجني
ويكسرني ويجمعني
ويشعل ثورتي وتحولاتي
أجراس نصف الليل رائعة
وهذا الثلج موسيقا تكلمنا".
وهكذا هي اشتعال ثورة الحب تقول:
"ما لجنوني أبداً حدود
ولا لعقلي أبداً حدود
ولا حماقاتي على كثرتها
تحدها حدود
يا رجلاً يغضبه تطرفي
من الذي يغضب من تطرف الورود؟
هذا أنا من يوم أن خلقت
أنوثتي ساحقة
عواطفي حارقة
شواطئ تضربها البروق والوعود".

وتارة أخرى نقول:

"يا أيها المخبوء من عشرين عاماً.. في الوريد
يا من يغطيني بمعطفه
إذا سرنا معاً فوق الجليد
ما دمت لاجئة لصدرك
ما الذي في هذه الدنيا أريد؟
ما دمت موجوداً معي
فالعام أسعد من سعيد".

وهي في خطابها للطرف الآخر أكثر اعترافاً بمبادئ الحب وسلطانه القاهر للنفوس

لجنونه وعنفوانه.. إذ نراها تقول:

"أنا التي
كنت تناديني إذا أردتني
يا قمر الزمان
يا من على يديه تشكلت أنوثتي
يا أيها المسؤول عن هندسة الخصر
وعن تموج الشعر
وعن مواسمٍ الشمس والرمان
يا رجلاً عوضني بحبه
عن أجمل الأوطان".

مما لا شك فيه أن كل قصيدة من قصائد الأميرة الشاعرة سعاد الصباح تعبر عن حالة شعرية خاصة بنكهة وعطر وصدق قريحتها وفيض عبق أنوثتها الطاغية، فما أروعها من شاعرة عربية سليلة فرسان الشعر وأمرائه!

صحيفة 14 أكتوبر المصرية / 18 أبريل 2007
* الصحيفة لم تورد اسم كاتب البحث على موقعها

سعاد الصباح.. رحلة بحث دائب عن المعنى

عبدالله النديم*

تعد التجربة الشعرية للشاعرة الدكتورة سعاد الصباح من أبرز التجارب الشعرية الكويتية وأكثرها حضوراً وقوة وخصوصية، وهذه المختارات التي صدرت في كتاب بتقديم الناقد الدكتور محمد عناني مختارات مقترحة من عشرة دواوين مرتبة ترتيباً زمنياً، وتتضمن نماذج من شعرها منظوماً ومنثوراً على مدى أربعين عاماً تطور فيها العطاء وتنوع وأزهر فيها، فأثمر وأينع وذاع صيتها على امتداد الوطن العربي الكبير.

وقد حاول النقد الأدبي على غزارته وعمقه واتساع نطاقه أن يواكب ركب الإبداع، فكان أول اعتراف بعبقريتها يتمثل في الترجمة إلى الإنجليزية التي قامت بها الدكتورة نهاد صليحة عميد المعهد العالي للنقد الأدبي العام 1990م بمقدمة الدكتور سمير سرحان، ثم توالت الدراسات عن الشاعرة، ومنها فاضل خلف - بيروت 1992، وعزة ملك - باريس 1992، وسمعان بدير الصيداوي - باريس 1992، ومحمد التونجي - الكويت 1993، وبيار ريشا - باريس 1993، وسمعان بدير الصيداوي بالفرنسية - القاهرة 1993، والدكتور نبيل راغب - القاهرة 1993، وسعيد فرحات بلال خير بك - بيروت 1994، وفضل الأميل - بيروت 1994، ومحمود حيدر - بيروت 1994، وإسماعيل إسماعيل مروة - بيروت 2000، وعبداللطيف الأرناؤوط - بيروت 1995، وبرهان بخاري - بيروت 1999، إلى جانب المقالات والدراسات المتناثرة في بطون الكتب والمجلات السيارة.

وقد تنبه الكثيرون إلى الظاهرة الفريدة التي تمثلها سعاد الصباح باعتبارها امرأة لا تكتب أدباً نسائياً بل أدباً إنسانياً راقياً يتخطى حدود التمييز بين

الرجل والمرأة، وإن كان البعض قد شغلته الثورة الفكرية للشاعرة فجنح إلى تأكيد القضايا التي تصدت لها سواء أكانت قضايا المرأة العربية أم قضايا الأمة العربية، ولهم في ذلك بعض العذر، ولكن التركيز على القضايا مهما بلغت ثوريتها يظلم الشاعرة، فكأنه هو ترجيح للفكر على الفن أو إعلاء لقضايا الحياة على قضايا الشعر، وليس هذا من الإنصاف.

• القلب الذي يفكر:

يؤكد الناقد الدكتور محمد عناني أن الشاعرة تمثل التلاحم بين الفكر والفن والتواصل والعمق بين الحياة والشعر، وذلك هو المثل الأعلى الذي حققه الشعراء، على امتداد تاريخ الإنسانية، ويضيف الدكتور عناني: وهو يتجلى ناصعاً في دواوينها، ويعلن بكل قوة عما يسميه (ماثيو أرنولد) بالتقاء قوة اللحظة مع قوة العبقرية الفردية، أو عن التمازج الحميم بين العقل والقلب، والذي امتدحه ت.س إليوت في شعراء مطلع القرن السابع عشر في إنجلترا، وافتقده فيمن تلاهم من شعراء الكلاسكية، أي أن شعر سعاد الصباح تتشابك فيه خيوط الأفكار مع خيوط الأحاسيس تمازجاً لا يسمح بالفصل والتميز، فترى في كل صورة هذا القلب الذي يفكر (إذا استعرنا تعبير وردزورث)، وذلك الذهن الذي يشعر (بتعبير شيلي)، في وحدة متجانسة تستقي من التراث أنغامه ومن الحياة المعاصرة ملامح ودلالات جديدة منوعة وبالغة الثراء.

• الميلاد والموهبة:

ولدت سعاد الصباح العام 1942، وهي الابنة البكر لوالدها الشيخ محمد صباح الصباح الذي حمل اسم جده الشيخ محمد الصباح حاكم الكويت من 1892 إلى 1896، وتلقت علومها الأولية في مدرسة الخنساء بالكويت وفي ثانوية المرقاب للبنات بالكويت، واقترنت في العام 1960 بالشيخ عبدالله

مبارك الصباح نائب حاكم الكويت، والقائد العام للجيش والقوات المسلحة، وحصلت على شهادة البكالوريوس في الاقتصاد من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة العام 1973، ثم حصلت على الدكتوراه في الاقتصاد من إنجلترا العام 1981، وكان انشغالها بقضايا المرأة قائماً منذ البداية، إذ كان عنوان رسالتها بالإنجليزية عن التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي يتضمن دراسة عن دور المرأة، كما كان أول دواوينها يفصح عن التمازج الذي برز بجلاء في أعمالها التالية بين صوت الفرد وصوت الأمة، فأصدرت في صدر شبابها ولم تبلغ العشرين ديوان (ومضات باكرة) العام 1961، ولم تلبث أن أصدرت ديواناً آخر قبيل دراستها الجامعية، إذ تبلور حسها المرهف وتوهج، فأصدرت ديوان (أمينة) العام 1971، الذي جمعت فيه قصائد تنبئ عن مولد عبقرية شعرية فريدة، وتفصح عن صوت أصيل متميز، في وقت كان فيه الشعر الجديد في الوطن العربي يمر بمرحلة حاسمة، إذ كانت حركة هذا الشعر قد اقتصرت على البحور الصافية، أي التي تعتمد على تفعيلة واحدة متكررة، وشاع الرجز وهو البحر الذي يقترب كثيراً من النثر لكثرة زحافاته وعلله، وازدهر الخبب الذي يعتبر الصورة الحديثة للمتدارك.

• وتتوالى الإبداعات:

يضيف الدكتور عناني أنه توالت بعد ذلك دواوين الشاعرة التي أثبتت قدرتها في التعبير وفي التصوير وفي البناء المحكم، فانطلقت حتى في غمرة حزنها على فقدان ابنها في ديوان (إليك يا ولدي 1982) تتغنى في البحث عن المثل الأعلى، ناشدة الكمال والاكتمال، حتى جاءت ثورتها التي ألهبت الأكف بالتصفيق لها على امتداد الوطن العربي حين أصدرت ديوانها الثوري (فتافيت امرأة) العام 1986م، وهو يضم قصائد منثورة إلى جانب القصائد المنظومة، فكأنها تعلن التمرد على قوانين النظم التي وضعها الرجل، وهو التمرد الذي بلغ أوجه في آخر دواوينها المطبوعة (القصيدة أنثى والأنثى قصيدة) العام 1999، وقد

يكون من قبيل المصادفة أن يبدأ هذا التمرد العروضي مع التحول المعروف في حركة تمرد المرأة المعروفة باسم (الحركة النسائية الجديدة في العالم)، وهو التحول الذي جعلها تحول العناصر السلبية (أي عناصر الاعتراض على أوضاع المرأة في المجتمع) إلى عناصر إيجابية تتجلى في الإبداع الأدبي النسوي، ولكن الباحث المدقق سوف يجد أن للتمرد جذوره الفنية العميقة، فقصيدة النثر الجديدة تكسر النظم عمداً وفي مواقع محددة لتغيير نقاط التركيز الشعري.

*موقع أنهار نقلاً عن اليوم الإلكتروني
القاهرة 2005/10/1م

سعاد الصباح.. تباشير المطر

بابلو سعيدة*

تقرأ سعاد الصباح ذاتها، قائلة: "أنا إنسانة، بداياتي الشعرية كانت خربشات على كتاب الهندسة، وأطلقوا عليّ شاعرة المدرسة. كنت خجولة ورومانسية، ووالدي شجعني أن أكون عازفةً على البيانو، وقارئة، وناظمة للشعر، وأسسني لجيل المستقبل. تزوجت في الستينيات، وانتميت إلى عالم الشعر، وأخذت مفرداتي الشعرية من بيئة البصرة وجغرافيتها. تأثرت بالمتنبي الذي صقل مواهبي، وبمدرسة أبولو، وبالمدرسة المهجرية، وبمدرسة نزار قباني، وإنني فخورة بالانتماء إليها، وأضعها وساماً على صدري، لي ديوان في الفرح والحب والتفاؤل، وآخر في الحزن والفجيعة والمرارة على إثر وفاة ولدي. وعلاقتي بالرجل علاقة صداقة سواء كان أبي أم زوجي أم أخي، والمرأة ما زالت تعيش في زنزانة الماضي، فالمجتمع صنع قفلاً لفمها ولفكرها، والظروف التاريخية ظلمت المرأة، والرجل ظلمها، والمجتمع قهرها، وتبقى المرأة هي القضية، لأن المرأة هي الوطن، والوطن هو المرأة، وإذا لم تتحرر المرأة لا يتحرر الوطن".

ساهمت أدبيات سعاد الصباح وليلى العثمان في زراعة بذور النهضة للمرأة الخليجية، وتحررها ذهنياً من شعورها بالدونية والتسفيل.

ومثلت سعاد الصباح تيار الحداثة في الصور والمضامين، والناتج عن جدل اللغة بالواقع والحياة اليومية، فالحداثة عند سعاد الصباح، تمثل نهراً متدفقاً في البناء الشعري والموقف.

قدمت مشروعاً عربياً نهضوياً يتضمن تحرير الإنسان العربي من الغبار الصحراوي الذي لحق به، والوحل المدني الذي التصق به. وتعمل بكل الوسائل والإمكانيات المتاحة لها على تأسيس إنسان حرّ في وطن حرّ.

نصّها ليس نصّاً مغلقاً، بل هو نص مفتوح وغير مقيد باشتراطات الصحراء والقبيلة، ففي نصوصها نجد صدقاً في التعبير عن مشاعرها وأحاسيسها، وجرأة في الانحياز إلى الحقيقة، ودفئاً في مفرداتها، وشفافية إنسانوية في رؤيتها وانفعالاتها، واقتحاماً وخرقاً للسائد / المألوف.

تكلمت الشاعرة بصوت الرجل، واستخدمت مفردة الضمير الأنثوي المتكلم: **"إنني بنت الكويت. أنا الخليجية.. أنا الحضارة"**، لأنه الأكثر درامية من غيره، والأكثر وقعاً وتأثيراً في السيكولوجية الإنسانية، والأكثر صراحة وصدقاً.

استخدمت الضمير الحاضر والغائب لتعرية الواقع الشرقي، وتحرير إنسانه من غباره الصحراوي ومن الموروث والذاكرة السلبيين.

وعملت سعاد الصباح بكل طاقاتها الأسلوبية والحياتية لتحرير المرأة الشرقية من عقدة الدونية والتسفيل، ولكي تتصالح المرأة مع جسدها. ورفضت الشاعرة قوانين الأنثى، لأنّ الذكور صاغوا القوانين لصالحهم.

كما استهجنت المنظومة القيمية الشهريارية، واعتمدت منظومة قيمية وتربوية راقية لصالح إبداع الجنسين معاً، قائلة:

"كان بوسعي أن، أرقص فوق الموج ككل الحوريات
وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات
لكني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات".

فضلت الشاعرة الواجب العام على الواجب الخاص، واختارت المشاكسة؛ مشاكسة جنون مرض العظمة لدى الذكور.

وقفت إلى جانب المهمشين والمغيبين والمتعبين من الجنسين معاً، واستخدمت مفردات جديدة ومضادة لقانون القبيلة وقاموسها: "الإنسان الحبيب، الحب المتبادل، والعشق والصداقة "، ولذا أصبحت الشاعرة في نصوصها ويومياتها

معادلاً طبيعياً للرجل في إظهار مشاعرها، ونقل أحاسيسها مباشرة في الضوء لا في العتمة:

"أنا البدوية
التي جاءت إليك من بحار الصين
فعلّمني".

الشاعرة لا تكترث بتاباوات القبيلة وأحكامها التعسفية، وهي توزع مشاعرها وعواطفها في فضاء واسع لا في مكان ضيق ومغلق:

"مشاعري نحوك، بحر ما له سواحل
وموقفي في الحبّ، لا تقبله القبائل
فاعتبروني امرأة
خارجة عن سنة الأوائل".

عملت الشاعرة بما تمتلكه من طاقات حيوية، لتكوين ذات حرة، في كرة أرضية صارت وطناً لها:

"حين أكون بحالة عشق
أشعر أنني أمشي فوق الغيم
أسرق ضوء الشمس
وأصطاد الأقمار
حين أكون بحالة عشق
أشعر أن العالم أضحى وطني
وبإمكاني.. أن أنتقل دون جواز
كالكلمات.. وكالأفكار".

سعاد في الوقت نفسه هي أم حقيقية: **"حينما تكون على خريطة هذا العالم تذكر أمومتي".**

كما تنتقد الشاعرة المستحوذين والمستعملين والمستملكين لأراضي الآخرين، والمستبيحين لمتخيلاتهم، سواء أكانوا مستعمرين للشعوب أو للنساء.
وتطلب من الزوج الشرقي أن يمنحها الحكم الذاتي، ولكن استقلال الأفراد لا يعطى منحة، بل يؤخذ عنوة من الأزواج الذكور.
تكلمت الشاعرة بصوت المرأة في غالبية نصوصها، وأزالت الحواجز النفسية بين المرأة وجسدها، وبين المرأة والرجل، في مجتمع شرقي راكد يعتبر مفردة الحب **"فضيحة وجريمة موصوفة "**.

المرأة التي قرأت قصائد الشاعرة، وجدت ذاتها في القصيدة، وكأنّها هي الشاعرة والمحبة العاشقة أو المعشوقة، لأن الشاعرة قامت بالتوليف بين دفء نصها وتفاؤل يومياتها.

في مجموعة **"امرأة بلا سواحل"** 1994 نجد عشر قصائد اقتحامية، معبرة عن اللغة وصور الحياة اليومية. لذا استطاعت الشاعرة تحرير نصوصها من قيود اللغتين، الكلاسيكية والشعبوية المحكية، وأخذت من اللغتين مفردات المنطق والحكمة والجرأة والدفء، وقامت بالتعشيق بين اللغتين لتكوين لغة ثالثة.
أحبها الشعبويون والنخبويون، مما جعل نصها يمتد أفقياً طامحاً إلى تجاوز الركود الحياتي، والذهنية المجردة، وصولاً إلى واقع حلمي متحرك ومتحول عبر نص جريء واقتحامي وفضائحي وإنسانوي، والذي وظف اللغة القاموسية الرسمية والمحكية الشعبية لخدمة الإنسان والحياة معاً.
في مجموعتها **"امرأة بلا سواحل"** نجد حباً رومانسياً بين اثنين متحررين، لا يعترفان بالجغرافية السياسية التي تفصل بين عاشقين محبين، ولا يميلان إلى التفرقة العنصرية، وهو حب مفتوح في النصوص الشعرية، والهواء الطلق، تقول فيها:

"الحب الكبير لم يكن في يوم من الأيام مناقضاً للقيم العليا والأخلاق العامة. إنه حق مشروع لا يختلف عن حق الأمواج في

التكسّر وحق الرعود في التفجّر وحق العصافير في الغناء والزقزقة.. فلماذا لا يسمح لي أن أكون موجة أو رعداً أو عصفورة تغني على نافذة حبيبها، دون أن تقتلها بواريد الصيادين؟".

وفي نفس المجموعة نجد حباً بركانياً يخترق الأعراف والمحظورات والمألوف:

"حب يثور على الطقوس المسرحية، على الجذور، على النظام، حب يحاول أن يغير كل شيء، في قواميس الغرام".

وفي زمن يستبدل فيه التواصل البشـري بالتواصل الوهمي، وتغيّب وتهمّش الـ(أنا) الفردية والجمعية، ويسـتملك الخـارج إرادة الداخـل، ويخترق الداخـل حقوق مواطنيه:

"في زمن التلوث الروحي والفكري والقومي
هل يمكن أن نظلّ أصدقاء؟
وكيف نسترجع أيام الهوى، ونحن مدفونات، تحت الوحل والركام".

الشاعرة ترى في الشاعر القوة القادرة على نقل مجتمعه من القهقرى إلى التقدم، وإذا لم يكن كذلك، فلا ضرورة تاريخية لوجوده:

"هو مخلّص الشعوب من موروثها وتخلفها
وإذا لم يكن مخلصاً، فلا ضرورة لوجود الشاعر وشعره".

تطمح الشاعرة إلى تحقيق عالم من القيم والمثل العليا، وهي نبيلة في وسائلها وأهدافهـا، ورافضة لمقولة الوعود والوعيد.
وفي مجموعة "فتافيت امرأة" 1992 ومجموعة "في البدء كانت الأنثى" 1994 نقرأ نصوصاً شـعرية أنثوية راقية، تعلن النشرة الجوية لدرجات الحبّ

في الساحات العامة، وهي أول نصوص شعرية عربية أنثوية جريئة تقتحم المألوف والمحظور.
نصوصها ليست توصيفية لهموم المرأة وأحزانها، بل هي نصوص مجابهة لاستعمار الرجل الشرقي الذي حوّل نصف الوطن إلى معتقل، والنصف الآخر إلى مغيّب ومهمّش.
الشاعرة الخليجية تدعو إلى التغيير والتجديد المستمرين في النصوص واليوميات، وتعتمد التضامن الإيجابي لا السلبي:

"أنا الخليجية، الهاربة من كتاب ألف ليلة وليلة
ووصايا القبيلة
أنا النخلة العربية الأصول
والمرأة الرافضة، أنصاف الحلول
فبارك ثورتي".

المجتمع الشرقي في غالبيته يحترم المرأة الصامتة لا الناطقة، ويعتبر المرأة الكاتبة منفلشة، والمرأة المتحررة شريرة وحمقاء، والمرأة الخيرة امرأة القبول والطاعة المطلقة، وأفضل النساء في أدبياته الشفاهية الفرّاخة والخادمة.
تقول الشاعرة بلسان الذكر الشرقي:

"إن الكتابة إثم عظمي
فلا تكتبي
وخير النساء هي المرأة الراضية
وإن التحرر رأس الخطايا
وأحلى النساء هي المرأة الجاري".

الشاعرة تضامنت مع المجتمع المتحول لا مع المجتمع الثابت الركودي الذي سينقرض، ويبقى الإنسان الفاعل والمتحرر:

"أعرف.. أن الخفافيش تمضي
وأعرف أنهم زائلون
وإنّي أنا الباقية".

لم تكن قصيدة الشاعرة أنثوية صرفة أو مستجدية ومكبوتة ومحافظة، بل كانت قصيدة مجابهة، وطامحة إلى نقل الجنسين من التهميش إلى التفعيل، وكانت تحب الآخر لذاته، لتطرد الحزن والضجر من مملكتها:

"كن صديقي
أنا لا أطلب أن تبتاع لي يختاً
وتهديني قصوراً
هذه الأشياء لا تسعدني
هوايتي صغيرة
هو أن أمشي ساعات
وساعات معك
تحت موسيقا المطر
وطموحي هو أن أسمع في الهاتف
صوتك
عندما يسكنني الحزن
ويبكيني الضجر".

المجتمع الشرقي يفرض الإقامة الجبرية على المرأة، لأنه في الرصيف الآخر المعادي للتحرر وللحب وللصداقة، وتبقى الشاعرة جريئة في اقتحاماتها الشعرية لمملكة الحب والصداقة:

"أسميك
رغم احتجاج قريش
حبيبي

أسميك حنى أغيظ النساء
حبيبي
وأعرف أن القبيلة تطلب رأسي
وأن النساء
سيرقصن تحت صلبي".

في مجموعتها "في البدء كانت الأنثى" نجد إنساناً شرقياً يعامل المرأة سلعة وجارية، ومتعة جنسية، وقطعة أثـاث وديكور مميزين في قصوره الشرقية، في حين تسعى الشاعرة بكل طاقاتها الأسلوبية والحياتية لإجراء مقاربة بين أبجدية النص وأبجدية الحياة، لأن المرأة جسد ودماء ومشاعر وطموح وحوارات:

"فلماذا أيها الشرقي تهتم بشكلي؟
ولا تبصر عقلي
إنني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار
فلماذا لا ترى في معصمي إلا السوار
ولماذا فيك شيء من بقايا شهريار؟".

ثورة الشاعرة على الواقـع العربي الرســمي منه والأهلي في نصوصها "فتافيت امرأة" ليست توصيفية لواقع المرأة التراجيدي، بل حالة رفضية للمنظومة الأخلاقية لقيم المجتمع النفطي الاستهلاكي، وللواقع العربي بكانتوناته الهزيلة في ظل نظام رسمي وأهلي، مواكبة لنبض العالم المعاصر في التجديد والتحديث في جغرافية ما زال فيها الأديب يصرخ شـعراً أو نثراً نيابة عن المرأة، حيث لم يكن يسمح للمرأة أن تصرخ بصوتها الطبيعي.
وقامت الشاعرة بتعرية إمبراطورية الرجل الشرقي، وعملت على تحرير المرأة من استعمار الرجل. وكانت أصلب موقفاً من سـابقاتها من الشاعرات الخليجيات اللواتي صرخن شعراً ونثراً بأصواتهن.

الشاعرة مع الشاعر نزار قباني شكّلا مدرسة استقلالية للحداثة وللتجديد في البناء المعماري والدلالي للقصيدة السهلة / الصعبة، لذا تطمح الشاعرة في نصوصها ويومياتها إلى صناعة امرأة تقترب من السيطرة على جسدها، وحريتها في استعماله، والعمل بجدية للمقاربة بين الجنسين باعتماد المساءلة وصولاً إلى إقامة الجمهورية النسائية التي تحترم القانون، وتعتمد أخلاقية العمل، وكفاءة الأنوات، وأنسنة الإنسان، وتقديس حقوق المواطنة والمساءلة، وتعمل على تحرير الوطن ونصف المجتمع من الاعتقال التعسفي، والشعور بالدونية والتسفيل.

وجعلت الشاعرة الشعر مشاعاً بين الجنسين، وهي تعمل على تأنيس البشر والقيم، والرجل يحافظ على ذكوريته المستبدة:

"أنا الحضارة
والرجال طغاة التاريخ".

الشعر لدى الشاعرة حالة تجاوز وارتقاء وتفعيل للإنسان وللحياة، وهو ليس حفلة كوكتيل

بل هو تواصل إنساني بين الشاعر وجمهوره، فالشعر شعاع وجدان، ورصد معاناة ونشاط فكرٍ لإنتاج الجمال حالة حلم وكهربة لحظة.

مفاتيح الشاعرة "الجنون والحب والصراحة والثورة، وهي صرخة احتجاج عالية المستوى، وتلتقي مع صرخات غادة السمان، ونوال السعداوي، وأحلام مستغانمي، وكوليت خوري، وسيمون دي بوفوار:

"إنني مجنونة جداً
وأنتم عقلاء
وأنا هاربة من جنة العقل
وأنتم حكماء، أشهر الصيف لكم

فاتركوا لي انقلابات الشتاء".

تمثّل الشاعرة الوجه الإيجابي للحياة الحرّة الكريمة، ويبقى القهر العام هو الوجه الآخر السلبي للحياة.

*الحوار المتمدن – العدد 2083 – 2007/10/29

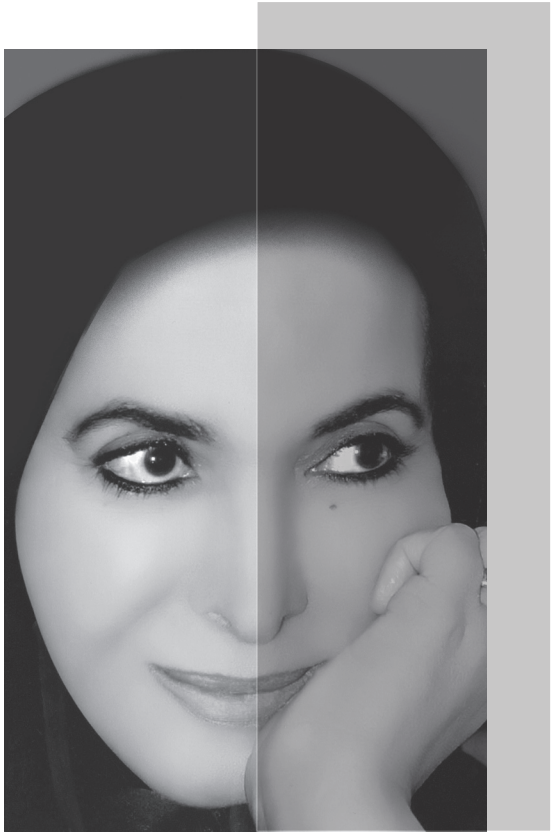

عزف منفرد على ربابة كويتية

فتاة غسّان

تتراءى لنا فتاة كويتية ملتحفة بالسواد، ومحاطة بقبائل تئد النساء. وهي امرأة مكسورة الخواطر، ومقهورة العواطف والمشاعر، وترفضها السلطة الرسمية والأهلية، وهي امرأة تسكنها الخرافات، وتتبعها السكاكين. ترعبها الكوابيس، ويرافقها الخجل والخوف والضجر في جغرافية تخشى القصيدة وثقافة المرأة، وتمنعها من حق الانتخاب وحق التصرف بكلمتها وجسدها.
الشاعرة رأت في ناصرها العظيم المخلّص، وفي غيره المخرّب والمدمّر:

"كان هو الأجمل في تاريخنا
كان هو المهدي في حياتنا
والنخلة الأطول في صحرائنا
كان هو الحلم الذي يورق في أهدابنا
كان بنا يطير فوق جغرافية المكان
مستهزئاً من هذه الحواجز المصطنعة
من هذه الممالك المخترعة
من هذه الملابس الضيقة
المضحكة المرقّعة
من هذه البيارق الباهتة الألوان
كان هو القوة في أعماقنا
واللهب الأزرق في أحداقنا
والريح والإعصار والطوفان
كان هو النجمة في أسفارنا

والجملة الخضراء في تراثنا
كان هو المسيح في اعتقادنا
فهو الذي عمّدنا
وهو الذي وحّدنا
وهو الذي علمنا أن الشعوب تسْجن السجان
وأنها حين تجوع تأكل القضبان
يا ناصر العظيم لا تسأل عن الأعراب
فإنهم قد أتقنوا صناعة السباب
وواصلوا الحوار بالظفر والأنياب
وحاصروا شعوبهم بالنار والحراب
يا ناصر العظيم، سامحني
فما لدي ما أقوله
في زمن الخراب".

وقصيدة "إن جسمي نخلة تشرب من شط العرب":

"إنني بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل
كالظبي الجميل
في عيوني.. تتلاقى
أنجم الليل... وأشجار النخيلِ
من هنا، أبحر أجدادي جميعاً
ثم عادوا، يحملون المستحيل
غرفتي الشمس
وجدودي اخترعوا الأمواج.. والبحر
وموسيقا الرياح
صادقوا الموت
فلا الخيل استراحت

ولا السيف استراح
إن جسمي نخلة تشرب من شط العرب
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء وأحزان
وآمال العربْ
سوف أبقى دائماً
أنتظر المهدي يأتينا
وفي عينيه، عصفور يغني
وقمر
وتباشير مطر
سوف أبقى دائماَ
أبحث عن صفصافة.. عن نجمة
عن جنّة.. خلف السراب
سوف أبقى دائماً
أنتظر الورد الذي
يطلع من تحت اليباب".

القصيدة ولّفت بين العام والخاص، والذات والقضّية، وأعادت بالذاكرة إلى تألق أمة العرب في ماضيها وهشاشتها في حاضرها، وإمكانية استعادة عافيتها في المنظور القريب. وحملت الشاعرة في عينيها وذاكرتها، الحلم العربي: **"في عيوني تتلاقى أنجم الليل وأشجار النخيل".**

وانتظرت مهدياً MESSIAH "في عينيه عصفور يغني، وقمر وتباشير مطر"، يخلّص المجتمع من النظام العربي الشمولي، الرسمي منه والأهلي، وينقله من القهقرى إلى التقدم، ومن السوداوية إلى التفاؤلية.

ويطبع النظام العربي الرسـمي والأهلي قبلة عابـرة على وجه الشاعرة، ممتزجة بالحزن والفرح معاً، مما جعلها غزيرة في منتوجها الأدبي والشعري، ومدافعة عن حقوق المواطنة، ومشجعة للمبدعين من جيل الشباب، وحاملة في عينيها الجذابتين، وفكرها المبدع، وذاكرتها المتوقدة، ماضيها الزاهر، وحاضرها القاحل، ومستقبلها الواعد لصناعة تاريخ قادم رائع.

سعاد الصباح الأم والجدة، الرسّامة وشاعرة قصيدة النثر والتفعيلة والعمود.. تقرأ ذاتها والآخرين في العام 2005 قائلة: "ولدت وفي أعماقي مهرة لا تعرف الحذر أو الخوف أو السكينة، كنت أحس بأني مسكونة بالعاصفة، وأن الزمان هو زماني، كنت أحس بثقة كبيرة بنفسي، فما أقرره أعلنه وما أعلنه أفعله، كان عبدالله المبارك ناصري الأول وسندي، فازددت به قوة، وغنمت بفروسيته رهان القتال. إنني حزينة لأن المرأة هي المتراجع الأول، وهي الجسر الذي يبنى عليه خصومها مسارهم. المرأة العربية ليست مدعوة للثورة على غيرها، بل على نفسها أولاً لتخرج من قارورة العطر التي حبسـت نفسها فيها. كنت أدعو المرأة للثورة على العقلية الذكورية، وأنا اليوم أدعوها إلى الثورة على ذاتها، لأنه ما لم تحقق انتصارها على هذه الذات، فكل انتصار آخر يبدو باهتاً، أما المثقف العربي في علاقته بالسلطة في بلده فيعاني تضييقاً كاملاً على كلمته وعلى حريته وعلى رزقه، وليس هذا حالنا في الكويت.

لم أحسب يوماً حساب الرقيب الخارجي، أما الرقيب الذاتي فلا أحسب أنه كان شديد التحذير والقسوة. أكاد أجزم بأنني أعرف على هذه الأرض أكثر من نصف مساحتها، وغالبية شعوبها. يبقى لي أن أقول إن الكويت هي أجمل المدن في عيني لأن فيها أسرتي وصوتي وصداقات العمر الطويل، وذكريات من كان ضوء ليلي الطويل.

الأحلام المستحيلة لم تأخذ في خيالي حيزاً، لقد حلمت، فعملت من أجل سعادة الآخرين، وكنت وما أزال أرى سعادتي عبر ضحكة على وجه امرأة، أو بسمة في عيني طفل، وعندما أعترف أنني قد أضفت قطرة ندى على ابتسامة إنسان أكون قد حققت ذاتي وامتلأت بنعمة الله عليّ".

انفعالات الفكر والعاطفة في قصيدة (زوجي المعلم.. وأنا التلميذة)

وجدان عبدالعزيز

حالما قرأت قصيدة الشاعرة سعاد الصباح، تذكرت تعريف ورد زورث للشعر بأنه: (انفعال مسترجع في هدوء)، لذا نجد أن الشاعرة قد رسمت لوحة من الحب والوفاء هي بمثابة درس للأجيال في احترام العلاقات الإنسانية، ومنها علاقة الزواج النادرة بينها وبين زوجها الراحل، ولأنها شاعرة جعلت لوحتها هذه شعرية خالصة لوجه الحب بوعي، غير أنها تركت الكثير من الفراغات على الورقة كإعلان عن مقولات مسكوت عنها، وبإيقاع الكلمات المكتوبة على نغم السهل الممتنع عزفت ألحان الحزن والفقدان مع ألحان إشارية بالحضور، وصبغتها بهالات الهيبة والقدسية التي تفننت الكلمات الشعرية في التعبير عنها وعن مكانة الشخصية، أي زوج الشاعرة ومكانته في حياتها بعطاءاته المتعددة، عطاءات الجسد، وهي عطاءات مرئية، وعطاءات أخرى لا مرئية، تقول:

"لك الشكر.. يا سيدي..
فمنك تعلمت كيف أثقف ذوقي..
ومنك تعلمت كيف أثقف عقلي"..
هذه عطاءات لا مرئية حدثت نتيجة للتناغم الروحي بين الاثنين، ثم شكلت الحيرة عندها مساراً لتعميق العلاقة:
"وكيف يكون كلامي على مستواك...
وشكلي على مستواك".

ثم تصمت لتأخذ قسطاً من الراحة والاطمئنان في التفنن بإدامة هذه العلاقة لأنـي:

"كيف أكون أمام الرجال أميرة..
وبين النساء أميرة".

لسبب بسيط فـ:

"أنا لك تلميذة نابهة".

مصغية وهي بهذا العصر المتقدم في إيصال المعلومة التربوية، وهي محاولة من الشاعرة لإخضاع مساحات الجمال في إيصال العلاقة الإنسانية من خلال الشعر إلى حالة التلقي الناضج المقبول، لأنه جاء بموصلات جمالية وهي موصلات الشعر، ومن الواضح أن توافق الشاعرة مع زوجها أثمر هذه الجماليات من الوفاء والإخلاص الذي جاء عفو الخاطر، بحيث أصبح هذا منبع إبداع ورؤى وخلق، ثم إن الشاعرة الصباح لم تترك رغم مصيبة الموت شاعريتها الشفافة في الغزل تقول:

"وأنت غسلت بماء البنفسج ثغري".

وقبلها قالت:

"وأنت رسمت مساحة خصري".

وطافت الشاعرة بالعوالم اللامرئية، وتصوفت مع زوجها في اندماج روحي وجسدي، وأصبح صوتها الشعري يقول:

"فأصبح صوتي امتداداً لصوتك..
وأصبح رأي انعكاساً لرأيك".

هكذا تذوب جسداً وفكراً مع زوجها، وهي ترجمة للآية الكريمة من سورة الروم (وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا لتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، أي أن الزوجين حينما

تحدث حالة التفاهم الجسدي والفكري يصبحان وحدة واحدة تجاه استثمار الحياة وأكثر استقراراً ودعة، ثم تنفعل الشاعرة سعاد الصباح، قائلة بإصرار وتحدٍّ في غيبة الحبيب:

"أحبك...
حتى غدوت من الحب..
نسختك الثانية..
بكل حضورك".

وكأنها تقول أنت لم تمت، لأني نسختك الباقية، صنعتني بالحب بنفسجاً ووردة تفوح بحيوية الحياة:

"أيّا سيد الحب..
ما زلت تلميذة تسير وراء خطاك..
فيا ليتني ذات يوم أنال رضاك".

هي جادة في التواصل مع الحبيب، وهناك يقين تكشفه صورها الشعرية بأن لقاء آخر سوف يتم بينهما كي تنال الحبيبة وتكمل رضا حبيبها (ذات يوم أنال رضاك..)، أي يوم؟ هو يوم الملتقى الثاني حتى تختتم مقاطع القصيدة بالانحناء أمامه بالشكر تقول: (لك الشكر..).

إذاً قصيدة الشاعرة سعاد الصباح قالت أشياء ضمن السياق الظاهر، وسكتت عن أشياء جعلت القصيدة من العمق بمكان بحيث يتلهف المتلقي لملء هذه الفراغات باستعارات جمالية، قد تحاول أن تتلاءم مع ما قالته الشاعرة لإكمال لوحة الحب والوفاء واستغوار مفاهيم وأعماق العلاقة الزوجية الإنسانية بينها وبين زوجها الراحل رحمه الله.

(كلمات.. خارج حدود الزمن) رصد الحياة بمفهوم إنساني

الكتابة عند الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح لم تكن رغبة في الحديث أو البوح بقدر ما هي سيرة تريد من خلالها تأريخ مشاعر إنسانية ذات علاقة حقيقية بالحياة، حيث إن علاقتها بالكتابة، سواء الشعرية أم النثرية، أصبحت مسألة لا يمكن الإشارة إلى توهجها من خلال كلمات قليلة.. إنها مسألة تندرج في متونها الحياة بكل موجوداتها، ولحظات مرصودة بأحاسيس تتحين الفرصة من أجل إبراز الجمال في كل صورة وتداعياته وألقه.

إننا حينما نسعى إلى التوقف عند كتابات الدكتورة سعاد الصباح سنجد أننا أمام رؤى إنسانية مزدانة بالحلم والحب والاقتراب أكثر من أيقونة الجمال، تلك التي تمنح الإنسان معناه الحقيقي.

وقد جاء كتاب الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح الذي صدر أخيراً عن دار سعاد الصباح تحت عنوان لافت "كلمات.. خارج حدود الزمن"، ذلك العنوان الذي يحتاج إلى قدر كبير من الفهم من أجل الوقوف على محتواه الذي سيكشف لنا رؤى المؤلفة خلال نصوص ومقالات كتابها.

ويمنحنا عنوان الكتاب فرصة كي نكون مهيئين للدخول إلى عالم الدكتورة سعاد الصباح، ذلك العالم الذي رسمته بكلمات لا تخضع لزمن محدد، فهو عالم بلا زمن، رغم أن كلماته موجودة وفاعلة، ونستطيع أن نتفاعل معها. إذاً هو الإحساس الجميل بالكلمات، ذلك الذي تحرص المؤلفة على أن نقترب منه، دون أن يكون للزمن قيمته أو مفعوله الذي ربما يدمر إحساسنا المبهج بالكلمات والمعاني.

يأتي مقال «**بناية حب.. اسمها الكويت**»، كي يكون أول متن الكتاب في تواصل حسي متوهج مع الوطن: "**.. فالكويت بناية ارتفعت بحجارة**

الحب.. وبسواعد الكويتيين وعرقهم ودموعهم.. وضوء عيونهم".
وتستطرد: **"والبنايات التي تبنى بالحب.. تزداد طوابقها ارتفاعاً مع الزمن.. وتزداد أساساتها قوة ومتانة".**
"سيطلع الربيع" عنوان يحمل في معانيه الأمل الذي سرعان ما نجده متوهجاً في مقال يتضمن رصداً لانتصارات الخير على الشر:
"أيها المقاتلون
لا توجد أغنية في العالم
تستطيع أن تغني انتصاراتكم
ولا توجد قصيدة عربية أو غير عربية تستطيع أن تكون بمستوى قاماتكم
ولا توجد لغة في العالم تستطيع أن تقول بطولاتكم".

وتتحدث في مقال «**صندوق العجائب**» عن غرائب وعجائب العرب أدباء وسياسيين، ثم كتبت مقالاً «**للنساء فقط**» مؤكدة بقولها: «**إذاً، فالثقافة يجب أن توظف بالدرجة الأولى لتصحيح النظرة السلفية والحجرية والبوليسية، التي ينظر بها إلى الأنثى**».. مستطردة: «**الثقافة يجب أن تكون في خدمة كل الموءودات، والمسحوقات، والخائفات، والمحاصرات، والمحترقات بنار الرجل ونار النفط**».
ثم جاء مقال (**بين المرأة - النورة.. والمرأة – الديكور**)، كي تشير فيه سعاد الصباح إلى المساعي التي أطلقت من أجل تحرير المرأة العربية، تلك التي تصفها بـ«**صرخات في الفراغ**».
وأشارت سعاد الصباح في مقال «مذبحة المجلات النسائية» إلى مسألة إصدار المجلات النسائية التي "صار عددها المخصص للنساء أكثر من النساء".
وطرحت المؤلفة القضية في عنوان «**المشكلة في الأنوثة!**»، كي تشير إلى نظرة المجتمعات العربية للأنوثة التي تعني الضعف والهشاشة.
أما مقال «**المرأة والوطن**» فقد جاء من خلال إبراز ذكورية المجتمعات

العربية مع تأكيدها على العلاقة القدرية بين الرجل والمرأة.

وفي مناسبة الاحتفال بعيد المرأة العالمي كان مقال «**الثورة من خلف الشبابيك**» مؤكدة: "**هناك كسل تاريخي لدى المرأة جعلها تخسر قضيتها**".

وتتواصل الدكتورة سعاد الصباح في رصدها الإنساني الجميل للمرأة والوطن من خلال مقال «**عندما تصير الأم وطناً**»، وبالتالي يأتي الطفل ليكون له الدور الأكثر أهمية في كتابات سعاد الصباح لترى أن الأطفال هم صناعة المستقبل، بالإضافة إلى دفاعها عن الحرية: «**لا تذبحوا عصفور الحرية!**»، وتفاعلها مع «أحزان الكتاب العربي»، وترى أن «الكتابة في الزمن المريض»، تجعل القامة التي كانت تتوهج عافية وكبرياء.. تتقوس.

كما تؤكد سعاد الصباح أن «الثقافة.. فعل وتأسيس»، وعبر مقال «سأعود إلى بيتي الكويت» لخّصت المؤلفة معاناتها بقولها: «انعكست أزمة الغزو على وطن وعليّ وجودياً وإنسانياً وثقافياً وشعورياً».

وتشير المؤلفة إلى الديموقراطية في الكويت من خلال مقال«صباح الخير.. أيتها الديموقراطية»، وبخاصة في الانتخابات البرلمانية الأخيرة، ثم تعود مرة أخرى لتقول: «لا تخافوا على الديموقراطية»، كي تتواصل مرة أخرى مع مسألة إنسانية أخرى وهي الحرية عبر مقال «صباح الخير... أيتها الحرية».

وتفتخر الدكتورة سعاد الصباح بأن "الكويت مدينة البطولة"، وقد أفسحت المؤلفة المجال لقلمها كي يتأمل ويتساءل، ويفكر في كيمياء البشر و"الاصطياف خارج حدود الذاكرة".

وتتواصل الدكتورة سعاد الصباح في كلماتها مع العالم من خلال الحضارات الإنسانية القديمة والمعالم الأثرية كما في «**تعال إلى جزيرتي.. تعال إلى باربيدوس**» و«**دمعتان في بيت موزارت**» و«**كويتية في فينيسيا**» و«**قفا نبك.. على جدار برلين**».

كما تحدثت عن العقل والقهوة والمقاهي وانتصارات الإنسان، و«عربة الحرية»، كما أشارت إلى «مصر.. بيتنا الكبير»، لتقول عن القاهرة:"**.. ويمكن**

أن أقول إن القاهرة تفتح الآن جامعة ثقافية لحسابها".

واختتمت الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح كتابها بمقال «وحش جميل.. اسمه الكمبيوتر»، وذلك من خلال رصدها لتطورات العصر، مع توضيحها لمحاسن الكمبيوتر ومساوئه أيضاً، لتقول مؤكدة: **".. وأحب أن أطمئنكم أنني مع الحداثة، ولكنني أرفض بكل قوة اغتيال عقل الإنسان... واغتيال قلبه".**

جريدة الراي – ثقافة - زاوية (ضوء) – العدد 10696 – تاريخ 2008/10/13م

* الصحيفة لم تذكر اسم كاتب البحث على موقعها

ثقافة الأسئلة عند سعاد الصباح
أسئلة ديمقراطية في زمن غير ديمقراطي

سعاد العنزي*

نحن في زمن سيطرت عليه ثقافة الأسئلة التي تفتح دوائر دلالية من الأسئلة التي لا تنتهي، فإن أجدنا صناعة السؤال فإننا سنضمن فرضية تعالج وتوازي ما هو قائم من وضع معيشي، على المستوى الذاتي أو المستوى الموضوعي، والدكتورة سعاد الصباح في قصيدتها «أسئلة ديموقراطية في زمن غير ديموقراطي»، تنطلق في قصيدتها بفضاء من الأسئلة الجدلية والأزلية، التي تتماس وجرح أي امرأة عربية، تتألم لواقعها الراسخ بين الطموحات والآمال، وبين القيود والحواجز التي تعولب المرأة على شكل سلع جاهزة، تقدم للآخر بتعدد أشكاله وصوره.

والدكتورة سعاد الصباح في قصيدتها هذه، وجميع قصائدها المتبقية، لا تنطلق من تجربة شخصية، لتبوح عنها عبر أدبها، بل إن نقطة البدء عندها تكون من التماس مع هم موضوعي، وحزن موضوعي، يمس كل امرأة عربية، تسير خطاها بارتباك مثقل بأعباء القبيلة والعيب والعار، فلا تكاد تقطع شوطاً حتى تعود أشواطاً إلى الوراء بسبب ثقافة الإلغاء والثأر، ثأر عبد مناف.

• روح المفارقة والسخرية في العنوان:

العنوان هو: "أسئلة ديموقراطية في زمن غير ديموقراطي"، وهذا العنوان مبني أساساً على التضاد بين ما هو ديموقراطي، وما هو استعبادي، مستبد، غير ديموقراطي، فهو وصف تطلقه الشاعرة على زمن يفترض أنه زمن الحريات والتعددية والديموقراطية، لكن تصرفات أبنائه وسمته بأنه غير ديموقراطي، فكأن الشاعرة ترصد روح المفارقة بالعنوان، فتطلق أول رصاصة على مدّعي

الديموقراطية، بأن زمنهم الذي يدّعون ديموقراطيته هو غير ديمقراطي، وبأن أسئلتها التي توجهها هي ديموقراطية تحررية لا تتماشى وطبيعة الزمن، إنها أسئلة مسكوت عنها، من قبل ذاكرة الرجل، ومسكوت عنها أمام المرأة التي تتقي شر إعلان ثورتها وتحررها، على سلطة القمع في بلادها، ولكن المرأة المفكرة التي تملك حريتها الفكرية والأدبية ستعلنها أمام الملأ على صور متعددة: شعراً وقصة وأطروحة علمية.. فتسلط الضوء على منطقة مظلمة وحالكة من التاريخ العربي، من خلال منظومة من الأسئلة، التي تتوزع على خمسة مشاهد، كل مشهد يحمل أسئلة عدة، ويعبر عن وحدة من وحدات التاريخ العربي، التي تجاهلناها كثيراً فظهرت لنا كالمارد، الذي لا نستطيع تحديد مكانه والتعامل معه بمعطيات علمية.

تبدأ الحكاية المؤلمة منذ بدايات التاريخ العربي، تقف عند قافلة القبيلة، وأهل البادية الأعراب، حيث الهودج الذي يجره الرجل، مع كامل الإلغاء لإرادتها، فكم رحلت امرأة وخلفت قلبها وروحها في المكان المرتحل عنه، لأنها باختصار لا تستطيع أن تنطق اسمها، أو اسم والدها، أو اسم من علّمها الفكر والثقافة، لأنها راسخة تحت وطأة الإرهاب الفكري والروحي، فتعيش وتموت في قارورة الإرهاب.. فكيف لها أن تتحرك وأن تُسائل التاريخ مادام نطق اسمها دونه الموت، وتذكرة عبور نحو التلاشي والعدم؟

هذه الفكرة التي بدأت بها الشاعرة نصها حول إمكانية نطق اسم المرأة، له إرث تاريخي عبر قرون، كما تؤكده الدكتورة مي نايف: «ولما كان الشيء بالشيء يذكر تذكرت ما كنت أقرؤه في كتب تاريخ الأدب العربي وهو النقيض، ففي بداية عهد النساء بالنشر كانت الكاتبات يوقعن أعمالهن بأسماء رجالية أو بالأحرف الأولى من أسمائهن خوفاً من إلصاق التهم بهن والنظر إليهن بدونية واتهام أسرهن والبدء بالتفنن في عقابهن. لقد كان من التابو ذكر اسم الأم أو الأخت، فالأسماء الشخصية تحذف وليس للكاتبة ذكر أسماء أجزاء معينة من الجسم، أو التحدث حول وظائفها كما يستعملها الرجال أو الشباب. لذلك كن يعتمدن على الكنايات والانزياحات لإيجاد كلمات

أو عبارات مهذبة وملطفة قد تصبح مع كثرة الاستعمال كالكلمات الأصلية الصريحة». (الكتابة النسائية، مقالة في دنيا "الراي"، إنترنت).

فبعد البدء بأحد أطراف المعاناة والحرمان من تابو نطق الاسم، تواصل الشاعرة إبحارها في عالم التساؤلات في وضعية مستمرة في حلكتها، واستبدادها، وموشومة بصفات دائمة ومطلقة، فهي تقطن في مدن الزواج في المتعة، والغرام بالأنياب، وما هي ظلال كلمة الأنياب التي هي صفة مقترنة بالوحوش والحيوانات المفترسة، التي تتعامل مع هذا الكيان كتفاحة حمراء شهية، يتقاسمها الوحوش، في مائدة الذباب.. وهنا دلالة لتحقير الوضعية وتعفن الموجودات وفسادها، فالذباب لا يبحث إلا عن القبح والعفن، تقول:

"هل تستطيع امرأة
في مدن الزواج بالمتعة، والطلاق بالأربع،
والغرام بالأنياب
ألا يكون لحمها تفاحة
حمراء.. في مائدة الذباب؟".

ديوان «والورود تعرف الغضب»، ص219

• جدلية الصمت والكلام:

المشهد الثاني من مشاهد ولوحات القصيدة، والحزمة الثانية من الأسئلة تقفز بها الشاعرة من زمن الأعراب إلى الزمن الحالي الذي يؤكد أن الوضع لم يتغير بعد ألف عام، فالحال قارٌّ وثابت، والعقلية الاستبدادية هي ذاتها التي تسير الأمور.

فتتساءل الشاعرة عن قضية الكتابة أم الصمت، وهل تستطيع امرأة أن تدعي الكتابة في زمن سيطرت عليه صيغة المذكر، فكل شيء وسم بالذكورة؛ السيف، والشعر والأدب، والقمر، والحب، والظلم منذ البداية مذكر، فكيف

لها أن تسكب فناجين قهرها وألمها في الورق ما دام كل شيء مذكر حولها؟ هل لها أن تعلن أنوثتها وتسجل أناتها في الورق، وكل ما هو أنثوي رقيق، يقابله ضد قوي مستبد مذكر؟ وهذه ثنائية ضدية أخرى تقابل بنية التضاد في العنوان، فتقول:

"هل تستطيع امرأة
في زمن الإحباط والكآبة
أن تدعي الكتابة
وكل شيء حولها مذكر
السيف في قاموسنا مذكر
والفكر في تاريخنا مذكر
والشعر في آدابنا مذكر".

هذا الصمت الذي استبد بالمرأة دهوراً ودهوراً لا يقترن بالمرأة العربية وحسب، بل هو صمت جدلي لصيق بمسيرة المرأة في العالم كله، لعدة قرون، وهذا ما أكدته فرجينا وولف التي نظرت في النقد النسائي، وبحثت في القضايا الأزلية التي علقت في المرأة، لم الصمت للمرأة والكلام للرجل؟ وما حكاية النساء والكتابة في عدة دراسات تنظيرية نقدية، من مثل: «الغرفة»، و«ثلاثة جنيهات»، و«النساء والكتابة»؟

فيما يلي نص يتطرق لقضية الصمت والكتابة، والذي يتقاطع مع الأفكار التي تعرض لها الأبيات السابقة وهو:

«وبدءاً من الكاتبة الأميركية تيلي أولسن، التي عرف كتابها (حالات الصمت) على نطاق واسع، وتحول إلى مصدر كلاسيكي لدراسة موضوعة «الصمت» ودلالاتها، وتواصلاً مع عمل الناقدات الأميركيات والفرنسيات، جرى تصوير صمت النساء باعتباره ميداناً لاضطهادهن، ودليلاً على إقصائهن عن مجالات الحياة العامة، وعن التجسيد كمتحدثات في النص. غير أنه آن الأوان للاعتراف،

حسب إيلين هيجز وشيلي فيشيكن، بأن «هناك تقليداً نسائياً في الكتابة بدأ في القرن التاسع عشر، يدعونا إلى إعادة قراءة نماذج معينة من الصمت والتعبير». (رضا الظاهر، غرفة فرجينا وولف، ص219).

هذا ما تعود الشاعرة وتؤكده في اللوحة الرابعة، عندما تتساءل عن الإمكان في عالم المستحيل والأقفال المصفدة، فهل بقدرة امرأة أن تتجاوز الأبواب المطروقة والمغلقة لتخرج إلى الحياة من دون حجاب العادات والتقاليد والرجعية والتخلف على عقلها؟ لتبدأ بتأسيس ثورة فكرية وتحررية من نيران مضرمة في وجه من يتلون على حسب مصالحه الذاتية، فيعدها بالحرية وهو يستلبها منها بشكل من الأشكال، فتؤكد الفكرة السابقة فكرة الكتابة، في إطار استمرارية الرجل وملكيته للكتابة:

"هل تستطيع امرأة
أن تضرم النيران في ثياب المتلون الدجال؟
وتكتب التاريخ
فالتاريخ عادة يكتبه الرجال».

(الديوان، ص222)

هذا التساؤل يذكر القارئ برواية «فوضى الحواس» للروائية الجزائرية أحلام مستغانمي عندما تقلب أطراف هذه الجدلية، وتمارس بطلتها الكتابة أمام رجل يحترف الصمت، تاركاً لها الكلام والكتابة، وتغيبه عبر ضمير الغائب في السرد، فالضمير «هو» في بدايات الرواية يوازيه بل ويتجاوزه السرد عبر ضمير الـ(أنا) حتى نهاية الرواية.

فيتضح من نص رواية «فوضى الحواس» أن الساردة أجادت التعبير عن ذاتها من خلال السرد الأنثوي بضمير الـ(أنا)، الذي أسهم في رصد انفعالاتها وأفكارها، وكل ما يدور في ذهنها، وهي بذلك تقدم شاهداً حياً ونابضاً على مقدرة المرأة في التعبير عن ذاتها، من خلال اختيار نموذج الساردة المرأة، ولا

تحتاج إلى السارد الرجل ليجيد التعبير عنها، مستندة إلى حظوته الأدبية، وعضلاته اللغوية.

وهذا بالطبع يخالف ما يذهب إليه عبدالله الغذامي في كتابه «المرأة واللغة»، الذي وضع فيه نظرة ثابتة في أن فعل الكتابة حكر على الرجل، الذي تنازل بدوره للمرأة بفعل الحكي الشفوي، لأن شهرزاد قد أتت بقصص رائعة من روائع القصص العالمي منذ ما يزيد على ألف عام، فهو يقول عن أسلوب أحلام مستغانمي التي أخذت من التعبير عن نفسها بسرد الذكورة لأنها «وجدت أن التحدث بلسان الرجل يسهل عليها الكتابة، ويساعد على السرد، ويجعلها تقول ما تعجز عن قوله كأنثى». (د.عبدالله الغذامي، «المرأة واللغة»، ص49).

والكلام الذي يذكره الغذامي عن قضية فن القول الشفاهي لدى شهرزاد يتناص مع نص الدكتورة سعاد الصباح في تناص تحويلي تعديلي عبر مساءلة شهرزاد من وحي وواقع مغاير، ومفارقة في رمزية شهرزاد المرأة التي حررت نفسها من قتل السياف الذي يصادر عالم الأنوثة عبر العلم والمعرفة، فتعلن الشاعرة رفضها لهذا الدور الذي وصمت به المرأة دهوراً طويلة، وقد آن وقت التحرر من الأغلال والعبودية، ومن السياف الذي يلاحق المرأة متى ما نظرت بعين المتلهف إلى حقوقها، في أن تحلم، وتسافر وتختار المرفأ الذي تريده، فهي تتساءل:

"هل تستطيع امرأة في هذه البلاد
ألا تكون سلعة تباع في المزاد
ولا يكون دورها
تسلية السلطان حتى مطلع الفجر..
كشهرزاد؟..
هل تستطيع امرأة مقيمة في مدن الغبار

أن تتحدى مرة واحدة سلطة شهريار".

(الديوان، ص223-222)

فشهرزاد هنا في النص ليس لها دور فاعل وإيجابي، بل هي تعلن تبعيتها للرجل، وأنها مجرد جارية، تسلي الرجل بالحكايات.. وهذه الفكرة نفسها التي تدور حولها قصيدة لأحلام مستغانمي متماهية مع كل النساء اللائي رزحن تحت القهر دهوراً في أقبية العذاب، مؤكدة رغبة حقيقية في التحرر لا من أجل اللهو والعبث، بل لأنها مؤمنة بأن لها دوراً في بناء صرح الحضارة والتقدم لا يقل أهمية عن دور الرجل، فتقول:

"لأني رفضت الدروب القصيرة
وأعلنت رغم الجميع التحدي
وأني سأمضي
لأعماق بحر دون قرار
أحطم عاجية الشهريار
أحرر من قبضته الجواري».

(أحمد دوغان، الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، ص 124)

وهذا بالطبع يتطلب من المرأة أن تشكل قوة موازية لقوة الرجل حتى تستطيع مواجهة شهريار، الرجل، الذي أخذ المرأة وسيلة للتسلية والمتعة مع إلقائها في أول مقصلة للذاكرة والحياة.

هذه الأسئلة التي تعد أسئلة جدلية، تحتاج إلى إجابة فاعلة من خلال العمل المتواصل من النساء والرجال الحاملين للواء التحرر أمثال قاسم أمين، حتى يرسخوا مفاهيم الحرية والمساواة في عالم الموجودات المتحقق، وليس من خلال الأطروحات العلمية والجامعية وحسب.

أما نص الدكتورة سعاد الصباح فإنه يطرح مجموعة من الأسئلة التي تحمل

إجابتها في ثنايا النص، وبكل شفافية ووضوح، أن الزمن ليس زمن المرأة وأن الأفق مسدود، ولا نافذة أمل لنيل حرية ومساواة بمخلوق اعتاد على اللهو والعبث بها، وقذفها بأول محرقة للذاكرة، منذ عصور الجاهلية الأولى، مروراً بليالي ألف ليلة وليلة، وحتى في زمن الحاضر زمن الإقطاع، والتغني بأمجاد الإنسان صانع الحضارة، فهي مقيدة ومكبلة، والدليل على ذلك صيغة السؤال التي تحمل بين ثناياها، الإجابة بالامتناع والرفض منذ بداية النص حتى النهاية، فيلاحظ القارئ بعض المتلازمات الضدية مثل:

"هل تستطيع امرأة تعيش في قارورة الإرهاب
أن تطلق النار
هل تستطيع امرأة في زمن الإحباط والكآبة
أن تدعي الكتابة".

وغيرها من الأسئلة المحملة بالامتناع وعدم التحقق، ستكون الإجابة عنها بالطبع هي استحالة الكينونة.

لقد تشكل النص عند الدكتورة سعاد الصباح في قصيدة «أسئلة ديموقراطية في زمن غير ديموقراطي» على فضاء من التناقضات والثنائيات الضدية، بدءاً من العنوان الذي رصد المفارقة في بنيته الضدية حتى آخر مقاطعه، ومن الثنائيات الضدية، بناء النص على التعريف والتنكير، بين المرأة والرجل، فكل ما يتعلق بالمرأة فهو نكرة، أما الرجل فهو معرفة ومدار حركته معرف، وهذا بالتأكيد يؤكد فكرة النص التي ترصد التجاهل الأزلي منذ عصور، والذي لحق بالمرأة وأحاط بها، فيكون التعريف والتنكير كالآتي:

• تنكير المرأة:

"امرأة تركب فوق هودج يجره - لا يكون لحمها تفاحة حمراء - تعبر المرفأ لأي بحر تريد ليذبحوها مثل أي نعجة - أن تتمنى حجرة صغيرة - أن

تتخطى منطق الأبواب والأقفال – نازعة – هاربة - ألا تكون سلعة تباع في المزاد..“، كل هذا التنكير والتهميش والإلغاء يقابله فضاء الرجل وعالم الرجل المعرف بين الناس، وذلك في أكثر من موضع في بناء النص.

• تعريف الرجل:

”هودج يجره الأعراب - في مائدة الذباب - كل شيء حولها مذكر السيف مذكر الفكر مذكر - الشعر في آدابنا مذكر - القمر الجميل في سمائنا مذكر - والظلم مذ نشأته مذكر مذكر - يجلس فوق رأسها السياف -يأخذوا ثأر بني مناف - تأكلها الضباع - تضرم النيران في ثياب المتلون الدجال - فالتاريخ عادة يكتبه الرجال - تتحدى مرة واحدة سلطة شهريار..“.

وجميع ما سبق يؤكد فكرة يتبناها النص، وهي أن المرأة نكرة، مجهولة، وهذا التنكير المستمر يؤدي إلى التلاشي والعدم أمام فضاء ذكوري، وأزمنة حظي بها الرجل بأدوار بطولية ديناميكية متغيرة، بينما هي تسكن في حيز الاستاتيكية، في هودج، يجره بها الأعراب، على الرغم من تعدد حلل هذا الهودج، من قصور فارهة، تقطنها كجارية، حتى زمن الإقطاع الذي يقدم المرأة كسلعة جاهزة في مزاد الرغبة، وأسواق النخاسة.

•الثنائية الضدية بين النار والظلام:

إن كان النص مبنياً على عدد من الثنائيات الضدية؛ الرجل والمرأة، الحرية والاستعباد، شهرزاد وشهريار، النيران والظلام، الظلم والعدالة، فلعل أبرز ما ورد في النص يتمحور حول قرون عديدة من الظلم والاستعباد، كانت من تبعاته انتشار مفردات القهر والظلام، يقابله ثورات تحررية تتطلب إضرام النيران في كل ما هو جامد ورجعي، ومن أهمها القيود التي كبلت خطوات المرأة في الحركة، فبالنار إشارة لبروميثيوس ذلك الإغريقي الذي حمل لواء الشعلة؛ شعلة النار التي تبدد الظلام، وتؤكد في المقابل دلالة النور، فيها ثورة من نار ونور، ونتذكر ظلال هذا الكلام في رواية الناقد الجزائري عبدالملك

مرتاض «نور ونار»، التي تدور حول الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، ومن هنا توسم النار أي عمل تحرري، وعليه فلن تكون ثورة المرأة ضد القيود بالقوة الجسدية والاستعمارية، بل ستكون من خلال نور العلم والحكمة والمنطق، الذي سيجعل من نيرانها نوراً مشرقاً في وجه الإنسانية جمعاء، رجالاً ونساء على حد سواء، وهذا لا ينفي معنى آخر ورد في النص لصيقاً بالنار، هو أن المرأة تريد إضرام النيران في ثياب المتلون الدجال حتى تتحقق ثورتها الممنهجة على العلم والتقدم، فسلاحها الكتابة والشعر، فهي تقول:

"هل تستطيع امرأة
أن تضرم النيران في ثياب المتلون الدجال؟
وتكتب التاريخ
فالتاريخ عادة يكتبه الرجال.

•••

هل تستطيع امرأة مقيمة في مدن الغبار
أن تتحدى مرة واحدة سلطة شهريار
وتكتب الشعر على دفاتر من نار؟».

وهذا ما تتطرق له الدكتورة دزيزة سقال، في تحليلها لأبيات أبي تمام، في وصفه لمعركة خاضها المعتصم، في قوله:

ضـــوء مــن النـــار، والظـلـمــاء عــاكفـة
وظـلـمــة مـن دخــان في ضحـى شحــب

فتعلق على لفظة النار: «وفي لفظة نار فعل مزدوج فهي من جهة أداة تدمير وسحق، ومن جهة ثانية قوة تصفية، لأنها تزيل الكفر وتمثل عقاب الكافر النار القرآنية – جهنم - سقر - الجحيم». (دزيزة سقال، من الصورة إلى الفضاء الشعري، قراءات بنيوية، ص19).

ومن هنا يحق لنا وضع رسم يوضح فضاء التضاد في النص، في أن الظلم والظلام سابق للنور والنار:

* الظلام: (أقبية العذاب، الظلم في نشأته مذكر، يتبعها أعمامها في الليل، رحمة الأموات...).

* النار سلاح التحرر: تخترق فكرة النار معطيات النص من أول لوحة حتى اللوحة الأخيرة، فالنار هي السلاح الذي يطلق الرصاص على التاريخ الممتد بعذابات المرأة، كما تنتقل دلالة النار إلى حقل دلالي آخر بوصفها لهباً مشتعلاً في ثياب المتلون الدجال، وتصل فكرة النار إلى ذروتها في نهاية القصيدة لتصبح رمزاً للثورة والتحرر، فعل التحقق بالكتابة المصحوب بثورة من نار، لتوضح أن ما وصلت إليه كان مصحوباً بعناء طويل ومرير.

وبعد، إن قــراءة دواوين الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح، التي تحلق عبر لغة الحلم والروعة والجمال، تتماهى مع كل الحالات الإنسانية التي تعرض لها، فإن أحبت سما معها القارئ في عوالم الحب، وإن غضبت فإنه يقف معها في مظاهراتها الشعرية ضد العنف والتطرف والقمع بأي شكل من الأشكال. قصيدة «أسئلة ديمقراطية في زمن ديمقراطي»، تشكل محوراً دلالياً كبيراً في قراءة عنوان الديوان «والورود تعرف الغضب»، ويبقى القول إن وهج المعرفة والتفنن في اللغة الشعرية، والرؤى الفلسفية، وتوهج الشعر، كلها جماليات وشمت بها قصائد الدكتورة سعاد الصباح، فكيف للذي لم يقرأ بعد من إبداعها؟!

*كاتبة وناقدة كويتية

سعاد الصباح.. رحلة الشعر والحياة

جمانة سليمان*

(سعاد الصباح.. رحلة الشعر والحياة) كتاب لعبداللطيف أرناؤوط حاول من خلاله إلقاء الضوء على أدب سعاد الصباح من خلال إيضاح قضايا جوهرية عبّرت عنها الشاعرة شعراً ونثراً، قضايا تمس حياتنا الشخصية واليومية، وقضايا تمسنا كأفراد نتعايش في مجتمع واحد.

الكتاب يقع في 322 صفحة من القطع الكبير، كان تقديمه باسم د.نعيم اليافي، فقدمه من خلال أربعة محاور؛ الأول سعاد الصباح الإنسانة، والثاني سعاد الصباح الشاعرة، والثالث عبداللطيف أرناؤوط صاحب الدراسة، أما المحور الأخير فكان عن الكتاب الذي هو صلب الموضوع الذي حدده الكاتب في خمسة فصول، بيَّن فيها قضايا النضال الاجتماعي والقومي والإنساني التي عبرت عنها الشاعرة بدءاً من قضية الحرية بما فيها حرية الحب والعاطفة والتعبير عنها بين الذكر والأنثى، وتتبع ذلك مسألة الاختيار والالتزام والاستقلال وقضية العدالة وقضية التحرير، وقضية التقدم الاجتماعي والحضاري حتى نعيش العصر، وقضية القيم وقضية الوحدة والقومية العربية ضد الاستعمار، وقضية الألم الذي يعتصر القلب والنفس ويذوي الجسد لفقد الحبيب زوجاً أو ابناً أو شهيداً.

الفصل الأول كان حول صورة المرأة في شعر سعاد الصباح، هذه التي نذرت نفسها لتحرير المرأة ورفع الحجر الاجتماعي عنها لكي تعبر عن مشاعرها، فهي مخلوق يحب ويتألم في حبه، وهي أكثر وفاء وأعمق عاطفة من الرجل، أرادت أن تنزع المرأة من القيود الاجتماعية التي فرضت عليها لتتعدى مرحلة التسلط والامتلاك، تقول:

"ويل النساء من الرجال إذا استبدوا بالنساء
يبغونهن أداة تسلية ومسألة اشتهاء
ومراوحاً في صيفهم، ومدافئاً عند الشتاء
وسوائماً تلد البنين ليشبعوا حب البقاء
ودمى تحركها أنانية الرجال كما تشاء
وتذل للرجل الإله كأنه رب السماء
ما دام يمنحها المؤونة والقلادة والكساء".

وبالمقابل فرغم دفاعها عن حقوق وكرامة وكبرياء المرأة فهي كتبت في حب المرأة للرجل وشعورها الرائع بسيادته عليها، ولكن سيادة أملاها الحب لا غطرسة الرجل وأنانيته، وهي لا تريد للمرأة أن تكون رجلاً تتخلى عن خصوصيتها في الأمومة والحنان، بل تريد أن تجعل من المرأة مناراً للحب يرقى بالإنسانية إلى آفاق من السمو والنبل والطهر لتتجاوز به كل طموحات الرجل التي لم تتعد عبر الزمان شهوة الامتلاك والسيطرة.

وفي الفصل الثاني كانت المرأة تستوفي دَينها في "قصائد حب"، تلك المجموعة الشعرية التي تعتبر محاولة لهدم الجدران الحجرية التي تفصل بين الأنثى وأنوثتها.. بين المرأة وحقها الطبيعي في أن تتنفس.. وتتكلم.. وتعيش.. فالمرأة كانت عورة في نظر الشرقي، ليس جسدها فحسب بل صوتها، لذلك كتب عليها أن تكون خرساء، وتركت للرجل أن يعزف وحده سيمفونية الحب على أوتارنا قصة، فكان شعر سعاد الصباح بمثابة الصوت الجريء الذي حطم الفيتو على المرأة في المجتمع الشرقي.

أما الفصل الثالث فهو جدلية الرجل والمرأة في "فتافيت امرأة"، ويضم هذا الديوان 81 قصيدة يتفاوت حجمها طولاً وفق نوع القصيدة.

هذه المجموعة الشعرية التي تقوم على نوعين من الإيقاع الفني؛ الأول يتمثل في القصائد الموجهة من الشاعرة إلى المتلقي، وتتضمن رأيها في تحرير المرأة والسعي لإخراجها من صمتها الطويل، وتدافع عن ذلك بأشعار متعددة دفاع

صاحب قضية، أما في النوع الثاني من الإيقاع الشعري فهي تطبق المبادئ النظرية لفلسفتها بلسان نساء مجتمعها المقموعات، وهي التي وهبت للمرأة صوتها الحبيس، لتفصح عن مشاعرها، فهي إذ تتغزل بلسان المرأة لا يعني أنها تتكلم بلسانها الشخصي أو تفصح عن تجارب ذاتية، فكان خطابها الشعري جاداً جرئياً أشبه بعزف على أوتار مشدودة.

وأما الفصل الرابع فهو النثر الفني عند سعاد الصباح، والذي بقيت بعيدة عنه حتى اندلاع أزمة الكويت وحرب الخليج، فما حل بالكويت جعلها تجند قلمها ونفسها، فأبدعت في الدفاع عن الكويت، دفاعاً يعكس وعيها، فاحتلال الكويت في نظرها لم يعد قومياً أو حدودياً كما زعم المحتل، فالشعوب تقرر مصيرها بنفسها، والمحتل قبل أن يسيء لنفسه وللكويت وللعرب جميعهم قدم خدمة كبيرة لأمريكا التي ناصرت الكويت ضد المحتل، فجاءت إلى الخليج لحماية مصالحها النفطية والاقتصادية أولاً.. و.. لتحرير الكويت عاشراً.

لقد كانت مقالات الكاتبة غنية بمضمونها تعبر عن أديبة مثقفة بعيدة الرؤية تدعو الأمة إلى أن تعيد النظر في واقعها.

*جريدة الثورة

2005/12/9م

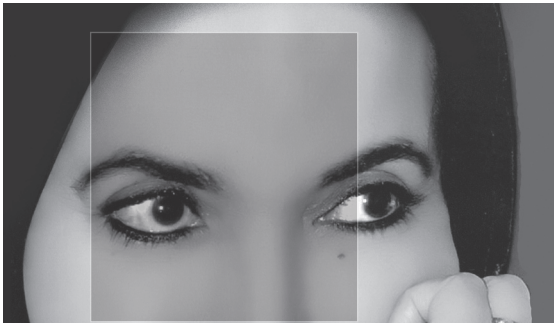

شاعرة الحب والحرية

د.تركي المغيض

إنها الشاعرة التي جدلت بضفائر شِعرها شمس الحرية..!

سعاد الصباح في عالمنا الشعري المعاصر شاعرة الحب والجمال والحرية، فهي ملهمة البسمات على شفاه الفقراء والنساء، وهي القابضة على جمر الكلمة، الفالقة لحب الحرف وحد السيف، والحاملة للواء رسالة الحرف.

لقد حملت على عاتقها مهمة طائر «الفينيق»، تحرق نفسها وتحتضن الحريق لكي يولد من جديد عالم تسوده المحبة والحرية والعدالة.

وانطلاقاً من إيمانها بالحب الذي يحمل بين جوانحه كل قيم الخير والحق والجمال والعدالة، مارست سعاد الصباح فعل «الاحتراق القرباني» من أجل المرأة العربية والدفاع عن قضاياها وحقوقها، وظلت تؤذن في الناس بالحب والحرية والديمقراطية والمساواة. وبحق كانت سعاد الصباح أغنية الفقراء وسفيرة السلام والشعر وأنشودة الحرية، تحس بوجع الأمة وما آلت إليه حالها.

سعاد الصباح شاعرة الحب والحرية لأنها إنسانة مرهفة الإحساس وسليلة دوحة شامخة، بنت فخاراً لا تسامى شواهقه، وجمعت المجد من أطرافه؛ أصالة عائلة، وعلماً ومعرفة، وشعراً وأدباً مدهشاً، وخلقاً عظيماً وتواضعاً جماً، وقلباً يمتلئ بمحبة الناس، وهمة عالية، ومسيرة من العطاء امتدت أياديها البيضاء على الثقافة والأدب في العالم العربي.

وسعاد الصباح منشغلة بقضية الحب والحرية من أجل المرأة، فهاجسها تقديم رؤية تنويوية في هذه القضية تتماشى وروح العصر، وتتلاءم مع نزعتها الإنسانية، فهي تقول في نفسها:

"غرفتي الشمس
ومن بعض أسمائي الصباح".

(فتافيت امرأة) ط10، 2002، ص119

والحب عندها نضال وكفاح من أجل تأمين الخبز، والحب للجميع دون تمييز أو تمترس وراء نزعات ضيقة:

"أنا الخليجية
التي تقاتل بأظافرها
من أجل أن يكون الخبز للجميع
والحب للجميع".

(فتافيت امرأة) ط10، 2002، ص54

لقد تبنت سعاد الصباح مشروعاً نهضوياً، وقدمت خطاباً شعرياً في الحب والحرية، قوامه بناء علاقة متكافئة بين الرجل والمرأة، مستندة في ذلك إلى معطيات العصر. ولهذا عرضت رؤاها الفكرية التنويرية في الحب والحرية بجرأة، لأنها شاعرة صاحبة رسالة تناضل من أجلها بسلاحها المحبب، ألا وهو الشعر، فشاطرت «بروميثيوس» في مهمته، إذ تسرق النار من الرجل –السيد- لأخواتها النساء، ليمتد إشعاع الحرية إلى كل النساء في الوطن العربي.

إن مفهوم الحب عند سعاد الصباح كما تعرضه في شعرها مفهوم حضاري، فهو ليس سلعة استهلاكية أو لافتة شعارية أو لاصقة استعارية للعرض أو الاستعراض، وإنما هو رؤية حضارية متكاملة للإنسان والكون والحياة دون تجاهل للغاية الفنية ولذة النص الشعري.

إن محوري الحب والحرية في شعرها يمثلان «حالة فينيقية» تنتهي بالاحتراق من أجل التجدد والانبعاث والإعلان عن مشروع جديد في ميدان النضال من أجل الحب والحرية.. وهذه حداثة في الشعر وحداثة في الرؤية لم يسبقها أحد إليها، فيما أعلم.

المنجز الشعري عند سعاد الصباح هو شعر المواقف والقضايا.. والحب والحرية من أكثر القضايا المتعلقة بالمرأة العربية في عصرنا الراهن، لذا جاءت معظم قصائدها تحمل لواءين؛ لواء المرأة ولواء العروبة، وعندما سئلت الشاعرة عن هذا التركيز، قالت: "المرأة العربية مغلوب على أمرها، والعروبة مغلوب على أمرها". وهذا التشابه في الحزن والقهر والاستلاب بين معاناة المرأة ومعاناة العروبة هو الذي جعل سعاد الصباح تضع القضية في ملف واحد في أثناء مرافعاتها الشعرية.

لقد تربعت الشاعرة سعاد الصباح على مملكة من الحب والحرية، وهي مملكة دائمة، فقد تزول كل الممالك، ولكن مملكة أسست للحب والحرية لا تزول. هذا هو شأن شعر سعاد الصباح في الحب والحرية، فهي شاعرة الحب والحرية بامتياز في عالم الشعر العربي الراهن، ومعالجتها لهذين المحورين في شعرها لا تجسد حالة فردية ذاتية، وإنما تنطق بلسان المرأة العربية التي يضعها المجتمع العربي «تحت الحراسة».

وبالرغم من التحولات التي طرأت على بنيته، فما زال المجتمع العربي يعتبر الصوت النسائي مؤامرة على «دولة الرجال» وسلطتهم. فهي تؤمن «بديموقراطية عاطفية» يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح عن الحب، الحب النبيل الذي يحترم إنسانية المرأة وأنوثتها، وينظر إليها كامرأة لها كيانها وعقلها، كما تؤمن بالحب الذي يغير كل شيء يتسم بالخوف والسلبية في قواميس الغرام، الحب الذي يرتفع فوق الأنانية والتملك.

ومن هنا نجد أن سعاد الصباح تسلحت بالشعر، ووسعت من مفهوم الحب فيه، وامتدت به إلى آفاق رحبة. فالحب عندها لا يقتصر على الجانب الوجداني والعاطفي، وإنما يشمل حب الأرض والوطن والمبادئ والقيم النبيلة مثل التسامح والعدالة والحرية، وهو عندها انتصار لقيم الجمال والخير والحق والسلام، وهو انقلاب في كيمياء الجسد ورفض شجاع لروتين الأشياء وسلطة البيولوجيا. (في البدء كانت الأنثى) ص60، 2000.

والحب عندها أيضاً أرحب من جميع الأزمنة ومن جميع الأمكنة:

"حين أكون بحالة عشق
أشعر أن العالم أضحى وطني".

(في البدء كانت الأنثى) ص39

وهو الذي يمنح الحياة لونها وطعمها ويبث الروح والحيوية في الجماد، ويمحو القبح ويواجه الشر والظلام، ويتماهى الحب عندها مع الحرية بحيث يتشكل منهما ثنائية متلازمة يتبادل كل طرف منها دور الطرف الآخر، بمعنى أن الحرية هي الحب والحب هو الحرية. هذا هو الحب الذي تؤمن به الشاعرة، الحب الكبير الذي يستوعب التاريخ والجغرافيا، ويمنح الوجود حالة ديناميكية مشبعة بالبهجة والنشوة.

وعندما تحب الشاعرة تنشد الحرية والخلاص من سجن القهر والحصار، وتبحث عن الملاذ والمأوى، وتسعى إلى الخروج من الإرث التاريخي الذي أغلق نوافذ الهواء والحرية في وجه المرأة العربية:

"أنا في حالة حب.. ليس لي منها شفاء
وأنا مقهورة في جسدي
كملايين النساء
إنني ضائعة كالسمك الضائع في عرض البحار
فمتى تنهي حصاري؟".

(فتافيت امرأة) ص22

ويتخذ الحب عند سعاد الصباح بعداً حضارياً، إذ يغدو هو والديموقراطية صنوين:

"الديمقراطية أن تقول المرأة
رأيها في الحب..
دون أن يقتلها أحد!!".

(في البدء كانت الأنثى) ص51

وبانعدام الحب تتقلص مساحة الحرية وتهيمن العبودية، وبالحب يطرد الظلم والاضطهاد:

"... سنتحداهم بكل طاقاتنا عن الحب
لأن الحب وحده..
هو الذي سيطرد جحافل البرابرة
ويوقف هجمة عصور الانحطاط".

(في البدء كانت الأنثى) ص140

الحب عند سعاد الصباح يعني التضحية من أجل الغير، والقبض على جمر الكلمة، ففي سعيها لبناء حب شامل حررت الكلمة وصدقت في تحرير المشاعر، وقدمت للمبدعين في الفكر والعمل ما لم يقدمه أحد من قبل، كما أنها جعلت من شهادات العلم والتفوق مداخل لتكريس قيم الحق والخير والعطاء التي هي أعمدة معمار الحب، فهذه القيم تتغذى من نهر الحب، الحب الذي يسمو على الأنانية والنرجسية والتقوقع حول الذات، لتصل النفس بالحب إلى حالة من التجلي تعبر فيها بسمو ونبل عن الرغبات الأنثوية الكامنة في أغوار النفس، وبهذا تستطيع المرأة أن تمارس حقها المشروع الذي لا يختلف -كما تقول- عن:

"حق الرعود في التفجر، وحق العصافير في الغناء والزقزقة
ويغدو الحب في هذه الحالة على مستوى الكون
فعندما تحب المرأة تدخل في علاقة حب مع العالم كله".

(في البدء كانت الأنثى) ص111

وانطلاقاً من دائرة الحب الواسعة التي طوقت بها نفسها يقترن الحب بالحرية، وتصرخ سعاد الصباح في وجه الظلم والقهر من أجل الحرية:

"كلما أبصرت هذا الوطن الممتد
بين القهر والقهر.. بكيت
كلما حدقت في خارطة الأمس
وفي خارطة اليوم
بكيت..".

(فتافيت امرأة) ص128

وفي إطار هذه الرؤية الشاملة للحب يصبح الحبيب عندها هو الوطن، تنتمي إليه وتدين له بالحب والولاء:

"كويت، كويت
أحبك.. كالشمس تعطين ضوءك للعالمين
أحبك كالأرض
تعطين قمحك للجائعين

•••

وزرع العروبة فيك قديم.. قديم
كهذا النخيل".

(فتافيت امرأة) ص -147 148

والحب عندها في الوقت ذاته انتماء للعرب وانشغال في آلامهم وآمالهم:

"هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب؟
إن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء، وأحزان

وآمال العرب".

(فتافيت امرأة) ص130

ومن خلال ما تقدم، نجد أن الشاعرة سعاد الصباح من أبرز الأصوات الشعرية في عصرنا الحاضر وأكثرها تألقاً وتأنقاً فنياً في قضية الحب والحرية، فهي صوت شعري متميز، يختلف عما عهدناه في الشعر النسائي.

كما تشكل ظاهرة شعرية غنية بالمضامين والدلالات في قضايا الحب والحرية، وجريئة في خطابها النسوي الذي واجهت به الكثير من العادات والتقاليد التي لا تتماشى مع منجزات العصر ومعطياته ورؤاه الجديدة، وقوضت الكثير من البنى الاجتماعية الهشة، وباحت بما لم يستطع البوح به الكثير من الشعراء والشواعر.

هي الهاربة من قصص حب ألف ليلة وليلة، ومن وصايا القبيلة في الحب والحرية، وهي الداعية إلى إيجاد «ديموقراطية عاطفية» في صورتها الإنسانية والإيجابية، يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح النبيل، ومن أجل إبراز هذه الرؤية الجديدة للحب والحرية وظفت الشاعرة سعاد الصباح لغة مدهشة انفتحت على نوافذ الحرية والتجدد، وتبنت مفهوماً شاملاً للحب يحمل بين جوانحه كل قيم الخير والحق والجمال.

سعاد الصباح.. ودّ كثيف وجرأة في الاعتراف

نفلة محمد*

في غمرة الإحساس، وفي قمة الشعور بالحاجة، عندما تُعبّر الأنثى عن أحد أسرارها المُعلنة في كلمات تقدّمها بأسلوب التورية.. تودّ أن يلتقطها قلب محبّ، قلب صديق بالدرجة الأولى، يقرأ ما وراء الكلمة وتحت السطر.. يحفر ليجد المعنى.

وفي رسالة هي الأجمل من نوعها تكتب د.سعاد الصباح بلغتها البديعة، وإحساسها الفريد، هذا الدرس على لوحة الشعر؛ في قصيدة معلّقة تحمل أوجه الحب المختلفة ومسحَة العتب الرقيق، ممزوجة بخطوط الرجاء وحكمة الطلب: كُن صديقي.

إن المرأة لا تقدّم بين يدي الرجل مطالبها إلا حين تكتوي بنار الحاجة، ربما هي رغبة ملحة لأن تُكتشف دون الإفصاح، ودون بذل السؤال؛ فإن أفصحت فهي بلغت من الحاجة حدّاً لا تستطيع احتماله.

أول الحب صداقة، مع وسع الصداقة أن تتحوّل إلى حب، ويستعصي على الحب في المقابل أن ينزل إلى درجة الصداقة.. لا من نقصٍ في الحب ولا سوء تُفضّل عليه الصداقة أحياناً، لمآرب شتى.. فمن عادة الإنسان أن يهتم بأشيائه في البداية حتى يعتادها ثم تفتر مشاعره لينصرف عنها بعدما يفقد دهشته ناحيتها!

فالحب في أوله في سن "الصداقة" يُشبه البذرة التي يتولاها الزارع بالسقي والرعاية، منتظراً في النهاية ثمارها.

وليس من العبث أن يُبدي فريدريك نيتشه رأيه في علاقة الرجل والمرأة الأزواج على وجه الخصوص: "ما يتسبب في الزيجات التعيسة ليس غياب الحب، بل غياب الصداقة..!". فها قد تقدّمت د.سعاد بخطوة ودّ كثيف،

وجرأة في الاعتراف محمودة حين قالت:

"كن صديقي.
كن صديقي.
كم جميل لو بقينا أصدقاء
إن كل امرأة تحتاج أحياناً إلى كف صديق..
وكلام طيب تسمعه..
وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات
لا إلى عاصفة من قبلات
فلماذا يا صديقي؟.
لست تهتم بأشيائي الصغيرة
ولماذا.. لست تهتم بما يرضي النساء؟".

في يدها قائمة الصداقة؛ تقرأ منها ما يفعله الأصدقاء في حال يتجاوزه المحبون، فقد تنمو رغبة المرأة بالعناية إلى درجة ترجو فيها المساندة حتى في أبسط الأشياء؛ ترنو لكلام رقيق يُشعرها بأنها أنثى فاتنة؛ وتتأمل أن يغدو الكون حولها خيمة دفءً فيها من الأمان ما لا تناله بالقبلات التي تبدو كعاصفة.. وتلكم إشارة ذكية على تسارعها الذي يوحي بأنها تأدية عرض وتهدئة.. وصف مخيف!

دعك في حيرةٍ من أمر القبل وما تجنيه وسط تنامي خوف النساء، حتى تعيد حسابات الرجال الذين لا يحيطهم علم بأن المرأة تفتقر للحنان، لعلامات الرعاية والاهتمام.. لشدة ما ترجو أن تخطر الأشياء الصغيرات على بال الرجل ويفعلها من تلقاء قلبه؛ أن يُشغله رضاها أينما وُجد؛ ولو كان في أتفه الأشياء في نظَرِه وأغلاها عند امرأته..! تقول:

"كن صديقي.
إنني أحتاج أحياناً لأن أمشي على العشب معك..

وأنا أحتاج أحياناً لأن أقرأ ديواناً من الشعر معك..
وأنا كامرأة يسعدني أن أسمعك..
فلماذا أيها الشرقي تهتم بشكلي؟..
ولماذا تبصر الكحل بعيني..
ولا تبصر عقلي؟.
إنني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار.
فلماذا لا ترى في معصمي إلا السوار؟.
ولماذا فيك شيء من بقايا شهريار؟".

هي أمور ربما لا تستقطب شغف الرجل، ولكنها تستحوذ على لبّ المرأة.. تبدأ د.سعاد بعرض شريط المواقف، وتضع إصبعها على لقطات مختارة تريد أن تقول كلمتها فيها، أن تُلقي في سمع الآخر جزءاً من أمنياتها الصغيرة كالمشي في الحدائق، وقراءة الدواوين.. هاجس الشراكة يكبُر رغم ضموره واضمحلاله في الواقع الملموس، فإذا تحقّق صارت نتيجته مُربحة، يطمع لها كل الرجال، تتجلى في منح المرأة له سمعها، إنصاتها، الشيء الذي يشكو من قلّته الرجال!

وفي محيط الأخذ والعطاء تظهر الاعتراضات، لترسو سفينة الكلام في ميناء "الرجل الشرقي" بالتحديد، ذاك الذي يُلفته الكحل في العين، ويأسره منظر الأنثى، هندامها، وظاهرها لا باطنها أو عقلها. وبنبرة يغلّفها الاحتياج تعرِض عليه مسألتها التي حملتها طول السفر وأحسنت فيها المستقرّ: أرجوك الحوار.. فأنت تنظر لزينتي وتتمسّك بغرورك!

لم تجلب الشاعرة هذه اللقطات من قبيل الحديث العابر، بل نتيجة مزاوجتها بين ما تريده وما يريده الرجل الذي تصف، وبعد تعجّبها مما يفعله! تقول:

"كن صديقي.
ليس في الأمر انتقاص للرجولة

غير أن الرجل الشرقي لا يرضى بدورٍ
غير أدوار البطولة..
فلماذا تخلط الأشياء خلطاً ساذجاً؟.
ولماذا تدعي العشق وما أنت العشيق..
إن كل امرأةٍ في الأرض تحتاج إلى صوت ذكيٍ..
وعميق.
وإلى النوم على صدر بيانو أو كتاب..
فلماذا تهمل البعد الثقافي..
وتعنى بتفاصيل الثياب؟".

ولأن الرجل تعنيه كرامته، كان الاطمئنان قادماً في صيغة قول خبريّ: "ليس في الأمر انتقاص للرجولة".

فكان هذا الرد على لقمة غير سائغة يُقدّمها الشرقيّ على طبقٍ من تكبّر، لتجترّ المرأة مرارة التبرير غير المبرّر إزاء رفضه الصداقة؛ حيث إن الرجل الشرقي ذو غطرسة بالغة؛ وأنانية مفرطة، لا يرضى إلا بالحصول على ما يشتهي، ويخلط قصداً بين العديد من الأمور تماشياً مع رغباته؛ ويدّعي العشق، وهو أصلاً غير عشيق! وإلا فكيف يعتنق العشق من يهتم بالقشور ويُهمل العمق وهو أصل الأمور؟!

قد فاته أن السبيل نحو المرأة ذاك الصوت الخفيّ المُختبئ وراء ألفاظها؛ ومرَق من ذهنه كيف أن اللحن والقصص والكلمات ترسم خارطة إحساسها. لذا باء بخسرانٍ عظيم لمّا انتحى إلى تفاصيلها الخارجة، البادية على جسدها والثياب، وآل مغيب فهمه عن أوطان معرفتها وجداول ثقافتها! تقول:

"كن صديقي.
أنا لا أطلب أن تعشقني العشق الكبيرا..
لا ولا أطلب أن تبتاع لي يختاً..

وتهديني قصورا..
لا ولا أطلب أن تمطرني عطراً فرنسياً..
وتعطيني القمر
هذه الأشياء لا تسعدني..
فاهتماماتي صغيرة
وهواياتي صغيرة
وطموحي.. هو أن أمشي ساعاتٍ.. وساعاتٍ معكْ.
تحت موسيقا المطر..
وطموحي، هو أن أسمع في الهاتف صوتكْ..
عندما يسكنني الحزن...
ويبكيني الضجر".

وبعد إياب إلى هذا الكيان، في عملية بحث سريعة عن مُناه، يتشكّل الجواب: ليس العشق الجمّ طلبه، وليست اليخوت والقصور والعطور والأقمار.. متواضعة اهتماماتها وبسيطة؛ يختصرها صوت يتغلغل سمعها لحظة الأكدار، المستدرّة حزنها، الجالبة دمعها.. والمشي والرقص برفقتها ساعة الفرح والمطر، تبدو تلك الأمنيات لروحٍ سئمت لغة الماديات وابتغت إشباع الروح الأسمى من كل مظاهر الترف، تقول:

"كن صديقي.
فأنا محتاجة جداً لميناء سلام
وأنا متعبة من قصص العشق، وأخبار الغرام
وأنا متعبة من ذلك العصر الذي
يعتبر المرأة تمثال رخام.
فتكلم حين تلقاني...
لماذا الرجل الشرقي ينسى،

حين يلقى المرأة، نصف الكلام؟.
ولماذا لا يرى فيها سوى قطعة حلوى..
وزغاليل حمام..
ولماذا يقطف التفاح من أشجارها؟..
ثم ينام".

تنشُد الروح حلمها، ليس إلا ميناء سلام.. بعدما أعيتها تفاصيل الزوال في قصص العشق والغرام؛ وبعدما أوجعها سوء الاعتبار من كون المرأة أشبه بجدار؛ تمثال في عصرٍ حجري باختصار! مهلاً: إن حنجرة الروح نطقت: أيها الشرقي تكلّم، يقتل نسيانك أروع الكلام! ولكن جوارحك أسيرة شهوتك.. ثم يُغريها الانصراف!

لا شيء أوضح وأبلغ من بوح يتخلله نداء، يعلو ويعلو حتى القمة، ترتفع حدّته لتصل الرجل، لتغيّر قاعدة اعتقاده؛ لتزيل الغبش عن نظره، لتعالج قصره، وتمحو جهل تفسيره، بل إن هذا الشعر مصباح مُنير مُهدى إلى رجل غابر ما زالت الحياة تشهد وجوده؛ تُلقي الضوء عليه لتنزع شعرَة السوءِ منه في سبيل صداقة صورتها أرسخ من حب لا يدوم، أو تقضي عليه الأيام.. بل دعوة لعلاقة يتبيّن من مظاهرها عفوية المشاعر، ورقّتها ودوامها ولو باليسير من الوسائل التي لا يدرك تأثيرها الرجال؛ ولا سيما أن ميشيل دي مونتين يؤكد: "إذا كان يوجد شيء اسمه زواج جيد، فالسبب فيه أن فيه من الصداقة أكثر مما فيه من الحب".

*كاتبة كويتية

امرأة بلا سواحل

حسين محي الدين سباهي*

المرأة هي الضوء الذي يكشف جمال العالم، ويزرع البسمة على شفاهه. تأتي سعاد الصباح إلى عالم الشعر من زاوية المرأة الشامخة الطافحة بالكبرياء، الرافضة للتقاليد القبلية ولتفكير الرجل (الأناني) الذي يراها جارية في بلاط حبه؛ تطرب لفرحه وتأسى لشجونه، ليست سوى قطعة أثاث موجودة داخل منزله.. في زمن الحريات ودعاة التحرير.

تأتي سعاد الصباح إلى الشعر في ديوانها (امرأة بلا سواحل) الصادر عن دارها للنشر والتوزيع بغلالة المرأة المجبولة بالتغيير والإبداع، والباحثة عن فن للكتابة يجسد ما يعتمل في داخلها، ويترجم قلقها الذي لا يعرف الاستكانة، ولا يخضع، الرافض لطقوس القبيلة المصطنعة، ودون السعي وراء هاجس تفجير المفردات، والغوص في خضم غموضها.. بل تدأب إلى شيء واحد، هو الشعر الذي لا يعترف بتنظيرات وماهيات الحداثة المزيفة التي توسع الهوة بين فن الشعر المقدس والجمهور.

قصائد تقتحم أسوار الاستثناء لتخرجه تباريح أنثوية تاركة بصمات، وكأنها ترسم لوحة تصور ذلك الصراع بين القمر والوحش في قصائد رمادية تكشف نزعة القتل المهيمنة على عقل الرجل (الاستعماري)، والتي تعتبر البرهان الوحيد على ذكورته.

إنها (امرأة بلا سواحل)، لكنها بحر هائج بين مد وجزر ليس له نهاية، يرغي ويهيج، يرتفع ويهدأ، يلاعب الريح يميناً وشمالاً، وتأخذه إلى جميع الاتجاهات، إلا أنه يبقى معلنا الحرب، ليصنع الحب بغير تلك المقاييس الشائعة بين القبائل وبلا اطمئنان إلى من حلل هدر دمها، لا لشيء إلا لأنها أبت إلا تكون ذاتها، لا ذوات الغير، تقول:

"يا سيدي
مشاعري نحوك، بحر ما له سواحل..
وموقفي في الحب.. لا تقبله القبائل..
يا سيدي: أنت الذي أريد
لا ما تريد تغلب ووائل
أنت الذي أحبه
ولا يهم مطلقاً إن حللوا سفك دمي
واعتبروني امرأة
خارجة عن سنة الأوائل".

سعاد الصباح ليست شاعرة اللحظة، بل الكينونة، عندما تنشد تقف بالأعالي ساخرة بكل هاوية، حقاً إنها المرأة العربية التي لا تعرف الهوان ولا تتقن الاستسلام، على الرغم من العوامل النفسية التي تؤطر مسألة الخضوع الأنثوية، فالوقت الراهن هو زمن الحريات، عهد الخروج من المخابئ السرية، من عتم الليل إلى وضح النهار، لترى كل نساء العالم، بنظرة مختلفة لا يشاطرها أحد في صنعها، نابعة من عمق تفكيرها وصدق معاناتها وطموحاتها، لأنها اليد الأجدر في تلمس الجرح، ولأنها تدرك كنه خفاياها الداخلية.

المرأة هي الشمس التي تسطع على العالم وتكشف سحره وروعته، وهي الابتسامة البادية على الشفاه، وهي إكسير الحياة الذي يعطي العالم ذلك النسغ، لتبدو الأشياء معطرة بدفء من العطف والحنان، لعلها تبدو أقل جفافاً، لتمكننا من تنفس الصعداء وشق طريق الحياة، إلا أن المرأة - جمال العالم هي شيء، وما يظهره الواقع شيء آخر تماماً، إنه يحبط ذلك العنفوان الوجودي باقتناص الطموح الإنساني، العاشق للحياة، والذي تثقله نظم حولته إلى آلة زمن تدور بتحريك زر، وفق نظام تكنولوجي هذا التقهقر أمام الواقع الذي يحدو المرء لمجابهته بمزيد من العرق والجهد، والذي حول الهواء الطلق إلى مادة تخضع لقوانين التجار، وينتظمها العرض والطلب، ويحتاج

المرء للحصول عليها إلى بذل جهد غير عادي، وهذا ما يتعارض مع الطبيعة البشرية ونهجها السامي، وكأن حق الحياة مشروط بإجراءات رسمية لا بد منها، أو أن الحياة تبدو مستحيلة في مثل هذه الأمصار، حتى غدت لا توصف إلا بما قالته الشاعرة في هذه الكلمات:

"وما الذي نفعل في بلاد؟
يصطف فيها الناس بالطابور
كي يستنشقوا الهواء!"..

المرأة، بشكل عام، بركان مستعر مجبول بالعواطف المتوهجة، لكن سرعان ما يأسره السواد، كتلة يغزوها الاحمرار، تكبر وتتآكل، لتكشف النقاب عما في داخلها من خصوصية عالمها وملامحه الإنسانية، بمعزل عن الأشواك التي تعترضها، رغم أن الطريق إليها ليس معثراً ولا وعراً إن نهج من يرحل إليه السبيل السوي وأحسن فك رموز خافقها السلسلة، وإن كان لدبلوماسيته تباريح مجنحة يستطيع أن يغزو بها القلب ويأسر نجوميتها البعيدة، عازفاً على أوتاره المتماوجة، سابراً أغواره التي لا تعرف الحلول المتوسطة، فالمرأة التي كانت مجرد قطعة أثاث في بيت الرجل أو عقار ضمن أملاكه، في غابر العصور، أو إحدى جواريه، آن لها أن تثأر لنفسها، وتحد من هذه الإهانة، لتصبح امرأة لها مشاعرها الإنسانية التي يحسها الآخرون بقدر ما تحسهم هي.

إنها نصف المجتمع الجميل، وهي نسغ الحياة والعاطفة التي لا تقف عند حد، وإن استيعابها وإدراكها لحقيقة ما هي عليه، ولطبيعة وجودها، يحتمان على الرجل أن يرتفع ويسمو إلى ما في عواطفها من الرفعة، ومن عالم إنساني جميل. أما أن يبقى جاهلياً متزمتاً على الرغم من تعرضه لتيار الحضارة وتراث المدن في الحرية والإنسانية، فهذه المسألة تعني أن يكون مرفوضاً كل الرفض من المرأة - المخلوق البشري الجميل المتحدي لكل أنظمة الرق

والاستعباد، المتمسك بأزهار الذات النابتة في جذوة الحب السامي، والتابع لتجلياته لا لعالم مليء بالتهديد والوعيد، تقول:

"أنا امرأة من فضاء بعيد
ونجم بعيد
فلا بالوعود ألين
ولا بالوعيد
أنا لست أنثاك يا سيدي
فنحن نقيضان في كل شيء
ونحن غريبان في كل شيء
فماذا الذي تريد".

يتعرض معظم الشعراء لموجات نقدية، تطيح بنتاجهم هدماً وإساءة إلى طعنهم في الصميم، غير مكترثة بما تخلفه من نتائج، وغير مستندة إلى شيء من الموضوعية والمنطقية ليكون لهؤلاء قدر من الاحترام والتبجيل، وليكون لنقدهم أرضية تستند إلى العلمية لتقنع القارئ.

هذه الحملات، الموضوعية حيناً، والعلمية الهادفة وغير المنظمة أحياناً أخرى، غالباً ما تجعل الإحباط يسيطر على الشاعر، وتحد من غزارة إنتاجه من جراء هذه الحالة التي يصاب بها، والتي تبعده إلى أجل عن الكتابة، وكأنها بلا جدوى ولا فائدة، إلا أن البعض يبدون أسمى من هذه الحملات وأعلى سوية من أولئك النقاد المأجورين لمجرد الكتابة وشن مثل هذه الحملات باندفاع ورغبة زائدين وثقة عمياء، وكأنهم في ساح معركة طاحنة يبتغون إحراز النصر، بزجّ كل ما لديهم من ذخيرة كتابية ووهج ابداعي. وسعاد الصباح واحدة من هؤلاء الذين يجعلون من هذه الغارات الكتابية حافزاً للخلق والإبداع الاستثنائي، المكلل بصدق المعاناة، وعمق التجربة، فيأتي الرد على الهجوم مساحات إبداعية مشرقة تدحض كيد الزاعمين وتجنيهم، تقول:

"سيظلون ورائي
بالبواريد ورائي
والسكاكين ورائي
والمجلات الرخيصات.. ورائي
فأنا أعرف ما عقدتهم
وأنا أعرف ما موقفهم.. من كتابات النساء
غير أني ما تعودت بأن أنظر..
يوماً إلى الوراء.
فأنا أعرف دربي جيداً..
والصعاليك على كثرتهم لن يطالوا أبداً كعب حذائي..
لن ينالوا شعرة واحدة من كبريائي..
فقد علمني الشعر، بأن أمشي
ورأسي في السماء..".

في شعر سعاد الصباح جلاء ووضوح عميقان بمنأى عن السطحية، ومعانٍ تجسدها مفردات مألوفة تعطي النص أبعاداً ومعاني قشيبة، ولغة سلسة على امتناع، وقوية رصينة على سهولة ويسر، وكأنها تنهل من معين لا ينضب، فيتدفق الكلام رقيقاً مألوفاً لا يخلو من عنصر المفاجأة.

شاعرة مخضبة بهمِّ الكتابة، قادمة عبر المدى من عبق زهر الخزامى المتيم بعشق الصحراء العربية المترامية الآفاق التي تضفي على الجوانح أجمل الصور وتسكبها على عالم الشعر، زجاجة عطر تعانق الأرواح.

سعاد الصباح شاعرة تعشق الحرية وتتغنى بها بلا منازع، مع المرأة في التخلص من الأغلال الذكورية التي ترسف بها سعياً إلى بلورة آدميتها، التي يستمد منها العالم نصفه المتوازن الجميل، مع الصحراء التي تواجه عصر الجمود والانغلاق، والمتحدية لكل الطغاة وجهاً لوجه لبزوغ فجر الإنسانية المتوج بحرارة الحب وعنفوان الثورة:

"أتحدى..
كل من يحترفون السلب.. والنهب
ومن خانوا تراث الصحراء
أتحداهم بشعري
ونثري
وجراحي
وانفجارات دمائي
أتحدى ألف فرعون على الأرض
وأنضم لحزب الفقراء".

يضم الكتاب جملة من التقنيات الفنية التي تبرز عنصراً واضحاً في معظم المقطوعات الشعرية بإيحاءاتها وإلماحاتها الفنية، كما يتميز التشكيل الزماني والمكاني الذي وظفته الشاعرة لخدمة الإبداع والحرية، حيث يحمل ومضات شعرية تنطوي على الكثير من الدفقات الشعورية الدافئة التي تبرز في أي مكان وأي زمان. إنه الفيض والينبوع الذي لا تحده قاعدة أو قانون سوى قانون الإبداع والخلق، فسعاد الصباح أعطت وما زالت تزداد عطاء وإبداعاً وتألقاً، والتي تعد من بين أهم الشعراء الكويتيين.

*موقع صحيفة الفرات - دير الزور
الثلاثاء 2007/2/13

عبدالله المبارك في فكر سعاد الصباح

علي المسعودي*

كنت أعدّ لأبحث عن "عبدالله المبارك" في شعر سعاد الصباح، فوجدت حضوره في نفسها وحياتها أوسع بكثير من مساحة الشعر، فهو مرسوم على كل تفاصيلها وكل تاريخها..

إذا كلّمتها عن السياسة قالت: عبدالله المبارك..

وإذا حدّثتها عن الحب قالت: عبدالله المبارك..

وإذا فتحت لها أبواب العروبة همست: عبدالله المبارك، وإن ذكرت لها التضحية سمعتها تقول: عبدالله المبارك، ولو أشرت إلى الحكمة والحكم وجهتك إلى عبدالله المبارك..

تسألها: ماذا عن شعرك؟ تقول: أخذت أفكاري من أبي مبارك.

تبادرها: وماذا عن شعورك؟ تجيب: ازدهر ربيعه بمطر عبدالله المبارك.

ماذا عن دراستك؟ تؤكد: الفضل فيها يعود إلى أبي مبارك.

صداقاتك؟

رحلاتك؟

أولادك؟

أنت؟

هم؟

كل ذلك: عبدالله المبارك.

فكأن سعاد كانت كالقمر الذي يدور حول الأرض؛ هي القمر بجلائه وتجلياته وجماله، وهو الأرض بكل عطاءاتها وحنانها.

بينهما حالة تجاذب وانجذاب أبدية، لا يستطيع القمر الخروج من مدار الأرض، ولن تكون الأرض أرضاً جميلة بلا قمر.

لذلك لم يكن عبدالله المبارك منحصراً محدوداً في الشعر، بل كان ممتداً في الفكر كله كمنهج حياة وكإيمان، وكامتنان.

من المثير للعجب أن ذلك الرجل قرر اعتزال الحياة السياسية وترك الإعلام، في الوقت الذي تغلغل في فكر الشاعرة الأديبة، فحضر إلى الحياة الاجتماعية والفكرية والشعرية والسياسية من خلالها كل هذا الحضور.

وبعد حياة حافلة بالتنقلات والتحولات جاء دور الوفاء بعد الرحيل.

الوفاء.. الحميم، خصلة المرأة العربية الأصيلة.

لقد اشتهرت نساء عربيات شاعرات بالرثاء.. حتى قال مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ الأدب): "إن الرثاء هو عمود شعر النساء"، فكان خلود رثاء الأخوّة في قصائد الخنساء ومراثيها في شقيقها صخر:

أعيني جـودا ولا تجمـدا — ألا تبكـيان لصخـر النـدى
ألا تبكيان الجريء الجميل — ألا تبكـيان الفتـى السـيدا

وفي رثاء الزوج اشتهرت أبيات جليلة بنت مرة في زوجها القتيل كليب:

يا قتيلاً قـوّض الدهـر به — سـقف بيتـيّ جميعاً من علِ
خصـني قتل كليب بلظـى — مـن ورائـي ولظى من أسفلي
ليس من يبكي ليومين كمن — إنـمـا يبـكي ليـوم ينجـلـي

****

لكن نتاج سعاد الصباح الشعري والإنساني والفكري أخذ شكل الوفاء أكثر من شكل الرثاء، فكانت دوماً تخاطبه كواقع وكوجود وكحضور شاخصاً أمامها بهيئته وبتاريخه، رغم أنه خطاب عاطفي واع ومدرك لحجم الغياب في الوقت ذاته، وليس من قبيل الاحتجاج على الفقد. فلم يتضح من كل ما كتبت أنها ترفض هذا الغياب أو تحتج على المقادير، بل إنها تقبل ما حدث

بنفس راضية، وفي الوقت ذاته تعيد تشكيل الحضور بشكل آخر، فإنجازاتها امتداد لحضوره، وأولادها استمرار لهيبته، وذكرياتها إعادة تشكيل واقع فات لواقع سيأتي..

هكذا تعيد سعاد الصباح أحداث الوفاء التي اشتهرت بها المرأة العربية، فتستحضر على سطح الذاكرة بعض ما ذكره ابن الجوزي في كتابه أخبار النساء، ومن ذلك قول الأصمعي: رأيت في البادية أعرابية لا تتكلم، فقلت: أخرساء هي؟ فقيل لي: لا، ولكن زوجها كان معجباً بنغمتها فتوفي، فآلت ألا تتكلم بعده أبداً.

وقول الأصمعي: خرج سليمان بن عبدالملك ومعه سليمان بن المهلب ابن أبي صفرة من دمشق متنزهين، فمرّا بالجبّانة، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي، فرفعت البرقع عن وجهها فكأنها غمامةٌ جلت شمساً، فوقفا متعجبين ينظران إليها، فقال لها ابن المهلب: يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت إلى القبر، وقالت:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ... بملحود هذا القـــبر يا فتَيَان
وإني لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه وهو يراني

قال الأصمعي: فانصرفنا ونحن متعجبان!

والعجب الأكثر هو في صنيع قلب سعاد الصباح وانهماراته الصيفية والشتائية ببوح حار للزوج والحبيب والصديق الفقيد.

لأن التلاقي بين (سعاد وعبدالله) كان تلاقي عواطف وتلاقح أفكار أنبت هذه العلاقة النادرة التي تثير الإعجاب والفخر.

وكم هو رائع أن تغيّر سعاد الصباح الصورة النمطية في الشعر، والتي تقوم جماليات شعر الغزل فيها على التغزل بحبيب ليس هو الزوج لتثبت أن الحب للزوج والتغزل به وإكباره في النفس والقلب يعطي بعداً أكثر جمالاً وجلالاً ونبلاً للكلمات، وهي تسميه: "القديس الذي علمني أبجدية الحب

من الألف إلى الياء".. وتنشد:

رسمني كقوس قزح
بين الأرض والسماء
وعلمني لغة الشجر
ولغة المطر
ولغة البحر الزرقاء

•••

في عام 1960 ارتبطت الشيخة الصغيرة بالشيخ الكبير.

مثل كل مفاجآت الحب، قرأ اسمها من بين أسماء الطالبات الفائقات، فاختارها قلبه على الفور، وقبلت هي فوراً بهذا الفارس الذي جاء يخطفها من حضن الأب، إلى جواره كزوج وحبيب ومعلم وأب وصديق.

وقد تعددت أشكال الخطاب الشعري والنثري لسعاد الصباح تجاه عبدالله المبارك..

فهو مرة "المعلم" الذي يأخذ قداسة المعلمين الحكماء..

وهو مرة "الصديق" الذي يسمع ويستوعب ويناقش..

وهو أحياناً الأب الذي يداعب طفلته ويعرف جنون أعاصيرها..

وهو..

وهو..

وهو..

ما أكثره وما أوسعه وما أرحبه في قلبها، وفي ذاكرتها، وفي مساحة الجغرافيا والتاريخ عندها!

قالت له شعراً:

مُرْ تجدني.. أجعل الليل
إذا ما شئت فجرا
والخريف الجهم نيساناً

وألواناً وبشرى
يا حبيبي لا تسل ما لون حبي.. أنت أدرى!

وفي سؤال صحفي طرح عليها عمن تقدموا لها يطلبون يدها للزواج بعد وفاة عبدالله مبارك، أجابت "لا أحد يجرؤ على ذلك".

تقول نثراً:

حين تزوجت ابن عمي وحبيبي.. ومعلمي الشيخ عبدالله مبارك الصباح كنت في الأول الثانوي، وجدت رجلاً مثالياً لا يمكنني أن أصفه، وقف إلى جانبي منذ اليوم الأول، وتنازل عن امتيازاته التاريخية، ومعروف أنه رأس العائلة وعمها جميعاً. دفعني إلى ملاعب الشمس كي أغرف من الثقافة والعلم ولكي أزداد علماً وفكراً، هذا الرجل العظيم سار معي كل هذا الطريق الطويل، وكان فخوراً بأنني أتعلم..
كان هو سندي والكتف الرحيم الذي أرتاح عليه عندما تعصف بي الرياح.
وتضيف: وإذا كنت حققت شيئاً في حياتي العملية والأدبية فالفضل الأول يعود إلى عبدالله المبارك. كانت وصيته لأولاده أن يستثمروا أنفسهم بالعلم والفكر وخدمة بلدهم.

وتقول:

"كان يقول: إن النفط لوّث بعض أفكارنا.. وكثير من قصائدي وكتاباتي هي من وحي أفكاره وتعليقاته".

سعاد الصباح هي حالة انبهار قصوى بالزوج، وقناعة تامة به كشريك حياة، ليس في الأمر ادّعاء إعلامي، ولا بهرجة أدبية.. فهذا الإصرار في القول، والاستمرار في التعبير والشعور الجارف بأشكاله وإشكالاته، يثبت ويؤكد ما

تذهب إليه، ويحشد كل أحاسيسها لكي تكون الكلمات معبأة بها صدقاً لا حدّ لنقائه وصفائه.

أما قصيدتها (آخر السيوف) التي تكاد تكون رثائية جيل، فهي علامة فارقة في مسيرتها الشعرية من حيث إحساسها ودفقها والسبك والحبك واللفظ والصور المتتابعة المتزاحمة التي تحكي مرارة فـقد امرأة شامخة لجبلها الذي جبلت عليه.

••

في القصيدة تداخلت أحاسيس الوطن بأحاسيس الحبيب، وشجون الأمّة بشؤون الزوجة، فبلغت غاية الإحساس وأقصى الوجع وذروة الألم وسنام الحزن، وما دلالة آخر السيوف إلا ما تعنيه آخر جولات الفرسان في الحرب، فالسيف الأخير لا يكون بعده إلا إسدال الستارة على كل الجروح.

السيف الأخير سيلتصق باليد التي تحمله معجوناً بالدم.. والإصرار.

ها أنت ترجع مثل سيف متعب لتنام في قلـب الكويت أخـيرا
يا أيهـا النسـر المضرج بالأسـى كم كنت في الزمن الرديء صبورا
كسرتك أنباء الكويت ومن رأى جـبـلاً بكل شموخـه مقهــورا

•••

صعب على الأحرار أن يستسلموا قــدر الكبير بأن يظـل كبــيرا

كانت تلك القصيدة الأجمل والأوجع التي كتبتها عقب يوم الفقد الذي لا ينسى؛ يوم 15 يونيو 1991.

مثلما أعادت سيرة الشوق أعادت كتابة مسيرة الرجولة والبطولة عبر كتابها (صقر الخليج) الذي تناول رحلة رفيق الدرب ومسؤولياته الكبيرة وتضحياته العظيمة.

واستمراراً للوفاء أعدّت كتابها الأهم عن الشيخ مبارك الكبير مؤسس الكويت الحديثة، وكان الإهداء كما نتوقع تماماً:

(إلى أسرتي الصغيرة..
إلى روح زوجي الشيخ عبدالله المبارك
إلى أولادي محمد ومبارك وأمنية والشيماء..
إلى أحفادي وحفيداتي
وإلى أسرتي الكبيرة أهل الكويت..
صفحات تحكي عظمة قائد وشموخ شعب..).

وكان الكتاب القيّم الذي يحكي التاريخ وسيحكيه التاريخ.

أما الصفحات الأهم والأروع والأمتع فتلك التي حواها كتابها الأميز والأشفّ (رسائل من الزمن الجميل) في نصوص صدرت للمرة الأولى عام 2006.

تلك الرسائل الشعرية ذات النمط الروائي والمطر العاطفي بصياغة البوح الحميم.. بروح أديبة عاشقة، كأنها حمامة ترفرف فوق غمامة؛ الحمامة سعاد.. والغمامة عبدالله.

تفتتح الكتاب بالانهمار الحار:

(يوم طلبني الشيخ عبدالله المبارك للزواج عام 1959 كان الطلب بمثابة زلزال قوي هز أعماقي، لم أصحُ منه إلا بعد وقت طويلٍ.
كان بالنسبة لصبية صغيرة لا تزال تلبس المريول المدرسي بطلاً من أبطال الروايات التي كنت أقرأها.
وفي مرحلة المراهقة ما أكثر الأبطال الذين حلمنا بهم، وتمنينا أن يخطفونا ذات يوم على حصان أبيض، ويغمرونا بحبهم وحنانهم وكرمهم وفروسيتهم.
وعندما طرق الباب عرفت أن روايات الطفولة صارت واقعاً).

تكمل:

(لم يخبئني عبدالله المبارك خلف الستائر، ولم يحبسني في قارورة.. وإنما أدخلني إلى مجلسه، وشجعني على المشاركة في كل الحوارات..

ومن أهم أفضال عبدالله المبارك علي أنه صنعني فكرياً وثقافياً عندما فتح أمامي الضوء الأخضر لأواصل تعليمي..).

وتخلص إلى القول:

(قليلون هم الرجال الذين يضعون نساءهم على أكتافهم.. ويصعدون بهن إلى قمة الجبل في هذا الوطن العربي. وأشهد أن عبدالله المبارك حملني على أهدابه وعلى أكتافه حتى أوصلني وأولادي إلى شاطئ السلامة).

علّمها القومية منذ اللحظة التي رفع فيها شعار: الكويت بلاد العرب.. فمنح حق الإقامة لكل عربي على أرض الكويت.

وعلمها الحب منذ أن رعاها بحنان قلبه.

وعلمها الحرية منذ أن منحها حق المشاركة، فهي أول امرأة تحصل على حقها السياسي غير منقوص.

وقد كتبت إهداء كتابها بهذا الشكل:

(عبدالله المبارك.. زوجي
ومعلمي.. وحبيبي..
وصديق الزمن الجميل).

وكانت أولى رسائلها:

(يا أكثر من حبيبي..
إنه الوضوء بمياه ضوئك..).

وفي الرسالة رقم 39:

(عبدالله يا أحلى الأسماء..

ترحل وتقفل الباب على زمن رائع عشته معك..
من الزمن الكويتي إلى الزمن اللبناني
إلى الزمن المصري.. إلى الزمن السويسري
إلى الزمن الإنجليزي
أشعر أنني تعبت وأن الوقود في سفينتي بدأ ينفد)..

عندها تعلن أنها تقفل باب الزمن حيث خبأت أجمل أيام عمرها، وحيث دفنت أثمن كنوزها.

****

وفي التجربة الأدبية لسعاد الصباح الممتدة التي أقلعت رحلتها الأولى في ديوانها الأول "من عمري" عام 1963، وكانت استراحتها الأخيرة "رسائل من الزمن الجميل".. هناك درس أخلاقي في الشعر. فقد اعتدنا من أهل القصائد شعراء وشاعرات أن يكتبوا عن أحبة لهم لا نعرفهم، بل نجهل أسماءهم وأشكالهم، فهم ليسوا أزواجاً ولا زوجات، إذ إن تجربة الشعر رسّخت في أذهاننا أن الزوجة لا تصلح أن تكون حبيبة، ولا الزوج يستحق أن تدبج فيه قصائد الغزل، وذلك ما يشبه الهروب الشعري بالإحساس إلى الآخر البعيد. وتجارب قليلة صرحت بشخص الحبيب.. القريب؛ أشهرها غادة السمان التي نشرت رسائل غسان كنفاني إليها، وهناك فرق كبير بين رسائل سعاد إلى زوجها وحبيبها عبدالله المبارك، ورسائل كنفاني إلى غادة.

فلا يخفى على لبيب تلك النرجسية وحب الذات التي دفعت غادة إلى النشر، وما تنطوي عليه من خيانات أسرية، وهو عكس حال سعاد الصباح في رسائل التفاني والإخلاص والعفة والوفاء وإنكار الذات، فهل نصدق أن الحبيب عبدالله المبارك لم يكتب أي رسالة إلى الزوجة الشابة الجميلة الحبيبة؟ لكن أم مبارك لا تتاجر بمشاعر الزوج الحبيب.

هي لم تنشر رسائلها إليه إلا بعد وفاته، وذلك منتهى الإخلاص والصدق في مشاعر لا تريد فيها ردة فعل من الطرف الآخر.

لقد بدت غاية الحب وأوجه وذروة سنامه بكل وضوحها في كتابها (رسائل من الزمن الجميل) الذي يظهر الحبيب باسمه وكامل أوصافه وبصورته دون تلميح بل بصريح العبارة؛ هو عبدالله المبارك من الخطوة الأولى إلى المثوى الأخير. منذ ذلك اليوم الذي طالع اسمها في كشف الفائقات في الصف الأول الثانوي فاختارها، إلى اليوم الذي طالعت وجهه للمرة الأخيرة وهو يذهب إلى جوار ربه.

وعندما نعقد مقارنة بين رسائل سعاد ورسائل غادة نجد أن رسائل الكتابين مكتوبة بحبر العشق وأقلام الشوق ومادة الوله، ومرصوفة على ورق الحب لنجمتين لامعتين في سماء الأدب العربي.

كتاب أعدته سعاد الصباح، وآخر أعدته غادة السمان. وعندما يخضع الكتابان للنقد الفني تخرج غادة من مادة الحديث، ولا تحضر إلا كملهمة محبوبة أثيرة يلاحقها كاتب عربي شهير، هو ليس زوجها، بل إنه متزوج من امرأة، ويبرر لامرأة أخرى خيانته، حيث يبلغ إعجابه مداه في الكاتبة، ويتمدد على مدى صفحات الإصدار الذي أثار ضجة كبيرة وهو يقول لها: (بوسعك أن تدخلي إلى التاريخ ورأسك إلى الأمام كالرمح، أنت جديرة بذلك).

على الجانب الآخر، تأتي سعاد في مادة الحديث كمحبة وزوجة وفية وعاشقة لرجل هو زوجها، تبدأ كتابها كأنها تبتهل: (إنه الوضوء بمياه ضوئك)، باعتباره كتاب وله وشوق منها إلى حبيب غاب، تحضره بكلماتها ونبضها وقلبها.

أما رسائل غادة فما هي إلا كتاب وله وشوق وعذاب من حبيب غاب إليها ليؤكد حضورها، ويرسخ تميّزها.

وتشير الدكتورة نورية الرومي إلى أن سعاد الصباح كانت سباقة في عصرها عندما تحدثت عن حبها لزوجها. (الإبداع في مواكب الثقافة العربية ص48).

وفي دراسته التي حملت عنوان (صوت الآخر في شعر سعاد الصباح)، يتحدث د.تركي المغيض عن الحبيب الذي يدخل في باب "النمذجة" كما صوّرته سعاد الصباح في شعرها تحت عنوان: (الرجل الرمز)، قائلاً: (.. وجاء وصفها لزوجها

ليس باعتباره زوجاً فقط، وإنما لكونه يجسد آمال وتمنيات المرأة في الرجل. ولذلك فقد تجاوزت سعاد الصباح في تقديمها لصورة هذا النموذج الذاتية إلى خلق حالة موضوعية، وانتقلت من الحديث عنه كزوج إلى الحديث عنه كرمز. والمتتبع لسيرة الشيخ عبدالله المبارك مع الشاعرة يدرك مكانته في حياتها، فهو الذي أعطاها الحرية وفتح لها باب الحوار مع موهبتها الشعرية، وهو من ركّب لها أجنحة تحلق بها في عالم الأدب والشعر، وهو الذي هيأ لها فرصة البلوغ إلى أعلى المراتب العلمية والأكاديمية في حياتها, أضف إلى ذلك ما كان للشيخ من مزايا الرجل الحاكم الذي كان له دور كبير في دولته).

ويتابع المغيض: (ومن أكثر القصائد تحديداً لملامح الرجل الزوج والرمز وهو على قيد الحياة قصيدة "هل نسيتم؟"، صاغتها الشاعرة تحت تأثير ظرف محدد، ولذلك نجدها تركز على الجوانب العامة الإنسانية في شخصيته:

كان في معشره صدراً حنونا
وسنىً.. يبهر بالحب العيونا
وندىً كالغيث في كف السماء
وإباء ألمعي الكبرياء
وله قلب الصغار الأبرياء
كله خير وطهر ووفاء
أنسيتم أنه صقر الخليج..
مُشرق الطلعة .. فواح الأريج).

واضح أن سعاد الصباح هنا -حسب المغيض- لم تركز على عبدالله المبارك كزوج، وإنما كرجل رمز ومعلم ووطني مخلص، وقد تحدثت عنه في كتاباتها وحواراتها كثيراً، فتقول عنه بأنه "رجل حضاري بكل معنى الكلمة، يؤمن بالعلم والمعرفة، وبحق المرأة أن تشق طريقها على قدم المساواة مع الرجل، وإذا وصلت إلى ما وصلت إليه من المعرفة فإن عبدالله المبارك كان وراء

مجدي وانتصاراتي". (علي المسعودي حمامة السلام، ص91 وما يليها).
ويكمل المغيض: (وهي لا تجد سواه في حالات الحزن والأسى عندما فجعت بابنها، فتهرع إليه باحثة عن الحنان والحب لأنها لا تملك -وتؤكد الشاعرة على التملك- إنساناً وحبيباً وأماً وأباً وحضناً سواه، تقول:

لا تلمني يا حبيبي إن توالى ألمي
واكتست نضرة أيامي بلون الظلم
ولمن أشكو عذابي؟ وعلى من أرتمَي؟
أنا لا أملك إلا أنت من معتصم..
أنت أمي وأبي.. أنت حبيبي توأمي.. (من ديوان "إليك يا ولدي")

وتخاطب الرجل الرمز الذي جاهد عمره ليعود إلى وطنه، وبعد صبر وتجلد تحققت له العودة.
وتتحول عندها قصيدة الرثاء في الرجل الرمز إلى قصيدة في الوطن وتمجيده، وتستغل الشاعرة موعد وفاة الرجل الرمز الذي تزامن مع تحرير الكويت، مما سمح لها بالعودة إلى الحديث عن فارسها ودوره في خدمة الوطن وتأثير الأحداث فيه:

يا أيها النسر المضـرج بالأسـى — كـم كنت في الزمن الـرديء صبورا
كسرتك أبناء الكويت ومن رأى — جبلاً.. بكل شموخه مقهـورا).

واستطاعت الشاعرة -يقول المغيض- بمهاراتها الفنية في وصف ما حل بالكويت بسبب الغزو العراقي الظالم أن تؤثّر في المتلقي من خلال رؤيتها بأن الذين دمروا الكويت لم يدمروها وحدها، بل دمروا تلك الذاكرة التي تتحرك بحرية على أرض الوطن:

غدروا بهارون الرشيد وأحرقوا كتب التراث وأعدموا المنصورا
عبثوا بأجساد النساء ودنسوا قبر الحسين ودمّروا المنصورا
لم يتركوا في الحقل غصنا أخضرا أو نخلة ميساء أو عصفورا
يا سيدي إن الشجون كثيرة فاذهب لربك راضيا مبرورا

ثم تنتقل الشاعرة إلى الإطار العام لصورة الرجل الرمز، تنتقل سعاد الصباح إلى الحديث عن الجوانب العائلية والفكرية، فتقول على الصعيد العائلي:

أنت السفينة والمظلة والهوى يا من غزلت لي الحنان جسورا
غطيتني بالدفء منذ طفولتي وفرشت دربي أنجما وحريرا

ويكمل المغيض: (وتركز سعاد الصباح على مستوى التفكير العالي الذي كان يتمتع به الشيخ، وتشير -في جانب مهم من هذا الموضوع كامرأة تحمل رسالة الدفاع عن حرية المرأة وحقها في التعبير عن رأيها- إلى أن الراحل مع حق المرأة في حرية الرأي والتعبير عن نفسها بصراحة وشفافية ودون شعور بالخوف أو القمع، فمن شعرها:

وحميت أحلامي بنخوة فارس لم تلغ رأياً أو قمعت شعورا
الله يعلم يا أبي ومعلمي كم كنت إنساناً وكنت أميرا
أأبا مبارك يا منارة عمرنا يا درعنا وكتابنا المأثورا).

وللدكتورة سهام الفريح دراسة حملت عنوان (سعاد الصباح وخروجها من سطوة القبيلة) تتناول مدلولات ألفاظ محددة تتكرر في قصائد الشاعرة مثل: أميري، سيدي، مولاي، حيث ترددت هذه الألفاظ في خطابها الشعري، وكانت للفظة "أميري" الغلبة في كثرة تكرارها، وقد صادفنا هذه الألفاظ في ديوانها (أمنية)، وهو يمثل المرحلة المبكرة في نتاجاتها الشعرية، فلا بد أن

تكون بدأتها في مخاطبتها زوجها الشيخ عبدالله وهو من كان يملك السطوة والنفوذ في الحياة العامة في مرحلة من توليه لبعض المسؤوليات في البلاد، فاستعانت الشاعرة بالمدلول العام لهذه اللفظة ليعبر عن المدلول الخاص المتصل بحياتها، حيث كان يغدق عليها الزوج من فيض الحب، فهو أميرها حباً له وتعلقاً به. لكن الشاعرة تعلقت بهذه الألفاظ وأكثرت من استخدامها بمدلولاتها الخاصة بمضامين الحب (....).

وتتعالى هذه الألفاظ بوضوح في خطابها الشعري في قصيدتها (ابتهالات)، ثم تلحقها بلفظة "أميري"،

(من ديوان أمنية ص117):

(يرسم لي وجه أميري الذي
سلمني في وحدتي للسهر).

وتلحّ لفظة "أميري" على الشاعرة في قصائد عديدة:

(يا أميري.. أنت يا أطهر من طين البشر..). (أمنية 95).

وتقول في نفس القصيدة:

(يا أميري إن حبي لك طفلٌ في الصغر).

وتشير د.سهام الفريح إلى أن لفظة (السيد) وردت في قصيدتها (فتافيت امرأة) سبع مرات، ثم لحقتها بلفظة (سيدي) في مطلع كل مقطع (سيدي، سيدي)، وتعود إليها في مقطع آخر وبنفس التكرار **(سيدي، سيدي)** الديوان 48-37.

وحين جاءت بلفظتي (سيدي) (وحبيبي) لم تستغن عن هذه اللفظة في قصيدة (وحدي):

(يا أميري، أنت يا من كنت للروح شقيق

أنت كنزي من الرحمة والحب الرقيق
ياحبيبي وسيدي وأميري).

(أمنية 74).

وتستمر الشاعرة في إعلان استسلامها وخشوعها لهذا الحبيب في قصيدة (خطاب):

(مولاي إن جاء هذا الخطاب..).

وتقول:

(مولاي قلبي في انتظار الجواب..).

هكذا تستعرض د.سهام سطوة مفردات الحب الذي تعلن فيه الشاعرة خضوع قلبها الكامل لحبيبها وأميرها وزوجها، وهو الخضوع بمعناه الإيجابي الذي يأخذ شكل الحب الكامل الشامل. (الابداع -226 229).

فالحب –حسب رأي د.مختار محمود محمد– يغير الكون بقوته السحرية، حيث يحوّل الليل إلى فجر والخريف إلى ربيع ذي ألوان وبهجة وسعادة، ولذلك نجدها تخاطب هذا الحبيب في قصيدتها "أنت":

لولاك ماغنت طيور الربى
ولا حلا في الليل طول السهر
ولا تهادى النجم في أفقه
ولا زها في الليل ضوء القمر
ولا تناغى نغم حالم
صفا به العيش وطاب السمر

ويخلص د.مختار في دراسة له حملت عنوان (بين الأمنية والحلم) إلى أن أثر هذا الحبيب واضح في شعر سعاد الصباح (الإبداع ص 257).

***

وتظل سعاد الصباح حالة خاصة ونادرة من الوفاء، يمكن استنباطها من تتبع صورها الكثيرة على مدى تاريخها وهي تقف دوماً إلى جانب عبدالله المبارك بشخصه، ثم إلى جانب صوره الكبيرة التي تتصدر القصر الأبيض بعد رحيله!

سعاد الصباح تشدو لـ «سيّد الحبّ»

فاروق شوشة*

- من أنت؟
- أنا امرأَة من فضاء بعيدْ
ونجم بعيدْ
فلا بالوعود ألينُ
ولا بالوعيدْ
- من أنت ثانيةً؟
- بدوية أَنا أختزن في ذاكرتي
عصورًا من القهر
ويختبئ تحت جلدي
ملايينُ الشموس
- من أنتِ أخيرًا؟
تُجيبنا سعَاد الصباح:
- أنا النخلةُ العربيةُ الأصول
والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول
فبارك ثورتي..

هذه هي سعاد الصباح، شاعرة الكويت، كما يتألق صوتها في مجموعتها الجديدة: «والورود تعرف الغضب»، التي تهديها إلى: «عبدالله المبارك، زوجي ومُعلّمي، وصديق العمر الجميل، في يوم ذكراه». وتتردد كلمات هذا الإهداء ومفرداته في مقدمة كثير من قصائد الديوان، مع بعض التغيير في مواضع حبّات هذا العقد الفريد من عقود الوفاء، والإخلاص، والارتباط الحميم، الذي

تتصاعد حرارته عامًا بعد عام، وديوانًا بعد ديوان، وهي تقول: «إلى رفيق البسمة والدمعة، إلى صديق سنوات العمر الجميل، إلى أبي الروحي، إلى روح زوجي عبدالله مبارك الصباح، في ذكراه التاسعة».

تسع سنوات، لم يُحسّ بلذعتها وحدّة دورانها ووقع إيقاعها سواها، هي المشدودة إلى كهف الذكرى لا تفارقه، سجينة مخزون هائل من الذكريات، لا يُبارحها ولا تبارحه، تستدعي بالرؤية والرؤيا صورًا متلاحقة، ومواقف محتشدة، وكوناً تخلخل وتداعى برحيل من تُسمّيه سيد الحب، سيّد هذا العالم، رجل الكبريت والنار، الرجل المُستعمِر، الرجل البحّار، رجل التاريخ، الرجل العاصفة، تقول سعاد الصباح:

أعرف بين رجال العالم رجلاً
يشطرُ تاريخي نصفين
أعرف رجلاً، يستعمرني
ويُحرّرني
ويخبئني بين يديْه القادرتين

***

أعرفُ بين رجال العالم رجلاً
يشبهُ آلهة الإغريقْ
يلمع في عينيْه البرق
وتهطل من فمه الأمطار
أعرفُ رجلاً
حين يُغنّي في أعماق الغابة
تتبعهُ الأشجار

***

أعرف رجلاً أسطوريًا
يخرج من معطفه القمح

وتخضرُّ الأعشاب
يقرأ ما بين الأهداب
ويقرأ ما تحت الأهَداب
ويسمع موسيقى العينَين
أمشي معه، فوق الثلج، وفوق النار
أمشي معه،
رغم جنون الريح وقهقهة الإعصار
أمشي معه مثل الأرنب
لا أسأله أبدًا: «أين»؟

***

أعرف رجلاً
يعرف ما في رحم الوردة من أزرار
يعرف آلاف الأسرار
يعرف تاريخ الأنهار
ويعرف أسماء الأزهَار
ألقاه بكلّ محلاّت «المترو»
وأراه بساحة كلّ قطار
أعرفُ رجلاً... حيث ذهبتُ
يلاحقني، مثل الأقدارْ

***

أعرفُ بين رجال العالم رجلاً
مر بعمري كالإسراء
قد علّمني لُغة العشبِ
ولغة الحبِّ
ولغة الماءْ
كسرَ الزمن اليابسَ حولي

غيّر ترتيب الأشياءْ

***

أعرفُ رجلاً
أيقظ في أعماقي الأنثى
- حين لجأتُ إليه -
وشجّر في قلبي الصحراءْ!

وراء كل هذه المقاطع، وبين ثناياها، حنين هائل، وافتقاد وجوديّ عاصف، ورغبة عارمة في الاحتماء من أعاصير ما بعد الرحيل، وبرودة ما بعد الفراق، ووحدة السنوات الموحشة، تتداعى واحدةً بعد الأخرى، وتهوي طرقاتها العنيفة، مع كلّ وقفةٍ وتأملٍ والتفاتة.

هذا الشعور بالافتقاد يغمر جوّ الديوان كلّه بأطياف اللون البنفسجيّ ودرجاته، وتتجلى في رسوم الشاعرة التي جاورت قصائدها، حزينة بالرغم من ألوانها الصارخة وكأنها ردٌّ على طقس الموت والرحيل، بالرغبة في تأكيد صور الحياة والنماء، يتدرج فيها اللون الأرجوانيّ كدم مسكوب، ويتوهج الأخضر من تحت أقنعة العزاء والمواساة، محاولاً تأكيد حضوره في المشهدين: الشعريّ واللوني.

القصائد لوحات مرسومة، واللوحات قصائد مكتوبة، والقصائد اللوحات تشكّل في عناقها الحزين، محاولة لتجسيد قامة إنسانية تشمخ في وجه المعاناة، وتنكسر في داخلها لوعةً ومشاركة. تقول سعاد الصباح:

لك الشكر يا سيدي
فمنك تعلّمت كيف أُثقف ذوْقي
ومنك تعلمتُ كيف أثقّف عقلي
وكيف يكون كلامي على مستواك
وشكلي على مستواك

وكيف، إذا ما ذهبْنا معًا للعشاءْ
أكون، حبيبي، على مُستواك
وكيف أكونُ أمام الرجال أميرة
وبين النساء أميرة!

***

لكَ الشكر، يا سيّدي
فأنت الذي صُغْتني من جديد
وأنت اخترعْتَ مقاييس جسمي
كما كنت يومًا تريدْ
وأنت رسمْت مساحة خَصْري
وأنت نَحتَّ رُخامة فكري
وأنت غسلْتَ بماء البنفسج ثغري
وأنت كتبتْ تفاصيل عُمري
كما كنت يومًا تريد
وأغنيت روحي
وأغنيْتَ فكري
وأطْلقتني كاليمامة
نحو البعيدِ.. البعيدَ!

***

أنا امرأة صنعتْني يداكْ
فأصبح صوتي امتدادًا لصوْتك
وأصبح رأيي انعكاسًا لرأيك
وأصبح نبضي سريعًا كنبْضِك
أحبُّك
حتى غدوْتُ من الحبِّ
نُسْختك الثانية

بكلّ حُضورِكَ
كلِّ جموحكِ
كلِّ طفولتَكَ العاتية
وكلّ عواصِفكَ الاتيةْ

***

أيا سيد الحبّ
ليس هنالك بين الرجالِ سواكْ
وليس هنالك شمسٌ تضيءُ
وبحرٌ يفيضُ
وطيرٌ يطيرُ
بغيرِ هواكْ

***

أيا سيد الحبِّ
ما زلتُ تلميذةً تسيرُ وراءَ خُطاك
فيا ليتني ذاتَ يوم أنالُ رضاكْ
ويا ليتني أستطيعُ ًالوصول بحبي إلى مستواكْ
لك الشكرُ
يا من فتحْتَ عُيوني
على عشرات الشؤون الصغيرة
أنا قبل حُبِّكَ، ما كنتُ شيئًا
وأصبحْتُ بعد هواكَ الكبير، كبيرة!

هل يضيف هذا الديوان الجديد، جديدًا إلى ما حققته سعاد الصباح من خبرة جمالية وفنية، وما تألق به صوتها من صيحات التحرر والتمرد والغضب، وما حلمت به - في أطرٍ شعرية مُحكمة - من عالم النهضة والتغيير، والدفع بمجتمعها ووجودها الإنساني، المنغرز كالرمح، في قلب هذا المجتمع، إلى فضاء

الحرية، وأفق التجاوز؟

أجل، بكل تأكيد، يضيف هذه المساحة الواسعة من ترويض الشجن، وأَنْسنة الفقْد، واستدعاء الغامض والمبهم، يأتي ولا يأتي.

وهو يحمل إلينا، عبر صفحاته، لغة سعاد الصباح، في طورها الأصفى والأنقى؛ بسيطة من غير زينة أو تبرج أو طلاء، منسابة ناعمة، في حدّة السيف الباتر، نافذة إلى قرار القلوب والأكباد.

وهو يؤكد وعي سعاد الصباح الشعري، بدورها وموقعها، في ركب الحركة الشعرية المعاصرة، وهي تشعل فيها من نارها وشجْوها وارتطامها اليومي بالكون والحياة والناس، وتُخلص لقصيدتها إخلاصها لكل ما تُقدسّه وتُحبِّه وتثق فيه وتُؤْمن به.

من هنا يتألق صوتها الشعري والإنساني، عندما تكون أقرب ما تكون إلى هموم المرأة الكويتية، وسجلْ نضالها المتتابع الحلقات والدوائر، وهي تُغذي هذا الانتماء الحميم في شعرها - للأرض والوطن - بيقين لا يتزعزع وإرادة لا تلين:

أريد أن أعيش تحت معطف المنون
أريد أن أعيش في دائرة الزلزالِ
لا دائرة السكونِ
أريد أن أعيش فِي عيون الناسِ
لا عيوني..

***

أُريد أن ألبس في تنقّلي
قُبعة الرّعودْ
أريد أن أدخل في شريان من أودّهُ
يومًا، ولا أعود
أريد أن أهرب بعض الوقتِ

من بلادة الصيف
ومن عفونة الكهْف
ومن وصاية الجدوَدْ
أريد أن أخترع الوقت الذي يُعجبني
أريد أن أزرع فكري
خارج التاريخ والجغرافيا
وخارج الحدودْ

***

أريدُ أن أصادق الريحَ
وأن أعانق الغيوم
أريد أن أقتحمَ الشمسَ
وأن أسرقِ آلافًا من النجوم
أريد أن أحرّض الأشجار كي تمشي
والغاباتِ كي تركضَ
والجبالَ كي تقومْ
أريد أنْ أقول، كلْ لحظة
فمنْ فمي - حين أقولُ -
تطلعُ الكروم

***

أريدُ من يفهمني
لتطلع الأزهار من أنوثتي
ويكثر الحَمام
فحين يأتي الحبُّ، يأتي الخيرُ والسلامْ
أريدُ من يفهمني
لأقلبَ العالم من أساسه
وأقلبَ الشهور والساعَاتِ والأيام
أريدُ من يفهمني
كي أكتب الشعر،

وكي أخترع الأشياء في الكلامْ
وكي أرى - حين أنام - أجمل الأحلام
أريد من يشدّني من يدي يومًا
ويرميني على ضفائرِ الغمامْ

***

أريدُ أن أقول ما أقولهُ
من دون أن يتبعني السيّافْ
ودون أن أدفنَ في قبر من العادات والأعرافْ
أريدُ أن أهرب من بشّاعة التجّارِ في البازار
ومن مزاد اللونِ، والأجناسِ، والخُصور، والأردافْ

***

أريدُ أن أُفجّر الوقت إلى شظايا
أريدُ أن أسترجع العُمْرَ الذي
خبّأْتُهُ في داخل المرايا
أريدُ أن أصرخَ،
أن ألْعنَ،
أن أحتجَّ،
أن أقتل تاريخًا من العطور والبخور والسّبايا
أريد أن أهرب من رطوبة الحريم والتكايا
أريد أن أهرب ممن حلّلوا دمايا

ولقد فجّرت سعاد الصباح الوقت، وفجّرت لغة القصيدة، وتناثر عطرها الشعري على مساحات واسعة من المكان والزمان.
والذين يقرؤونها يتزايدون.
والذين يفهمونها يتزايدون.
ويطالبونها بالمزيد من ضفائر الغمامْ!

*شاعر وناقد مصري معروف

أجمل القلائد لأفضل القصائد

أندرو أبو سيف حبيب

•قصيدة (آخر السيوف) للشاعرة الدكتورة سعاد الصباح:

بأي وردٍ كان عليها أن تطبع القبلة على صباحات الخير ليطلع الشعر عشقاً بهذا البهاء المطرز بفيروز المطر الشهي؟ هي في اللغة الأولى المكتوبة بكل ما في السر من سر، وهي الشاعرة سعاد الصباح العاشقة التي أدمنت ضوء الشمس، رافضة كل معطيات المعنى المتاح كمساحة منظورة بلغة المنظرين، هي الشاعرة التي عشقت الوردة عسل قصيدة ورحيق شعرٍ لا ينام، هي صاحبة الحرف المشغول بالقلب والروح وعبق النشيد، هي القصيدة المفتوحة على الصباح والحبق والحب، والساكن في جسدها سحرٌ لا ينتهي أبداً، يتجسد في كل الحروف الداخلة في كل تراكيبها جمالاً رائعاً يدنينا كثيراً من زعتر العشق البري.

سعاد الصباح تقبض على الجمرة الأولى، وتعطي الوتر كل ما عندها من نشيد، لتكون جمرة الشعر وسيدة العشق فيه.

لغتها متوهجة حملت صرخة الأنثى بكل صدقٍ ووجعٍ وحق، صرخة جريئة وأصيلة.

سعاد الصباح ذات إحساس فريد، كتبت الشعر فأبدعت، وكتبت النثر ففجرت ما بداخلها بكل صدق، عشقت الأدب والأدباء.. امرأة بالنسب وأميرة للشعر والإحساس، امرأة لبستها عباءة الشعر فكانت شاعرة متفردة بأناقة الكلمات وجزالة المعاني وجمال الصور.. إنها امرأة تنبض شعراً ونثراً.

• سعاد الصباح.. من هي؟

- ولدت الدكتورة سعاد الصباح في 22/5/1942، وهي الابنة البكر لوالدها الشيخ محمد صباح الصباح.

- تلقت علومها الأولية في مدرسة الخنساء وفي ثانوية المرقاب للبنات بالكويت.

- في 15/9/19960 اقترنت بالشيخ عبدالله مبارك الصباح، نائب حاكم الكويت والقائـد العام للجيش والقوات المسلحة.

- حصلت على شهادة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في الاقتصاد من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة في العام 1973.

- تابعت سعاد الصباح دراستها في جامعة ساري جلفورد البريطانية، وحصلت على شهادة الدكتـوراه في الاقتصاد عن دراستها بالانجليزية "التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة" 1981.

- بعد تخرجها عادت إلى الكويت لمباشرة نشاطها الثقافـي والسياسي والاقتصـادي، فشاركت في عشرات النـدوات الاقتصادية والسياسية والثقافية في القاهرة والخرطوم وعمّان ودمشق والبحريـن ودبي وتونس ومسقـط والريـاض ولنـدن وواشنطن وباريس وجنيف ومراكش وليماسول.

- أسست دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، وكان أول إصداراتها إعادة نشر مجلة "الرسالة" المصرية في أربعين مجلداً من بيروت العام 1985.

- إحياءً لدور الكويت الثقافي وتأكيداً على مفهومها القائل بأن الكويـت ليست نفطـاً فقـط بل ثقافـة وعطاء إنساني، جددت نشاط "دار سعاد الصباح" من القاهـرة بإصـدار مئتي عنوان خـلال عـامين، وتتابـع نشاطها مـن مقـرها الرئيسي في الكـويت بإصدار عشرات العناوين كل عام.
- منذ العام 1988، قرر الشيخ عبدالله المبارك ود.سعاد الصباح تأسيس أول

هيئة عربية تتولى تشجيع مواهب الإبداع لدى الشباب العربي.

- في العام 1995 أطلقت مبادرتها غير المسبوقة في تكريم رواد الثقافة العربية الأحياء، فكرمت على التوالي المبدعين: عبدالعزيز حسين (الكويت)، الشاعر إبراهيم العريض (البحرين)، الشاعر نزار قباني (بيروت)، والدكتور ثروت عكاشة (القاهرة).

- عندما وقعت كارثة الغزو العراقي المشؤوم تقدمت صفوف العمل، وذلك بالمشاركة في اللجنة العليا لتحرير الكويت، وقامت باستئجار إذاعة خاصة للدفاع عن قضية الكويت من لندن، وآزرت إصدار النشرات والكتب وعقد المؤتمرات دفاعاً عن وطنها في واشنطن ولندن والقاهرة وجنيف وبراغ، وكتابة المقالات اليومية في الصحف العربية وصحف الكويت في لندن مثل "القبس الدولي" و"صوت الكويت"، ولها خلال الغزو برنامجان في إذاعة الكويت في الدمام أحدهما صباحي بعنوان "صباح الخير يا وطني يا ديرة الخير يا كويت"، والآخر في المساء بعنوان "الكويت في الصحافة العالمية"، وبرنامج أسبوعي سياسي تحليلي عن الكويت.

- سجلت شريط كاسيت بصوتها لجميع قصائدها، وهرّبته إلى العراق لإيمانها بأن صوت المظلوم لا بد أن يسمع في كل مكان.

- إنها بإيجاز المرأة العربية التي تكافح في كل مكان من وطننا لتأخذ نصيبها من "ضوء النهار" وتشارك في بناء الحياة.

- لقد تمردت وبكبرياء على الواقع الأليم للمرأة العربية، وتحدت الرجل الذي ما فتئ يعتبر المرأة وردة لا يريدها متفتحة جميلة بل يريدها جاهزة للشمّ، ومن ثم رميها في ركن مهمل.

• إصداراتها الشعرية:

- "ومضات باكرة" / "لحظات من عمري" (28)

- "من عمري" (29)
- "أمنية" (30)
- "إليك يا ولدي" (31)
- "فتافيت امرأة" (32)
- "في البدء كانت الأنثى" (33)
- "حوار الورد والبنادق" (34)
- "برقيات عاجلة إلى وطني" (35)
- "آخر السيوف" (36)
- "قصائد حب" (37)
- "امرأة بلا سواحل" (38)
- "خذني إلى حدود الشمس" (39)
- "القصيدة أنثى والأنثى قصيدة" مختارات شعرية (40)
- "والورود تعرف الغضب" (41)
- "رسائل من الزمن الجميل" (42)

لقد لقي إبداعها الشعري اهتمام الدارسين الجامعيين، فكان محور رسالات ماجستير ودكتوراه في الأردن ومصر ولبنان والبحرين والصين، فضلاً عن عشرات المقابلات التلفزيونية التي سجلت صوراً من سيرتها ومن عطائها الشعري.

واحتفت الأوساط الثقافية بها، فأحيت أمسيات شعرية في مصر، ولبنان، وسورية، ومسقط، والإمارات، والأردن، وسويسرا، وفرنسا، والبحرين، والسعودية، وبريطانيا، والولايات المتحدة، والعراق، وتونس، وقطر، والمغرب، والسودان.

ترجم شعرها إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والصينية والفارسية والبلغارية والأوكرانية والجورجية والألمانية والطاجيكية.

• إصدارات أخرى:

1 - التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة / باللغتين الإنجليزية والعربية. (43)
2 - الكويت / أضواء على الاقتصاد الكويتي. (44)
3 - المرأة الخليجية ومشاركتها في القوى العاملة (مجموعة بحوث). (45)
4 - "أوبك" بين تجارب الماضي وملامح المستقبل. (46)
5 - السوق النفطي الجديد: السعودية تسترد زمام المبادرة. (47)
6 - أزمة الموارد في الوطن العربي. (48)
7 - هل تسمحون لي أن أحب وطني. (49)
8 - صقر الخليج: عبدالله مبارك الصباح. (50)
9 - حقوق الإنسان في العالم المعاصر. (51)
10 - حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق. (52)
-11 ماذا تعرف عن حقوق الإنسان. (53)
12 - مبارك الصباح مؤسس دولة الكويت الحديثة.

• دراسات عن د.سعاد الصباح:

اهتم النقاد والدارسون بتجربة سعاد الصباح الشعرية في مؤلفات كثيرة منها:

- سعاد الصباح: الشعر والشاعرة، فاضل خلف. (54)
- سعاد الصباح في "فتافيت امرأة" / الازدواجية الوجدانية وتعددية الأبعاد (بالفرنسية)، د.عزة ملك. (55)
- في البدء كانت الأنثى: غريزة الحياة وتجربة الاتصال عند سعاد الصباح، د.أسمهان بدير الصيداوي. (56)
- قراءة مسافر في شعر سعاد الصباح، د.محمد التونجي. (57)
- التجربة الشعرية لسعاد الصباح، بيار ريشا. (58)

- سعاد الصباح: شاعرة الألم (بالفرنسية)، د.عزة ملك. (59)
- العزف على أوتار مشدودة، د.نبيل راغب. (60)
- قراءات نقدية في شعر سعاد الصباح، سعيد فرحات بلال خير بك. (61)
- سعاد الصباح شاعرة الانتماء الحميم، فضل الأمين. (62)
- لغة التماس، محمود حيدر. (63)
- سعاد الصباح: رحلة في أعمالها غير الكاملة، عبداللطيف الأرناؤوط. (64)
- سعاد الصباح: دراسة جديدة، برهان بخاري. (65)
- في ظلال الإبداع، نجوى حسن. (66)
- النص والنص الغائب، د.عبدالملك مرتاض. (67)
- سعاد الصباح: شاعرة شتائية، إسماعيل إسماعيل مروة. (68)
- البناء اللغوي والفني في شعر سعاد الصباح، تيسير رجب نسور. (69)
- هدم وبناء، د.مها خير بك ناصر. (70)
- القصيدة أنثى والأنثى قصيدة، د.فوزي عيسى. (71)
- القضايا والأدوات: دراسة في شعر سعاد الصباح، د.مختار أبو غالي. (72)
- وردة البحر وحرية الخيال الأنثوي، د.صلاح فضل. (73)
- دراسات في "قصائد حب" بالإنجليزية، د.نذير العظمة وآخرون. (74)
- امرأة من الزمن الجميل، علي المسعودي. (75)

• الإسهامات الثقافية:

- تمنح ثماني جوائز أدبية سنوياً لتشجيع الشباب في الوطن العربي، حيث إن أربعاً منها تحمل اسم جوائز الشيخ عبدالله مبارك الصباح للإبداع العلمي، والأربع الأخرى هي جوائز سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي.
- تخصص أربع جوائز لإبداع خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت كل عامين، وجائزة للمسرح بالتعاون مع مسرح المدينة في بيروت.
- تقدم جائزة سنوية لأفضل كتاب منشور عن الشرق الأوسط في لندن، باحتفال تشارك فيه سفارة دولة الكويت.

- تسهم بشكل غير محدود في دعم المؤسسات والمشروعات الثقافية في الكويت والوطن العربي، وتقديم المنح الدراسية لمجموعة من أساتذة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة للحصول على شهادات الدكتوراه.
- أقامت مكتبة الشيخ عبدالله مبارك الصباح في جامعة القاهرة، ومكتبة الشيخ عبدالله مبارك في مدرسة الفروانية الثانوية في الكويت، وعشرات المراكز التعليمية والدينية والمساجد في الكويت والعديد من الدول العربية الإسلامية والإفريقية، ودفعت بالمئات من الطلبة إلى متابعة التعليم في مختلف مراحله وبخاصة الجامعية، ولم تبخل بتقديم الدعم المطلق لتوفير مقر للمنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة، ومنتدى الفكر العربي في العاصمة الأردنية، وأسهمت وتسهم في المشروعات الثقافية الهادفة إلى تنوير الطفل عبر الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، وترعى جائزة عبدالله المبارك لحفظ القرآن الكريم في جمهورية كازاخستان.

• سعاد الصباح والإنسان:

- شغلت الثقافة وحقوق الإنسان وقضايا المرأة والطفل حيزاً كبيراً من اهتمامها، لذلك اختارها الأمين العام للأمم المتحدة بين خمس سيدات، منهن زوجة الرئيس الأمريكي وزوجة الرئيس الفرنسي، لتكون ضيفة شرف للمؤتمر العالمي للمرأة الذي عقد في بكين العام 1995.
- كرمتها جامعة أكسفورد البريطانية بمنحها درجة الزمالة لكلية "سانت كاترين" التابعة لها.
- حصلت على وسام الثقافة التونسية.
- منحتها الكويت جائزة الدولة التقديرية للآداب والفنون.
- منحتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة درع التفوق.
- كرمها المنتدى الثقافي المصري بإصدار مجلدين حملا عشرات البحوث والشهادات عن إبداعها الشعري وجهدها في مجال الثقافة وحقوق الإنسان / القاهرة 2003.

- كرمتها جامعة القاهرة بمنحها درع عيد العلم، وكانت بذلك أول مبدعة عربية غير مصرية تكرمها الجامعة.
- منحها رئيس الجمهورية اللبنانية وسام الاستحقاق المذهب.
- منحتها وزارة الثقافة التونسية درع الإبداع العربي.

• مواقع شغلتها:

1. عضو المجلس الأعلى للتعليم / الكويت.
2. عضو مؤسس للمؤسسة الثقافية العربية لندن.
3. عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة العربية لحقوق الإنسان (مؤسس)، القاهرة.
4. عضو الاتحاد العالمي لاقتصاديات الطاقة.
5. عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة العالمية للنساء المسلمات لجنوب شرق آسيا.
6. عضو مركز الطاقة بجامعة ساري جلفورد - المملكة المتحدة.
7. عضو مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية لمنتدى الفكر العربي في عمان.
8. عضو مجلس الأمناء في مركز الدراسات العبرية - جامعة اليرموك.
9. عضو مساند بمركز الدراسات العربية في يروت.
10. الرئيسة الفخرية لجمعية الصداقة البريطانية - الكويتية.
11. عضو شرف لجمعية متخرجي الجامعة الأميركية في بيروت.
12. عضو شرف للمجمع الثقافي العربي - بيروت.
13. عضو اللجنة التنفيذية لجمعية "أوليف بادن" الدولية للمرشدات في لندن.
14. عضو مجلس إدارة مشروع بحوث الشرق الأوسط والمعلومات في واشنطن.
15. عضو مؤسس للمجلس العربي للطفولة والتنمية في القاهرة.
16. عضو المجلس الاستشاري للاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة - لندن.

17. عضو اللجنة العليا لتدعيم التعليم - الكويت.
18. عضو جمعية الصحافيين الكويتيين.
19. عضو جمعية الخريجين الكويتية.
20. عضو جمعية الاقتصاديين الكويتية.
21. عضو مجلس الأمناء في المجلس الدولي حول التعليم لأغراض التدريس بارلينغتون - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية.
22. عضو رابطة الصداقة الكويتية الأمريكية - الكويت.
23. رئيسة اللجنة الثقافية والاجتماعية - نادي الصيد والفروسية - الكويت.
24. عضو مركز المرأة للمعلومات - الجمعية النسائية الثقافية الاجتماعية – الكويت.
25. رئيس مجلس الإدارة: مكتب الاستشارات العملية - الكويت.
26. دار سعاد الصباح للنشر - الرئيس.

• قال د.محمد عناني في كتابه "المختار من شعر سعادالصباح": (76)

الدكتورة سعاد الصباح شاعرة، مملكتها الشعر، وهو بعدها الإنساني الحر، ومع أن الاقتصاد مجالها وتخصصها، فإن الشعر هو صاحب الأفضلية، تقاسمه الوجع العربي.. الشعر لديها هو الملح الذي نرشه على عواطفنا وأجسامنا حتى لا نتفسخ..

هذا الديوان هو مجموعة مختارة من شعر الشاعرة الكويتية الموهوبة، والتي ظهرت موهبتها الشعرية وهي في صباها المبكر، وظهر أول دواوينها وهي في المرحلة الثانوية بعنوان (ومضات باكرة)، واتبعته في نفس العام بديوان لحظات من عمري، واستمرت في العطاء الفكري لتتجاوز دواوينها الشعرية العشرين ديواناً.

وهذه الاختيارات هي اختيارات الدارس والناقد، لذا فإن هذا الكتاب هو دراسة تعريفية ونقدية لأشعار هذه الشاعرة والسيدة العربية التي تنتسب

إلى أسرة عريقة وحاكمة في الكويت، ولكن أشعارها واهتماماتها انصرفت عن شعر الرفاهية، وتولت مهام الدفاع عن المرأة وعن المقموعين وعن المقهورين سياسياً واجتماعياً في كل أنحاء العالم.

• ناقدة اجتماعية:

يتميز شعرها بموسيقا جميلة، تظهر واضحة في قراءة أشعارها، وهي تكتب الشعر المنثور، ولكنه يحمل موسيقا الشعر المقفى والموزون، ومن قصيدتها الطويلة التي عنوانها (إن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب) تقول في بعض أبياتها:

"إنني بنت الكويت
غرفتي الشمس..
ومن بعض أسمائي الصباح
وجدودي اخترعوا الأمواج.. والبحر..
وموسيقا الرياح..
صادقوا الموت.. فلا الخيل استراحت
من أمانيهم.. ولا السيف استراح..
ثم حلت لعنة النفط علينا
فاستبحنا كل ما ليس يباح
فالبساتين فراش للهواة
والنساء الأجنبيات
يعطرن لياليا الملاح
والدنانير على الأقدام ترمى..
وعلى الأجساد تصطف القداح
هكذا يا وطني
ترفع رايات الكفاح!!".

• ثائرة سياسية:

من ديوانها (أمنية) الذي كتبته في أوائل عمرها الأدبي، تعيد لنا التاريخ، وكأن الزمن يقول ما أشبه الليلة بالبارحة، فالقصيدة بعنوان "صيحة عربية"، ولكنها الصيحة التي لم يستجب لها أحد، ووقائعها لا تزال تتفاعل مع مرور أكثر من عشرين عاماً على القصيدة التي تقول فيها:

"أصدقائي، من كل أرض ولون
نحن للثأر، أيها الأصدقاء
اشهدوا ما تخطه يد أمريكا
وتلك الربيبة النكراء..
واشهدوا أننا سنثأر لله
ولله كم يهون الفداء..
ويباهي بنا النبي، ويرضى
البيت عنا والقبة الغراء..
وتعودين يا حبيبة.. يا قدس
ويرضى المسيح والعذراء
ولنا ناصر من الله.. إن الله
يجزي بنصره من يشاء".

• فلسفة شعرية:

الشاعرة سعاد الصباح تقول الشعر وتطرحه سهلاً ليناً على اللسان، وبهذه السهولة ترسل رسائلها، وتقدم دروسها بلغة الشعر مما يجعلها دروساً محببة وجميلة ومفهومة.

فتقول في قصيدتها بعنوان "قراءة غير تقليدية":

"لا تقرأني

من اليمين إلى اليسار
على الطريقة العربية
ولا من اليسار إلى اليمين
على الطريقة اللاتينية
ولا من فوق إلى تحت
على الطريقة الصينية
اقرأني ببساطة
كما تقرأ الشمس أوراق العشب
وكما يقرأ العصفور كتاب الوردة".
وقصيدة أخرى تعرف فيها العالم الثالث وتقول:
"لأن الحب عندنا
انفعال من الدرجة الثالثة
والمرأة مواطنة من الدرجة الثالثة
وكتب الشعر، كتب من الدرجة الثالثة
يسموننا شعوب العالم الثالث"..

• قالت الشاعرة سعدية مفرح: (77)

الشاعرة سعاد الصباح امرأة لا تعرف الحذر ولا السكون.. امرأة تبدأ بإصرار يشبه السكين في رهافته وحدّته، رحلة شعرية صعبة، رغم أنها تملك أداتها الأولى حيث الموهبة قرار الممارسة، وحيث الوعي بهذه الموهبة وحدودها خطوتها الأولى نحو تحققها الأخير، ورحلة إنسانية أصعب رغم أنها تسير خلالها على طريق مفروش بالمجد العائلي التليد المسيّج بزهو السلطة الموروثة ورفاهية الثراء الموروث أيضاً، فالصعوبة عنوان الطريق وعلى حدّيها الأدنى والأعلى توزعت مقولات الشاعرة المعلنة وغير المعلنة.

هكذا إذاً، وجدت سعاد الصباح نفسها، وفقاً لتفاصيل الرحلتين، وهي تعلن ذاتها شاعرة تخوض في تضاريس دقيقة من الشعر والتاريخ والسياسة والنقد

والعائلة والحب والوطن في هويته المحلية وهويته القومية، وما يمكن أن يكون خيطاً تنتظم فيه كل هذه المفردات دون أن تطغى مفردة على أخرى تحت وطأة هاجس ما.

• مقتطفات من لقاء مع الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح حاولنا من خلاله الولوج إلى عالمها الشعري والإنساني:

* كيف انبثق سؤال الشعر تحديداً لديك، وهل لنا أن نتحدث هنا عن مصادر ومرجعيات زرعت في مراهقتك بذرة الشعر؟ وهل لنا أن نعرف من هم شعراؤك وكتّابك المفضلون في تلك المرحلة؟

- قرأت ثم قالت لي فيما يشبه الهمس الحميم: أنت تكتبين شعراً (لم أجب)، ولم يكن لدينا الكثير لنتسلى به ونسرّي عن أنفسنا عبق أنفاس الليل، رحت أكتب حتى عرف والدي بأمري، فشجعني وزاد من جرعة الشعر في الكتب والمجلات التي كان يحرص على جعلها زوّادة البيت.

ومنها عرفت الشعراء واتصلت بروحي نسائم القصيدة الجديدة عبر مجلة (الرسالة) المصرية، وكانت يومها أعرض المنابر للفكر في الأدب والنقد والقصيد. كما كان العراق يومها أقرب البحيرات الشعرية إلى مذاقنا وأوسعها أنهاراً بفضل بدايات حركة الشعر الجديد فيه. لقد كان الاتصال الثقافي بيننا وبين عراق الخمسينيات واسعاً ومؤثراً وقريباً. ثم جاء السفر ليمنحني فرصة العمر في التعرّف إلى الشعر الغامر دنيا العروبة في لبنان والشام ومصر وفي المهاجر، وفي التعارف مع شعراء كانوا كوكبة الضوء في عصرهم من أمين نخلة إلى الأخطل الصغير وصلاح لبكي. وحين التقيت بشعر المهجريين أدركت أن البحار التي باعدت بينهم وبين وطنهم قد زرعت في صدورهم الوطن، ومعه رشاقة وجدة في الكلمة الشعرية.

عندما أتيح لي أن أقرأ إيليا أبو ماضي وشعر جبران المنثور ومطالع شعر نزار قباني، وقد بدأ يزهو في الأوراق الجديدة، أقبلت على القراءة في نهم لا يشبع

صاحبه ولا يرتوي.

بالطبع كان شوقي وحافظ إبراهيم ملء السمع والعين، كذلك طه حسين والعقاد والمازني. لقد أعطاني السفر في رحلاته، ثم الاستقرار في لبنان ومصر، فرصة العمر لإغناء روحي، وقد غنيت.

ومع الاعتراف بأنني لم أكن صبية هادئة أو مستكينة، فقد ولدت وفي أعماقي مهرة لا تعرف الحذر أو الخوف أو السكينة. التمرّد كان سمة روحي في كل ما أقدم عليه كتابة أو حديثاً أو سلوكاً، كنت أحسّ بأني مسكونة بالعاصفة وأن الزمان هو زماني، كنت أحسّ بثقة كبيرة في نفسي، فما أقرره أعلنه وما أعلنه أفعله، ما دام ذلك في حدود قررتها لما يجوز ولما لا يجوز. ولم أخضع للمعادلات المنصوبة كالشراك في وجه المرأة، لذلك كنت ثائرة حقيقية على كل ما يقيد حقي، وقد ساعدني أن يكون لي الزوج – الخيمة؛ يفهمني ويقبل ثورتي وينصرني على كل محاولة لجعلي امرأة رمادية، كان عبدالله المبارك ناصري الأول وسندي، فازددت به قوة وغنمت بفروسيته رهان القتال.

* شخصياً أرى أن مجموعتك الشعرية (فتافيت امرأة) تعتبر مفصلاً مهمّاً واضحاً جداً في تجربتك الشعرية، حيث انتقلت من خلالها إلى مرحلة جديدة في كتابة النص الشعري، فهل توافقينني على ذلك؟ وما ظروف إنتاج تلك المجموعة بالذات؟

- لو عدت إلى التذكر لما أدركت الجواب.

إن حياتي كانت من العمق والتجارب في الأزمنة والأمكنة وفي تلاحم المشاعر واضطرابها المولد للشعر، بحيث يستحيل عليّ الوقوف لتفصيل المراحل. لقد تأثرت كثيراً بتجارب الشعراء التي راحت بيروت تهطل بها من سماء الشعر العربي مولدة ثورة في الكلمات وفي الشكل الشعري المدهش. بيروت هنا، ومرة أخرى، عادت إلى لعب دورها كناموس للشعر، وقاموس جديد لحروفه المولودة من شعراء عرب حملوا هويات العراق والشام وفلسطين، لقد فتحت المغارة أبوابها من جديد ليطلع الشعر مسكوباً كالورد والبندقية والسكين في حياتنا، وضمن هذا الزخم المتناسق مع رديفه في أوروبا، ولندن تحديداً، ولد

إنسان شعري جديد في مئات الصدور والأصوات، ومنها هذه الفتافيت، التي أوافقك على أنها شيء آخر في حنجرتي.

* (فتافيت امرأة) قدم نموذجاً للمرأة العربية التي تعاني معوقات تقف أمام حلمها الإنساني في الحرية، فهل تعتقدين أن هذه المرأة يمكن أن تتجاوز ذلك النموذج قريباً، وهل من فضاء يمكن أن يحتوي كل هذه الثورة التي احتوتها المجموعة؟ وإلى أين تمضي خيارات المرأة العربية الإنسانية في ظل مجتمع ذكوري ينظر للمرأة بتشكك كلما حققت نجاحاً ما؟

- من أعماق الحزن أقول: لا. لقد تراجعت عربة التمرّد القادرة على اجتياز السدود وازدادت المعوقات قوة، واكتسبت أحلامنا مناعة العجز عن اختراق الحجب. إنني حزينة لأن المرأة هي المتراجع الأول، وهي الجسر الذي يبني عليه خصومها مسارهم، لقد شهدت السنوات المنصرمة بعض الانتصارات النظرية، ولكن واقع المرأة العربية اليوم ليس في أحسن مشاهده، بالطبع هناك مؤثرات على الثورة تولد نارها ولكن، وبالمقابل، هناك مياه غزيرة تجهزت لمواجهتها ولإطفاء شعلتها المقدسة، إن المرأة العربية ليست مدعوّة للثورة على غيرها، بل على نفسها أولاً لتخرج من قارورة العطر أو قارورة الزيت التي حبست نفسها فيها. كنت أدعو المرأة للثورة على العقلية الذكورية، وأنا اليوم أدعوها إلى الثورة على ذاتها لأنه ما لم تحقق انتصارها على هذه الذات، فكل انتصار آخر يبدو باهتاً.

* تبدو قصيدة التفعيلة وكأنها الأكثر قدرة على التعبير عن هواجسك الشعرية، هل اخترتها عن سابق إصرار بعدما مررت بالقصيدة العمودية وجربت قصيدة النثر قبل أن ترسو سفنك بشكل نهائي على شواطئ قصيدة التفعيلة؟

- ذلك بالتأكيد هو التأثر بالعام وبالخاص، لقد طفت قصيدة التفعيلة شكلاً مثيراً وجديداً للكلمة الشعرية، متناسبة مع حركة الثقافة الذاتية، ومع التحوّل الذي لا مفرّ منه لمن يعايش تجارب الآخرين، فيأخذ منها ويأخذون منه. إن هذا التفاعل كان حتمياً في تجربة مئات الشعراء العرب ولا يزال

فاعلاً في غالبية مبدعيه، لاتساقه مع التموّج الداخلي للشاعر.

* كيف تنظرين لإنجازات قصيدة النثر على الصعيد العربي، وبخاصة أنها صارت الخيار المفضل لأكثر الشعراء العرب في السنوات الأخيرة، هل ستلغي قصيدة النثر بقية الأشكال الأخرى؟

- فلنتفق على الاختلاف لأنني لا أرى أن قصيدة النثر (قد صارت الخيار المفضل لأكثر الشعراء العرب في السنوات الأخيرة). طبيعي القول إنها قد حققت موقفاً متقدماً جداً عمّا كانت عليه في بداياتها في الستينيات، ولكن قصيدة التفعيلة والقصيدة العمودية لا تزالان خياراً عريضاً فيما نقرؤه. أقول ذلك وأنا واحدة من صاحبات الصوت الشعري في قصيدة النثر، وديواني (قصائد حب) صدر باسمها، وفيه أودعت دفقات غالية من الشعر، ولكنها لم تكن التزاماً نهائياً.

* نعرف أيضاً أنك تمارسين الرسم بروح الهاوية وجدية المحترفة، فكيف نشأت علاقتك مع اللون؟ وما الفرق بين اللوحة والقصيدة في القدرة على التعبير عمّا يعتمل داخلك؟

- علاقة قديمة تزامنت مع الهاتف الشعري وغابت زمناً لتعود في اللوحة، وهذا امتيازها الأول، الفضاء الرحب لا يشبه غيره ولا يملك حيزاً يستحيل تجاوزه، بينما في الشعر ذلك قائم. في اللوحة يملك الرسام الفكرة وحرية التعبير دون قيود ودون أن يأخذ في الحسبان عاملاً من خارج الذات.

* تعترفين دائماً بتأثرك الشديد بمدرسة نزار قباني الشعرية، فمتى بدأ هذا التأثر؟ ولماذا نزار قباني بالذات؟ وهل يزعجك إشارة الكثيرين ممن كتبوا عنك إلى علاقة نصك الشعري بالنص النزاري بطريقة اتهامية رغم أن كثيرين غيرك من الشعراء العرب تأثروا بتجربة نزار دون أن يشير لذلك أحد من النقاد؟

- دعيني أبدأ من النهاية، فأكرر تساؤلك (رغم أن كثيرين غيرك من الشعراء العرب تأثروا بتجربة نزار دون أن يشير لذلك أحد من النقّاد)، هذا التساؤل الذي تطرحين يحمل الجواب، وإن لم يكن يحمل التفسير.

أما في التفسير، فأحسب أن أي قارئ للشعر العربي، وبخاصة الغنائي، يعرف

اليوم أن هناك مئات القصائد التي نشرت أو لحّنت أو غنّتها الحناجر مفصلة على المقاس النزاري، ولكن، كما قلت، دون أن يشير أحد من النقاد، ولا يشيرون الآن إلى ذلك. السبب أنني شاعرة عربية من هذه البادية الممتزجة بالبحر، وأن لي نسباً، لنعترف أنه كبير، لذلك كانت هجمة الجراد البارد على شعري، ولنعترف أيضاً أن هناك من أبناء البلد الواحد مَن كان يسعده أن يلقي حطبة في النار ليرتاح إلى ما يحسبه الهشيم، دون أن يدري جميع هؤلاء أن موقفهم مني وليس من شعري، وهذا هو اللب، قد زادني إصراراً على امتشاق الشعر والضرب به، وقد ربحت الرهان.

لا توجد امرأة عربية تفك الحرف، لم تهرول إلى دواوين نزار، وهل تحسبين مئات الألوف من نسخ دواوينه زوّادة الرجال وحدهم! إن دواوين نزار لا تزال الأكثر مبيعاً على امتداد هذا الوطن.

* هل نحن كخليجيين نتاج زواج موفق بين البحر والصحراء؟ وهل أصبح تراثنا الصحراوي يتغلب على تراثنا البحري في الآونة الأخيرة مما يهدد تلك العلاقة ويؤثر في الشخصية الخليجية التي هي نتاج هذه العلاقة المميزة والدقيقة؟

- أحسب أن هذا التزاوج يواجه خطر الاضمحلال بسبب إهمالنا لتراثنا بحراً كان أم صحراء. لقد دخلت في تكوين ذواتنا عوامل جديدة خارجية، ويقبلها معظمنا دون تروٍّ، وينهل منها دون ارتواء، مما يشكل خطر الإلغاء للموروث الجميل الذي حدد مفاهيمنا ونفسياتنا.

* لم تكوني تعانين أبداً مشكلة على صعيد نشر كتبك عن طريق كبريات دور النشر العربية، ومع هذا فكرت بإنشاء دار نشر خاصة تحمل اسمك؟ فما الأسباب وراء إنشاء هذه الدار؟ وعلى الصعيد نفسه، تميزت الجوائز الأدبية والعلمية التي تقدمها الدار بأنها مخصصة للشباب العربي بالذات؛ فلماذا هذا التحديد العمري بالنسبة للمتقدمين للجوائز؟ وكيف تقيمون التجربة بعد مرور أكثر من عقد ونصف العقد عليها؟

- لم أؤسس (دار سعاد الصباح للنشر) حتى أنشر ما أكتب شعراً أو نثراً.

(دار سعاد الصباح) وجدت لتكون منبراً للأصوات المبدعة في كل قطر عربي، وتشهد لها بذلك مئات العناوين التي صدرت حتى اليوم. لقد تصورت، حين تأسيس الدار، أن بمقدوري إضاءة شمعة ثقافية، وأحسب أنني فعلت. وقد قررت أن تكون الدار قاعدة لنشاطات ثقافية متعددة منها المسابقات الثماني التي كنا نستمر في إجرائها سنوياً منذ العام 1988 حتى العام المنصرم حين تحولت لتصبح كل سنتين، وذلك لإغناء التجربة وحرصاً مني على سويّتها. أما عن الحد العمري (30 عامًا) فهو واضح من ارتباط المسابقات بالجيل الجديد الذي أردت أن أفتح أمامه نوافذ الضوء، قدر المستطاع؛ الغاية هي خدمة هذا الجيل.

لقد أصبحت (مسابقات الشيخ عبدالله مبارك الصباح للإبداع العلمي) و(مسابقات سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي) علامة مضيئة على درب الثقافة العربية، والحمدلله. ومنذ تأسيس الدار وضعت الحدود التي لا أقبل تجاوزها.

* لقصيدة (آخر السيوف) التي كتبتها رثاء لرفيق العمر الراحل الشيخ عبدالله مبارك الصباح خصوصية يعرفها كل من اطلع على تجربتك الشعرية بشكل عام، فلماذا هذه القصيدة بالذات اخترت أن تكتبيها وفقاً للنسق العمودي الكلاسيكي؟

- لم يكن لي اختيار، الشاعر قبل سواه يعرف بالتجربة كيف يهطل مطر القصيدة على الروح، وإذا كان لي أن أفسر، وأنا أعترف بأنني لا أحب تفسير شعري حتى لا أسرق دور الناقد، فربما أن نظرتي إلى عبدالله المبارك كسيف كويتي كانت هي السبب. لقد كان بالنسبة لي جملة من عيون التراث: السيف والخيمة ونار الليل المضيفة للعابرين والمنيرة دروبهم، لذلك ربما ارتدى الحزن عليه عباءة الشعر المعتقة بالطيب.

* أي مشاريع مقبلة تحظى باهتمامك يا ترى؟ وما أحلامك المستحيلة على هذا الصعيد؟

- يشغلني اليوم، كما بالأمس، هذا الوطن وإنسان هذا الوطن وكيف يمكن

أن أبني مع البناة، عالماً جميلاً طاهراً ومفعماً بالمحبة والتراحم والعطاء اللامحدود من أجل حياة أنبل وأكثر ديمومة وهناء. لقد حلمت فعملت من أجل سعادة الآخرين، وكنت وما أزال أرى سعادتي عبر ضحكة على وجه امرأة أو بسمة في عيني طفل. وعندما أعرف أنني قد أضفت قطرة ندى على ابتسامة إنسان أكون قد حققت ذاتي وامتلأت بنعمة الله عليّ.

• قال د.عدنان جواد الطعمة:

مما لا شك فيه أن المكتبات الألمانية والأوروبية تضم مجموعة قليلة من الكتب العربية المعاصرة في الآداب والفنون. ومن خلال تدريسي بجامعتي غيسن وماربورغ، وحضوري في الندوات والأمسيات الشعرية التي أقيمت من قبل اتحاد الأدباء الألمان في المدن الألمانية المختلفة مثل فلمار وماربورغ وغيسن وبيدنكوبف وغيرها، لاحظت أن الأوساط الشعبية الألمانية ليست لديها معلومات كافية عن الشعر العربي الحديث ولا عن شعر المرأة العربية.

حصلت على ديوان الشاعرة المبدعة الدكتورة سعاد الصباح "في البدء كانت الأنثى" أثناء زيارتي لمعرض الكتاب الدولي بمدينة فرانكفورت، وقمت بقراءة قصائد الديوان بلهفة وإعجاب، واخترت منها 15 قصيدة نقلتها إلى الألمانية (78).

كان هذا الديوان الشعري المحفز والمشجع الأول لي على إصدار أول دراسة متواضعة عن الشعر العربي الحديث ضمن إمكاناتي المحدودة، باللغتين العربية والألمانية (79). وقد شمل هذا الكتاب قصائد مختارة للشاعرات والشعراء: إيليا أبو ماضي، حليم دموس، نزار قباني، د.فدوى طوقان، محمود درويش، سميح القاسم والدكتورة سعاد الصباح.

ألقيت القصائد باللغتين الألمانية والعربية في أمسيات شعرية ومناسبات كثيرة على أسماع الجمهور الألماني، الذي أعجب بها أشد الإعجاب، الأمر الذي حفزني أكثر على طلب كافة دواوين شاعرتنا الدكتورة سعاد الصباح مباشرة.

بدأت بقراءتها ليل نهار من أجل اختيار القصائد المحببة لنفسي لغرض ترجمتها إلى الألمانية. وقد ظهر لي في حينه أن الشاعرة كانت موفقة جداً في قصائدها الوجدانية والاجتماعية والسياسية الجريئة، لأن كل قصيدة كانت تعالج موضوعاً إنسانياً وحالة اجتماعية مهمة تخص حقوق ومكانة المرأة العربية في المجتمع إضافة إلى الرثائيتين الخالدتين لزوجها ولابنها مبارك، وكذلك مقاومتها العنيفة ضد الغزو الصدامي للكويت الشقيق.

لذا كان من الصعب عليّ اختيار -من الكم الهائل للقصائد التي اعتبرتها لآلئ- مختارات منها للترجمة إلى الألمانية. وبعد قراءات واختيارات متعددة قمت باختيار وترجمة القصائد المتنوعة التالية:

إنني بنت الكويت، وردة البحر، القصيدة السوداء، بطاقة من حبيبتي الكويت، ثلاث برقيات عاجلة إلى وطني، نقوش على عباءة الكويت، آخر السيوف، من أمنية إلى مبارك، فيتو على نون النسوة، للأنثى قصيدتها وللرجل شهود القتل، إلى رجل يخاف البحر، إلى تقدمي من العصور الوسطى، تمنيات استثنائية لرجل استثنائي، توسلات، اتفاق، العالم أنت، كن صديقي، الإقامة الدائمة، المجنونة، امرأة بلا سواحل، درس خصوصي، قهوة، شاي الساعة الخامسة، وإيمان.

وقد قمت بكتابة العنوان المناسب للكتاب: لآلئ الخليج مختارات شعرية "بالعربية والألمانية" (80)، لأني اعتبرت قصائدها لآلئ، ورأيت أن هذا العنوان مناسب لتاريخ الكويت وذكرى حسنة وتخليد لأجداد الإخوة الكويتيين الذين كانوا يزاولون مهنة الغوص الشاقة في البحر في العصور الماضية للبحث عن اللؤلؤ والمرجان.

وبعد صدور الكتاب، أقمت عدة أمسيات شعرية في المدن الألمانية باللغتين الألمانية والعربية للجمهور الألماني وبحضور الصحافة الألمانية التي قامت فيما بعد بتقريض الكتاب ونشر مقاطع أو قصائد بكاملها.

وعندما نشرت الصحف الألمانية تعليقات وقصائد بارزة عن لآلئ الخليج زادت الطلبات عليه من قبل الألمان لغرض الاطلاع على أحاسيس ومشاعر

المرأة العربية.

وقد حدثت لي مفاجأة مباركة جميلة، حيث اتصلت بي طبيبة ألمانية هاتفياً وسألتني عن كيفية الحصول على نسختين من هذا الكتاب، لأنها أرادت أن تهدي نسخة منه إلى إحدى صديقاتها بمناسبة عيد ميلادها المهتمة بشؤون حقوق المرأة في المجتمع الألماني، أجبتها على الفور بأنه يمكنني أن أجلب لها هاتين النسختين إلى عيادتها، فقالت: علي أن أزور بعض المرضى بالقرب من بيتكم. حددنا الموعد المناسب، قدمت الطبيبة المختصة بالأمراض الباطنية في الموعد المحدد وشربنا الشاي، ودار حديث شيّق بيننا حول مكانة المرأة العربية وإسهاماتها في مجتمعاتنا، ثم وجهت لي دعوة للغداء في عطلة نهاية الأسبوع. وهكذا جمعت قصائد الدكتورة سعاد الصباح في أول لحظة ونظرة بين قلبينا وتم زواجنا ولله الحمد، لذا فإني أعتز كثيراً بهذا الكتاب الذي أسعدنا ولمّ شملنا، وكان محضر خير و بركة.

تعالج شاعرتنا مآسي الحروب ونتائجها الوخيمة التي تأكل الحرث والنسل، تقتل القيم الإنسانية والأخلاقية، وتدمر البيئة والطبيعة في القصيدة التالية:

- **القصيدة السوداء:**

(1)

كَمْ غيَّرَتْني الحَرْبُ.. يا صَديقي
كَمْ غيَّرتْ طبيعَتي.
وَغيَّرَتْ أنُوثَتي.
وَبَعْثَرَتْ في داخلي الأشياءْ.
فلا الحوارُ مُمْكنٌ.
ولا الصَراخُ مُمْكَنٌ.
ولا الجنونُ مُمْكَنٌ.
فنحن مَحْبُوسَانِ في قارورَةِ البُكاءْ...

(2)

قد كَسَرَتْني الحَرْبُ يا صديقي
ولخبطَتْ خرائطَ الوجْدانْ.
وحطَّمَتْ بوصلَةَ القَلبِ،
فلا زَرْعٌ..
ولا ضَرْعٌ..
ولا عُشْبٌ..
ولا ماءٌ..
ولا دفءٌ..
ولا حَنانْ..
قد شوَّهَتْني الحَرْبُ يا صديقي
والحَرْبُ كَمْ تُشَوّهُ الإنسانْ..
فهل هناكَ فرصةٌ أخرى.. لكي تُحبَّني؟
وليْسَ في عَيْنَيَّ إلا مَطَرُ الأحزانْ...

(3)

يا سيّدي:
ما عدتُ بعدَ الحربِ.. أدري مَنْ أنا؟ ..
أقطّةٌ جَريحَةٌ؟ أَمْ نَجْمَةٌ ضائعةٌ؟
أَمْ دَمْعَةٌ خَرْساءْ؟
أَمْ مَرْكَبٌ منْ وَرَقٍ
تَمْضُغُهُ الأنواءْ؟
أَيْنَ تُرَى سَنَلْتَقي؟
وبَيْنَنا مَدائنٌ مَحْرُوقَةٌ
وأُمَّةٌ مَسْحُوقَةٌ..
وبَيْنَنا داحسُ والغَبْراءْ...
فَهَلْ هُناكَ فُرْصَةٌ أُخْرى،

لِكَيْ تُحبَّني..
مِن بعد ما حَوَّلَني الحزنُ إلى أجْزاءْ..
قَدْ سَرَقَتْني الحَرْبُ مِنْ طفولتي
واغْتالَت ابتسامتي..
ومَزَّقَتْ بَراءتي
واقْتَلَعَتْ أشْجاريَ الخَضْراءْ..
فلا أنا بَقيتُ مِنْ فَصيلَةِ الزُّهورْ..
ولا أنا بَقَيتُ مِنْ فَصيلَةِ النِّساءْ..
فَمَنْ تُرى يُقْنعُني؟ .
أنَّ السَّماءَ لَمْ تَزَلْ زَرْقاءْ؟
وأنّنا..
في زَمَنِ التَّلَوُّثِ الرُّوحيِّ..
والفكريِّ..
والقَوْميِّ..
يمكنَ أن نظلَّ أصْدِقاءْ؟

(4)

يا سيِّدي:
لستُ أنا جزيرة السَّلامْ.
ولا أنا الأُنْثَى التي كان على أَجْفانِها
يَسْتَوْطِنُ الحَمَامْ..
ولا أنا..
نافورةُ الْمَاء..
وسِمْفونيَّةُ الرُّخامْ...
يا سيِّدي:
قَدْ يَبِسَ العُشْبُ على شِفاهِنَا
وانْكَسَرَ الكَلامْ..

فَكَيْفَ نَسْتَرْجِعُ أيَّامَ الهوى؟
ونَحْنُ مَدْفونانِ..
تَحْتَ الوَحْلِ والرُّكَامْ..

(5)

يا سيِّدي:
أنا التي غيرُ التي تعرفُها.
ذاكرَتي مَثْقوبَةٌ.
فلاَ التَّواريخُ على جدرانِها باقيةٌ
ولا العناوينُ...
ولا الوجوهُ..
والأسماءُ..
أين تُرى نَذهَبُ، يا صَديقي؟
وما هناكَ بوصةٌ واحدةٌ نمْلِكُها
في عالَمِ الأرض،
ولا في عَالَمِ السَّماءْ...
وما الذي نفْعلُ في بلاد
يَصْطَفُّ فيها النَّاسُ بالطابورِ..
كَيْ يَسْتَنْشِقُوا الهواءْ!!

(6)

يا سيِّدي:
لكَمْ أنا أشْعُرُ بالإحْباطِ،
والدُّوارِ..
والإعْياءْ..
فلاَ تُؤاخذني على كآبتي
إذا قرأتَ هذه القصيدةَ السَّوْداءْ.

وتجسد الشاعرة في قصيدتها الآتية قمة المشاعر الوطنية والإصرار على التفاني والدفاع عن الوطن بشتى الوسائل من أجل رد المعتدين وتحرير البلاد:

• بطاقة من حَبيبَتي الكُوَيتْ:

(1)

نحنُ باقونَ هُنا..
نحنُ باقونَ هُنا..
هذه الأرضُ من الماء إلى الماء.. لَنَا
ومنَ القلب إلى القَلبِ.. لَنَا
ومن الآه إلى الآه.. لَنَا
كُلُّ دبُّوسٍ إذا أدمَى بلادي
هُوَ في قَلبي أنا

(2)

نحنُ باقونَ هُنا
هذه الأرضُ هي الأُمُّ التي تُرْضِعُنا
وهيَ الخَيْمَةُ، والمعْطَفُ، والمَلْجَأُ،
والثوبُ الذي يَسْتُرُنا
وهي السَّقْفُ الذي نأوي إليهِ
وهي الصَّدْرُ الذي يُدْفئُنا..
وهي الحرفُ الذي نكتبُهُ..
وهي الشِّعرُ الذي يكتبُنا..
كلما هُمْ أطلقوا سَهْماً عَلَيْها
غاصَ في قلبي أنا..

(3)

سندبادٌ. كان بَحَّاراً خليجيّاً عظيماً.. من هُنا
والذين اشتركوا في رحلةِ الأحلامِ، هم أولادُنا

والمجاديفُ التي شقَّتْ جبالَ المَوْجِ كانتْ من هُنا..
إننا نعرفُ هذا البحرَ جداً.. مثلما يعرفُنا..
فعلى أمواجه الزُّرقِ وُلدْنا
ومع الأسْماكِ في البحرِ سَبَحْنَا
ومع الصبيانِ في الْحَيِّ.. لعبنَا.. وسهرنا.. وعَشِقنَا..

(4)

هذه الأرضُ التي تُدعى الكُوَيْتْ
هِبَةُ اللّه إلينا..
ورضاءُ الأبِ والأُمِّ علينا..
كم زرعنا أرضَها نخلاً وشِعْرا
كم شردنا في بواديها صِغارا
ونَخَلْنَا رملها شِبْراً فشِبْرا
وعلى بِلَّورِ عَيْنَيْهَا جَلَسْنَا نتمرَّى

(5)

هذه الأرضُ التي تدعى الكُوَيْتْ
بَيْدَرُ القمح الذي يُطعمُنا..
نعْمَةُ الرَّبِّ الذي كَرَّمَنَا
وَيدُ اللّه التي تحرُسنا
قد عرفنَا ألفَ حُبٍّ قَبْلَهَا..
وعرفنا ألفَ حُبٍّ بَعْدَها..
غيرَ أنَّا
ما وجدنا امرأةً أكثرَ سِحْرا
ما وجدنا وطناً
أكثرَ تحْناناً، ولا أرْحَمَ صَدْرا
هذه الأرضُ التي تُدْعى الكُوَيْت

هـي منّـا.. ولـنـا
كُـلُّ دبُّوسٍ إذا أوْجَعَها.. هـو فـي قـلـبـي أنـا..

(6)

هـذه الأرضُ الـتـي تُـدعـى الـكُـوَيْـتْ
نـحـنُ مـعـجـونـونَ فـي ذرَّاتـهـا
نـحـنُ هـذا الـلـؤلـؤُ الـمـخـبـوءُ فـي أعـمـاقـهـا
نـحـنُ هـذا الـبَـلَـحُ الأحـمـرُ فـي نـخْـلاتـهـا
نـحـنُ هـذا الـقَـمَـرُ الـغـافـي عـلـى شُـرُفَـاتـهـا.
هـذه الأرضُ الـتـي تُـدعـى الـكُـوَيْـتْ..
هـي عـطـرٌ مُـبْـحِـرٌ فـي دَمِـنـا
ومـنـاراتٌ أضـاءتْ غـدَنـا
وهـي قـلـبٌ آخَـرٌ فـي قَـلـبِـنَـا.

(7)

الـكُـوَيْـتـيُّـونَ بـاقـونَ هُـنـا
الـكُـوَيْـتَـيُّـونَ بـاقـونَ هُـنـا
وجـمـيـعُ الـعـرب الأشـراف بـاقـونَ هُـنـا
الـكُـوَيْـتـيُّـونَ بـاسْـم الـلّـهِ.. بـاسْـم الـسَّـيْـفِ
بـاسْـمِ الأرضِ، والأطـفـالِ، والـتـاريـخِ
بـاقـونَ هُـنـا
نَـلْـثُـمُ الـثَّـغْـرَ الـذي يـلـثـمـنـا
نـقْـطَـعُ الـكَـفَّ الـتـي تـضْـربُـنـا

• طفلة تخاطب أخاها الفقيد:

"مـنْ أُمـنـيَـة... إلَـيْـكَ مُـبَـارَك
يـا أخـي.. أصـبـحَ لـي الـيـومَ مِـن الـعُـمْـرِ سَـنَـهْ

قُمْ.. وهنِّئني ببَعْض البَسَمات المُحْسنَه
عُدْ.. وهَبْ لي لُعْبَةً أو زَهْرَةً أو سَوْسَنَهْ
عُدْ.. وبَدِّدْ منْ سَماء البَيْت غَيْمَ المَحْزنه
جَافَتِ الأنْغَامُ بَيْتاً كُنْتَ فيه أرْغُنَهْ..
يا أخي.. منْ أجْلِ أمِّي عُدْ إلَيْنَا بالأمَاني
قُمْ.. تَجِدْها زَهْرَةً قدْ ذَبُلَتْ قبْلَ الأوَانِ..
في رَبيع مَاتَت الفَرْحَةُ فيه والأغَاني..
أغْرَقَتْهاَ في خَريف الحُزْنِ أَمْوَاجُ الزَّمَانِ..
بَعْد إحْدَاق الْمَنَايَا بأمانيها الحسَانِ..
يا أخي.. مَا عيدُ ميلَادي سوَى يَوْم كَئيبْ
بعد أن غُيِّبْتَ عَنَّا أيُّهَا الوَجْهُ الحَبيب
لم يعدْ في البيت إلاَّ الصمْتُ، يَتْلُوهُ النَّحيبْ
لمْ نَعُدْ إلاَّ غَريباً يَتأسَّى بِغَريبْ
وأباً يسألُ ما الخَطْبُ..
وَأمًّا لا تُجِيبْ..!".

يبدو صراع الشاعرة ضد بعض التقاليد والقيود الاجتماعية التي وقفت أمام طريقها حجرة عثرة، إذ تقول:

• للأنثى قَصيدَتُهَا ولِلرَّجُلِ شَهْوَةُ القَتْلِ:

(1)

"سيظَلُّونَ وَرَائي.
بالبواريد وَرَائي.
والسَّكاكين وَرَائي.
والمَجلاَّت الرَّخيصات وَرَائي..
فأنا أعرفُ ما مَوْقِفُهُمْ

مـنْ كـتـابـاتِ الـنِّـسـاءِ..
غَـيـرَ أنـّي..
مـا تـعـوَّدْتُ بـأن أنـظُـرَ يـومـاً لـلـوَراءِ..
فـأنـا أعـرفُ دَربـي جـيـداً.
والـصَّـعـالـيـكُ -عـلـى كَـثْـرَتـهـمْ-
لـن يـطـالـوا أبـداً كَـعْـبَ حِـذَائـي.
لـن يـنـالـوا شَـعْـرَةً واحـدةً مـنْ كـبْـريـائـي.
فـلـقـد عَـلَّـمَـنـي الـشِّـعْـرُ، بـأنْ أَمْـشِـي
ورأسـي فـي الـسَّـمـاءِ..

(2)

أطْـلَـقُـوا خَـلْـفـي كِـلابَ الـنَّـقْـدِ..
حـتَّـى يُـرعـبُـونـي..
سَـخَّـروا أجْـهـزَةَ الإعـْلام ضـدِّي
واسْـتـعـانُـوا بَـالـجُـنُـودِ الانـكـشـاريّـيـنَ
حـتَّـى يُـسْـكـتُـونـي..
هـكـذا أوْحَـى لَـهُـمْ سَـيِّـدُهُـمْ
أنْ يَـصـلـبُـونـي..
لا كِـلابُ الـنَّـقْـد يـومـاً، قـد أخـافَـتْـنـي
ولا هُـمْ خَـوَّفُـونَـي..
لـيـسَ فـي إمْـكـانـهـمْ
أنْ يَـقْـمَـعُـوا صَـوْتَـي..
ولا أنْ يَـقْـمَـعُـونـي..
لَـيْـسَ فـي إمْـكـانـهـمْ
أنْ يُـوقِـفُـوا بَـرْقِـي..
وإعْـصَـارِي..

وأَمْطارَ جُنُوني..

(3)

أَتَحَدَّاهُمْ جَميعاً.
أَتَحَدَّى كُلَّ أَنْواعِ السُّلاَلاَتِ التي تَحْكُمُنا
بِاسْمِ السَّماءِ..
أَتَحَدَّى سارِقيَ السُّلْطَةِ مِنْ شَعْبي
وتُجَّارَ العَقاراتِ..
وتُجَّارَ النِّساءِ..
أَتَحَدَّى سارِقيَ حُرِّيَّةَ الْفِكْرِ،
ومَنْ أَفْتَوا بِذَبْحِ الشِّعْرِ حَيَّاً..
وبِذَبْحِ الشُّعَراءِ..
أَتَحَدَّى..
كُلَّ مَنْ يَحْتَرِفُونَ السَّلْبَ.. والنَّهْبَ..
ومَنْ خانُوا تُراثَ الصَحَراءِ..
أَتَحَدَّاهُمْ بِشِعْري..
وبِنَثْري..
وصُراخي..
وانْفِجاراتِ دمائي..
أَتَحَدَّى أَلْفَ فِرْعَوْنَ على الأرضِ،
وأَنْضَمَّ لِحِزْبِ الفُقَراءِ..

(4)

سَيظَلُّونَ وَرَائي..
بالإشاعاتِ وَرَائي.
والأَكاذيبِ وَرَائي.
غيرَ أَنِّي
ما تَعَوَّدْتُ بِأَنْ أَنْظُرَ يوماً لِلوَرَاءِ.

فلقد علَّمَني الشِّعْرُ بأنْ أَمْشِي
ورأسي في السَّماءِ".

هنا تحاول الشاعرة تغيير نمط العيش الروتيني الممل ساعية إلى التعبير عن مشاعرها وعواطفها بالأسلوب الذي يسعدها:

- **تَمَنِّيَاتٌ اسْتِثْنائِيَّةٌ لِرَجُلٍ اسْتِثْنائيّ: "**

(1)

عامٌ سعيدْ..
عامٌ سعيدْ..
إنّي أُفضِّلُ أنْ نقولَ لِبَعْضِنَا:
"حُبٌّ سعيد".
ما أضيَقَ الكَلماتِ حينَ نقولُها كالآخرينْ.
أنا لا أريدُ بأنْ تكونَ عواطفي
مَنْقولةً عن أمْنياتِ الآخرينْ..
أنا أرفضُ الحُبَّ المُعبَّأَ في بطاقاتِ البريدْ..
إنّي أحبُّكَ في بداياتِ السَّنَهْ..
وأنا أحبُّكَ في نهاياتِ السَّنَهْ..
فالحُبُّ أكبَرُ من جميعِ الأزمنَهْ
والحُبُّ أرحَبُ مِن جميعِ الأمكنَهْ
ولذا أُفضِّلُ أنْ نقولَ لِبَعْضِنَا:
"حُبٌّ سعيد".
حُبٌّ يثورُ على الطقوسِ المسرحيَّةِ في الكلامْ.
حُبٌّ يثورُ على الأصولِ..
على الجذورِ..
على النظامْ..
حُبٌّ يحاولُ أنْ يُغيِّرَ كُلَّ شيءٍ

في قواميسِ الغرامْ!!..

(2)

ماذا أريدُ إذا أتى العامُ الجديدْ..؟ .
كمْ أنتَ طفلٌ في سؤالِكَ..
كيف تجهلُ، يا حَبيبِي، ما أُريدْ؟ .
إني أريدُكَ أنتَ وحدَكَ..
أيُّها المربوطُ في حَبْلِ الوريدْ.
كُلُّ الهدايا لا تُثيرُ أنوثتي
لا العطرُ يُدهشُني..
ولا الأزهارُ تُدهَشُني..
ولا الأثوابُ تُدهَشُني..
ولا القَمَرُ البعَيدْ..
ماذا سأفعلُ بالعُقُود.. وبالأساور؟ .
ماذا سأفعلُ بالجواهَرْ؟ .
يا أيُّها الرجُلُ المسَافرُ في دمي
يا أيُّها الرجُلُ المسافرْ
ماذا سأفعلُ في كنوزِ الأرضِ..
يا كنزي الوحيدْ؟؟ .

(3)

يا سيِّدي:
يا مَنْ يُغَيِّرُ في أصابعه حياتي
يا مَنْ يؤَلِّفُني.. ويُخْرِجُني..
ويكْسرُني.. ويجمَعُني..
ويُشْعِلُ ثورتي.. وتَحوُّلاتي..
أجْراسُ نصْفِ اللّيلِ رائعةٌ
وهذا الثَلجُ موسيقَا تُكلِّمُنَا

وأنا أُصلِّي كي تظلَّ تُحِبُّني
فاقْبَلْ صَلاتي...

(4)

يا سيِّدي:
يا أيُّها المخبوءُ من عشرينَ عاماً.. في الوريدْ
يا مَنْ يُغَطِّيني بمعْطَفِه
إذا سرْنا معاً فوقَ الجليدْ..
ما دُمْتُ لاجئةً لصَدْركَ..
ما الذي منْ هذه الدُّنيا أُريدْ؟ .

(5)

ما دُمْتَ موجوداً معي..
فالعامُ أسْعَدُ مِنْ سعيدْ".

- كُنْ صديقي:

(1)

كُنْ صديقي!
كُنْ صديقي!
كم جميلٌ لو بقينا أصدقاءْ
إنَّ كُلَّ امرأة تحتاجُ أحياناً إلى كفِّ صديقْ..
وكلام طيِّبٍ تسمعُهُ..
وإلىً خيمَّةِ دفء صُنعَتْ من كلِماتْ
لا إلى عاصفَة مَن قُبُلاتْ
فلماذا يا صدِّيقي؟ .
لسْتَ تهتمُّ بأشيائي الصغيرهْ
ولماذا... لسْتَ تهتمُّ بما يُرضي النساءْ؟ ..

(2)

كُنْ صديقي!
كُنْ صديقي!
إنّني أحتاجُ أحياناً لأنْ أمشي على العُشْبِ مَعَكْ..
وأنا أحتاجُ أحيانا لأن اقرأ ديواناً من الشِّعْرِ مَعَكْ..
وأنا كامرأةٍ يُسْعدُني أنْ أسْمَعَكْ..
فلماذا - أَيُّها الَشرقيُّ - تَهتمُّ بِشَكْلي؟ .
ولماذا تُبْصرُ الكُحْلَ بِعَيْنَيَّ..
ولا تُبْصرُ عَقْلي؟ .
إنني أَحتاجُ كالأرضِ إلى ماء الحوارْ.
فلماذا لا ترى في مِعْصَمي إلاّ السوارْ؟ .
ولماذا فيكَ شيءٌ مَن بقايا شهريارْ؟ .

(3)

كُنْ صديقي!
كُنْ صديقي!
ليسَ في الأمرِ انتقاصٌ للرجولَهْ
غيرَ أن الرجُلَ الشرقيَّ لا يرضى بدورٍ
غير أدوار البطولهْ..
فلماذا تخلطُ الأشياءَ خلطاً ساذجاً؟ .
ولماذا تدَّعيَ العشْقَ وما أنتَ العَشيقْ..
إن كلَّ امرأةٍ في الَأرضِ تحتاجُ إلى صوْتٍ ذكيٍ..
وعميق.
وإلى النوم على صدرِ بيانو أو كتابْ..
فلماذا تُهَملُ البُعْدَ الثقافيَّ..
وتُعنَى بتفَاصيلِ الثيابْ؟ .

(4)

كُنْ صديقي!
كُنْ صديقي!
أنا لا أطلبُ أنْ تعشقني العِشْقَ الكبيرا..
لا ولا أطلبُ أن تبتاعَ لي يخَتاً..
وتُهديني قصورا..
لا ولا أطلبُ أن تُمطرَني عِطراً فَرَنسياً..
وتعطيني مَفاتيحَ القَمَرْ
هذه الأشياءُ لا تُسعدُني..
فاهتماماتي صغيرَهْ
وهواياتي صغيرَهْ
وطَموحي.. هو أن أمشيَ ساعاتٍ.. وساعاتٍ مَعَكْ.
تحت موسيقا المَطَرْ..
وطموحي هو أن أسمعَ في الهاتفِ صوتَكْ..
عندما يسكُنني الحزنُ...
وَيُبكيني الضَجَرْ..

(5)

كُنْ صديقي!
كُنْ صديقي!
فأنا محتاجةٌ جداً لميناءِ سلامْ
وأنا مُتْعَبَةٌ من قصَص العَشْق، وأخبارِ الغرامْ
وأنا مُتْعَبَةٌ من ذَلك العصرِ الذي
يعتبرُ المرأةَ تمثالَ رُخامْ.
فتكلَّمْ حين تلقاني...
لماذا الرجلُ الشرقيُّ ينسى،

حين يلقى امرأةً، نصْفَ الكلامْ؟ .
ولماذا لا يَرى فيها سوى قطعةِ حلوى..
وزغاليلِ حَمَامْ..
ولماذا يقطفُ التُفَّاحَ من أشجارها؟..
ثمَّ ينامْ".

• درْسٌ خُصُوصِيٌّ:

"لا تَنْتَقِدْ خَجَلي الشَّديدَ.. فإنَّني
دَرْويشَةٌ جِداً.. وأنتَ خبيرُ.
يا سَيِّدَ الكَلِمات.. هَبْني فُرْصَةً
حتى يذاكِرَ دَرْسَهُ العُصْفُورُ..
خُذْني بِكُلِّ بَساطَتي.. وطُفولَتي
أنا لَم أَزَلْ أَحْبُو.. وأنتَ كبيرُ.
أنا في الهَوَى، لا حَوْلَ لي أو قُوَّةٌ
إنَّ المُحبَّ بِطَبْعِه مَكْسورُ.
إني نسيتُ جَميعَ ما عَلَّمْتَني
في الحُبِّ، فاغْفِرْ لي، وأنتَ غفورُ".

• السيمفونية الرمادية:

(1)

يا أحبابي:
كانَ بودّي أن أُسْمِعَكُمْ
شيئاً من موسيقى القلبْ
لكنَّا في عصرٍ عربيٍّ
فيهِ توقّفَ نَبْضُ القلبْ...

(2)

يا أحبابي:
كيف بوُسْعي؟
أن أتجاهلَ هذا الوطَنَ الواقعَ فِي أنيابِ
الرُعْبْ؟
أن أتجاوزَ هذا الإفلاسَ الروحيَّ
وهذا الإحباطَ القوميَّ
وهذا القَحْطَ.. وهذا الجَدْبْ.

(3)

لا هذا عصرُ الشعْر، ولا عصرُ الشُعَراءْ
هل يَنْبُتُ قمحٌ منَ جَسَد الفقراءْ؟
هل يَنْبُتُ وردٌ من مشْنَقَة؟
أم هل تَطْلَعُ من أحَداقِ الموتى أزهارٌ حمراءْ؟".

• يقولون:

"إن الكتابة إثم عظيم، فلا تكتبي
وإن الصلاة أمام الحروف حرام، فلا تقربي
وإن مداد القصائد سمّ، فإياكِ أن تقربي
وها أنذا
قد شربت كثيراً
فلم أتسمم بحبر الدواة على مكتبي
وها أنذا
قد كتبت كثيراً
وأضرمت في كل نجمٍ حريقاً كبيراً
فما غضب الله يوماً علي
ولا استاء مني النبي".

• أفضل قصيدة: (آخر السيوف)

رثائيتها الرائعة لزوجها المرحوم الشيخ عبد الله مبارك الصباح:

هـا أنـتَ تـرْجعُ مثـلَ سَـيْـف مُـتْـعَـب
لـتَـنـامَ فـيٍّ قَـلْـبِ الـكُـوَيْـتِ أخـيـرا
يـا أيـّهـا الـنَّـسْـرُ الـمُـضَـرَّجُ بـالأسـى
كَـمْ كُـنْـتَ فـي الـزمـن الـرديءِ صَـبُـورا
كَـسَـرَتْـكَ أنـبـاءُ الـكُـوَيـت، ومَـنْ رأى
جَـبَـلاً، بـكُـلّ شُـمُـوخِـهِ، مَـقْـهُـورا؟
مـا كـان يُـمـكـنُ أن تَـعـيـشَ لـكـيْ تَـرَى
بـابَ الـعَـريـنِ، مُـخَـلَّـعـاً.. مَـكْـسُـورا
صَـعْـبٌ عـلـى الأحـْرارِ أن يَـسْـتَـسْـلـمُـوا
قَـدَرُ الـكَـبـيـرِ، بـأن يَـظَـلَّ كَـبـيـرا
يـا فـارِسَ الـفُـرْسَـان، يـاابْـنَ مُـبـارك
يـا مَـنْ حَـمَـيْـتَ مَـدَاخـِلاً، وثُـغُـورا
شَـرِبَـتْ خُـيـولُـكَ دَمْـعَـهـا، وصَـهـيـلَـهـا
كَـيْـفَ الـخُـيـولُ تَـمُـوتُ؟ لا تَـفْـسِـيـرا
مـا عـادَ بَـحْـرُكَ أزرَقـاً، يـا سَـيِّـدي
فَـكَـأنَّـمَـا صـارَ الـنَّـهـارُ ضَـريـرا..
الإخْـوَةُ الأعْـداءُ مَـرُّوا مِـن هُـنـا
كَـيْ يَـمْـلـؤوُا تَـاريـخَـنـا تَـزْوِيـرا
شَـنَـقُـوا الـغَـنِـيَّ عـلـى مَـشـانِـق حـقْـدهـمْ
أَمَّـا الـفـقـيـرُ فـلا يـزالُ فَـقـيـرا..
غَـدَرُوا بِـهـارُونِ الـرَّشـيـد.. وأحْـرَقُـوا
كُـتُـبَ الـتُّـراثِ.. وأعْـدَمُـوا الـمَـنْـصُـورا

عَبَثُوا بِأَجْسادِ النِّسَاءِ.. ودَنَّسُوُا
قَبْرَ الحُسَيْنِ، ودَمَّرُوا تَدْميرا..
لَمْ يَتْرُكُوا في الحَقْلِ غُصْناً أخْضَراً
أو نَخْلَةً مَيْساءَ.. أو عُصْفُورا
قَصَمُوا الكُوَيْتَ.. كأنَّهَا تُفَّاحَةٌ
وَرَمَوا ثِيابَ القاصِراتِ قُشُورا
مَنْ ذا يُحاسِبُ حاكِماً مُتَسلِّطاً
ذَبَحَ الشُّعوبَ حَمَاقَةً.. وغُرُورا؟
يا سيِّدي.. إن الشُّجُونَ كَثيرةٌ
فاذْهَبْ لِرَبِّكَ، راضِياً مَبْرُورا
يتَفَتَّتُ التاريخُ بينَ أصابعي..
وأُشاهِدُ الوَطَنَ الجَميلَ كَسيرا
خَذَلُوك، يا شَيْخَ العُرُوبَة، عَنْدَما
جَعَلَوا العُرُوبَةَ، مَسْلَخاً وقُبُورا..
ذَبَحُوا الطُّمُوحَ الوَحْدَوِيَّ.. مَن الذي
يَرْضى بأن يَتَزوَّجَ السَّاطُورا؟؟
جاؤوا إليكَ.. لِكَيْ تُبارِكَ فِعْلَهُمْ
يأبى الإباءُ بأن يكونَ أجيرا..
أأبا مُبارَكَ.. كُنْتَ أنتَ قَبيلَتي
وجَزيرَتي.. والشَّاطِئ المَسْحُورا
يا خَيْمَتي وَسَطَ الرِّياحِ، مَن الذي
سَيَلُمُّ بَعدَكَ دَمْعِيَ المَنْثُورا؟
يا مَنْ ذَهَبْتَ، وما ذَهَبْتَ، كأنَّني
في الليلِ أسْمَعُ صَوْتَكَ البَلُّورا
أنْتَ الرَّبيعُ.. فَلَوْ ذَكَرتُكَ مَرَّةً..
صارَ الزَّمانُ حدائِقاً.. وعبيرا

أأبا مُبَارَكَ، لو هُناكَ مَدامعٌ
تَكْفي.. لَفَجَّرْتُ الدُّمُوعَ نُهُورا
مَنْ ذا يُغَطِّينا بِريشِ حَنانه؟
مَنْ يَمْلَأُ البَيْتَ الكَبيرَ حُضُورا؟
أنتَ السَّفينةُ، والمظلَّةُ والهوى
يا مَنْ غَزَلْتَ لِيَ الحَنَانَ جُسُورا
غَطَّيْتَني بِالدِّفءِ مُنْذُ طُفُولَتي
وفَرَشْتَ دَرْبِيَ، أَنْجُماً وحريرا
وحميتَ أحلامي بِنَخْوَةِ فارسٍ
لم تُلْغِ رأياً أو قَمَعْتَ شُعُورا
اللّهُ يَعْلَمُ يا أبي.. ومُعَلِّمي
كَمْ كُنْتَ إنساناً.. وكُنْتَ أميرا..
أأبا مُبَارَك يا مَنَارَةَ عُمْرِنَا..
يا درْعَنَا، وكِتابَنَا المأثُورا..
كُنْتَ الكُوَيْتَ أَصَالَةً وحَضَارَةً
ومَنَاقِباً عَرَبِيَّةً وجُذورا..
البَحْرُ أنْتَ.. يَفيضُ عن شُطآنه
قَدَرُ الكَبيرِ بأن يكون كَبيرا..
أأبا مُبَارَكَ، سوف تبقى دائماً
في العينِ كُحْلاً.. والشِّفاهِ بَخُورا
يا آخِذَ الكَلِماتِ تَحْتَ ردائه
ما عُدْتُ بَعْدَكَ أُحْسِنُ التَّعْبيرا

القصيدة 35 بيتاً، جاءت على البحر الكامل (متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن)، رسمت بريشة فنانة مبدعة، بنبرة شفّافة، حزينة، بلغتها، وبإيقاعاتها، منسابة كالماء الرقراق، فألف رحمة على الفقيد.

هي قصيدة واحدة في مجموعة شعرية، مهداة إلى روح زوجها، ورفيقها، ومعلّمها عبد الله مبارك..

هــا أنت ترجــع مثل ســيف متعــب
لتنام في قلْـب الكــويت أخيـــــرا
يا أيــها الكنــــز المضـــرّج بالأســى
كــم كنت في الــزمن الــرديّ صبـــورا
كسرتك أنبـــاء الكـــويت، ومـــن رأى
جــبـــلاً، بكل شمــــوخـــه، مقــهــــورا.؟

وتقول أيضاً:

صعـــبٌ على الأحـــرار أن يستسلمـــوا
قـــدرُ الكبـير، بـأن يظـــلّ كبـــيرا

بهذه الأبيات البديعة، التي تقطر دماً، افتتحت قصيدتها اليتيمة في المجموعة، لقد شربت خيوله، دمعها، وصهيلها، وتسأل كيف تموت الخيول..؟! لا تفسير لذلك أبداً، حتى البحر ما عاد لونه أزرق، كأنما صار النهار ضريراً، تعود بذاكرتها للماضي، كيف غدروا من قبل بهارون الرشيد، وأحرقوا كتب التراث، وأعدموا المنصور..؟!

هل التاريخ يُعيد نفسه، ولكن بأيدٍ عربية..؟! لقد هتكوا الستور، وكشفوا الأعراض، إلى أن تقول:

يتفــتّت التـــاريــخ بيـن أصـــــابعي
وأشـــاهــد الـوطـــن الجميــل كســـيرا

التاريخ يتفتّت بين أصابعها، كم هو هشٌ هذا التاريخ.. لقد كان أبو مبارك قبيلتها، وجزيرتها، وشاطئها المسحور، وخيمتها وسط الرياح، إلى أن تقول:

أنت الربـــيع.. فلـو ذكـــرتك مـــرّةً
صـــار الزمـــان حـدائـقـــاً.. وعبيـــرا

وتمضي في رثاء أبيها، ومعلّمها، الإنسان، الأمير، منارة عمرها، ودرعها، وكتابها المأثور. باختصار لقد كان الكويت كلها، بأصالتها، وحضارتها، ومناقبها العربية، وجذورها.. هو البحر، الذي يفيض بشطآنه، وسيبقى في العين الكحل، وبخوراً في الشفاه، إلى أن تقول في آخر بيت في القصيدة:

يا آخـذ الكلمـات تحـت ردائـــــه
مـــا عـــدتُ بعـدك أُحســـن التعبيـرا

الحق يُقال، لو لم يكن للشاعرة غير هذه القصيدة، لكانت شاعرة بقصيدتها اليتيمة، لقد قالت قولها الفصل، ورسمت بريشتها لوحة الرثاء الممزوج بالحب، والوفاء، والإخلاص، لوّنتها بالدم القاني، الطاهر، فكانت وفية ومخلصة لزوجها، وللوطن معاً..

بمثل هذه اللغة كانت تتحدّث في أكثر رسائلها، لغة بديعة، شفّافة، شعرية، بعيداً عن القوافي، والأوزان، وهي في هذا تتأثّر، وتؤثّر، تستفيد من التجديد والحداثة، من حيث الشكل، واللغة ذات الدلالات الانزياحية، الجميلة، بعيداً عن الغموض، والدوائر المغلقة، تصل إلى روح المتلقّي، وقلبه معاً.

إن كل من يقرأ مجموعات الشاعرة يجد تطوّراً تصاعدياً، واضحاً، وملموساً، في خطها البياني في الشكل والمضمون معاً، على الرغم من التنوع والتلوين فيما تُبدع، وما أبدعته يعتبر بمثابة لوحات فنية متباينة، ومختلفة في الفنية لكنها كانت دائماً تنشد الوصول إلى الأفضل، لتشكّل بالتالي سيمفونية شعرية رائعة، وبديعة.

سعاد الصباح هي شاعرة تقطف النجوم وتصنع لك منها عقداً تهديك إياه على شكل قصيدة تتلألأ بعينيك وتبرق بأحاسيس وجدانك! لا تكتب بالقلم بل القلم هو من يكتب بها ومن خلالها.

هي مدينة تفيض بالمشاعر الدفينة، امرأة حاربت وجاهدت كي تصل بحرفها إلى ملايين القلوب النابضة. حين تقرأ شعرها تشعرها، وحين تشعرها تعرف من هي ومن تكون، فللحس عندها مذاق وطعم مميز ومختلف.. هي أميرة الكلمات وشاعرة النبضات.

هي أميرة تحدّت طقوس القبائل، ورجالها، وتقاليدها، وعاداتها، رقيقة الشعر، صادقة العاطفة، صريحة العبارة، مهرة خليجية حرون، تشم في شعرها عطراً خاصاً لم تألفه في عطور الشواعر السابقات، شاعرة خليجية نصفها سمكة، ونصفها امرأة. إنها الشاعرة التي جدلت بضفائر شِعرها شمس الحرية.

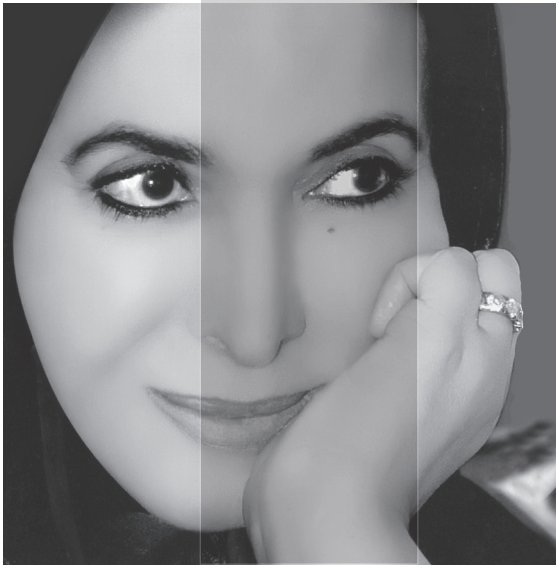

سعاد الصباح شاعرة المدى

ناديا نويهض*

سعاد الصباح شاعرة تعادَلَ عندها العقل والجمال، إنها شاعرة استثنائية فريدة تنقش أنفاسها الولهى على سطورها الغافية، تبثها نجواها الدافئة، وتطلق نفحاتها الشعرية المسافرة أبداً إلى بيادر النور لتغرس الحب والجمال والحرية في الأرض العربية، ولترسم خطوط تحريرها وخلودها على مر الزمن.

مع سعاد الصباح لا يمكن أن نمر بسهولة ونعبر، إنها تستوقف، بل تدهش، فالمدى وسيع، وغايتها الارتقاء وبلوغ كنوز مخبوءة، فهي شاعرة برسالة أو هي برسولية المدى.

لم تكتب لتتغاوى، بل كتبت لتبني، وقد اختارت من الكلمات أجمل الكلمات، فكتبت في التحرير والحرية، كتبت في المحبة وللمحبة، كتبت في الوطن وللوطنية، كتبت للرجل وللمرأة، كتبت للطفل والطفولة.

ببساطتها وشعرها وسحرها واتزانها، هي شاعرة القضية والحب والجمال والأنوثة؛ أنوثة عامرة هي الصورة التي استودعتها خواطر من عرفوها وسمعوها فأعجبوا بعبقريتها ووطنيتها وإنسانيتها.

تلبّست سعاد أنوثة إنسانيتها، وتلبست إنسانيتها أنوثتها، وما محا الشعر عندها هاتين الميزتين حتى بدتا لكل راء رهيف لا يدري أيتهما سعاد، فكلاهما ينبوع عذب، وكلاهما نجم مضيء.

ونفس سعاد زورق بلا شراع يمخر مجرى الحياة ليرسو على شاطئ مبادئ الحق والحرية في مشوارها الفكري، وفي مداها النضالي الطويل.

سعاد الصباح كائن شفيف كي لا أقول نوراني، يحمل على كاهله المنهك كل أحزان أمته ومتاعبها وحرقها وأشواقها.

سكنت سعاد قلب مجتمعها، والتصقت بمعاناته، وتعرفت إلى خفايا تخلفه وفقره وانطوائه، فراحت تعلن الثورة الموازية لتطلعات العلم والمعرفة والحضارة وحقوق الإنسان، ولم تبكِ أو تشكِ، بل شمخت للمجد والعزة، وبقيت تغامر وتناضل، ومشت إلى شواطئ الحياة الكريمة بمجذاف الفكر، بشجاعة الفرسان، وراحت توسع حولها دوائر المعرفة، نسمعها تقول: "إذا بحثتم عني تجدوني بين فواصل الكلمات عنواناً"، آمنت بالكلمة وعظمتها، وانصهرت بها، واعتبرتها دعامة الحياة وروحها وركن الإنسانية، فاتخذتها سلاحاً للحق على الباطل، وللخير على الشر، وللسلام على الحرب. وفي كتابها (هل تسمحون لي أن أحب وطني؟) تقول: "إنني سأبقى كويتية من رأسي إلى قدمي، ولن أسمح لأحد أن يقتلعني من بيتي وهويتي وجذوري، فهل تسمحون لي أن أحب وطني؟".

شعرها يقطر صدقاً حباً وجمالاً! وما أجمل الشعر حين يقال بصدق، وساعة يكون طريقاً إلى التحرير وكرامة الأمة.

شعر سعاد يفيض بالحق والحقيقة، وحين يعلو صوت الحق ويهدر ويزوبع في الضمائر يوقظها من تخديرها، فتهب لتفصل بين الكرامة والذل، بين الموت والحياة، بين التحرير والعبودية.

إننا لفي رعشة عندما نقرأ الصدق والوجدان والعذوبة والجرح والرجاء والغيرية والمسؤولية في قصائد شاعرتنا المختارة. لقد انصهرت سعاد بالطبيعة الإنسانية، وأيقظت الحريات لتنهي غفوة الاستسلام، مزجت العاطفة بعقلانية الوعي، والتضحية بالعزيمة، لتدق أبواب الحضارات. همها دائماً هموم الآخرين أكانوا بنين أم زوجاً، أقرباء أم غرباء، وطناً أم أمة، وهؤلاء جميعهم تخاطبهم برقة وشفافية، وبموضوعية خلقية ومحبة، وتحتويهم لتجنبهم وعورة الطريق والضياع والحيرة، وليعاودهم الشعور بالأمان، بالأنفة والكرامة.

أما المرأة -همها الأكبر- فلا تريدها كسلى خانعة منهارة متعبة جارية، ولا

متدنية أمية، ولا منعزلة غير معنية، ولا زينة وبهارج، ولا كتابة مموهة، ولا كتابا مخنوقا، بل تريدها حركة فعلاً، وثقافة وكلمة ثرية منتشرة وفضيلة وأخلاقاً ومعاصرة وتقدماً وفصولاً مجددة وشريكة فاضلة، وذخيرة في صدر الأمة، وأُمّاً عظيمة. تقول: "لا يجوز أن تبقى المرأة المحررة امرأة بأغلال، ولايجوز أن تبقى في الكتابات الضائعة، فقد مضى عصر شهرزاد"، والمرأة تبقى في بالها.

أبداً هي المرأة، هذا الضوء القلق النضر في صدورنا نهر الحنين العظيم.

أميرتنا الشاعرة زمن ممتلئ بالخير، أعجبت بالصبر كيف أتاها كريماً، وبالثقافة كيف أقبلت رحيبة! وكيف وافاها الإلهام فنظمت قصائدها، وجمّلت أدبها، وكيف اختارته أنيقاً عميقاً وألبسته لبوسها بل ذاتها، فأتى يتمختر بأحلى حلله وكنوزه ليزين بيوتنا ومكتباتنا.

آثرت شاعرتنا الفعل الصعب، فحركت همتها، وغدت في فرح الواهب، وكرمت الوقت فما مر إلا مثقلاً بالجنى لاعتقادها أن كل لحظة في الحياة كنز لا يتكرر.

سعاد قبست وفيراً من علامات الضياء، نشرتها في الناس فلا يتعثرون، وبأجمل ورود محبتها حضنت أطفالاً، ورعت شيوخاً إبان محنة بلدها، وكم لأمت جروحاً، وأثارت أرواحاً ليتحرر الوطن، ويصفق الجناحان، ويتآخى الأخوان، ويتوحد الإنسان بالإنسان.

كانت في كل ما كتبت تمتاز بالكلمة المرتاحة وبالعبارة العفوية الحارة، وبالفكر يوصل إلى ما أدرك وقصد، وفي كل أسفاره كان في الطريق السوي المستقيم.

سعاد الصباح، شاعرة المدى، قصرت عباراتي وكلماتي عن قامات شعرك البهي، وإنه ليصعب علي أن ألمّ بحدودك وجغرافيتك الشعرية، لأنك شاعرة بلا سواحل، بلا ضفاف، ظاهرة استثنائية، أنت أحجية، وحكاية فضاء وفصول

تتماوج بكل تناقضاتها وجمالاتها.

ستبقى التماعاتك السحرية تتماوج في شعرك وقصائدك وفي دروب وطنك، وستبقين نبتة صلاح وبسمة حب على جبين الكويت، وتلويحة علم في القمة من موطنك العربي الكبير.

* نهار الشباب - 3 حزيران 1997

المحتويات

المقدمة	5
سعاد الصباح البدوية العاشقة	9
سعاد الصباح أنشودة الإبداع والعطاء	38
سعاد الصباح.. شاعرة تصنع غيرها	49
سُعاد الصَّباح.. القصيدةُ إقامةٌ في الوطن	56
سعاد.. خليجية عاشقة!	65
سعاد الصباح سيمفونية رائعة تتغنى بالشعر والأدب	68
الشعر كائن حي	72
قراءة في ملامح نزار الغزلية ووجودية سعاد الصباح الشعرية	76
أميرة الشعر خنساء العرب في العصر الحديث	81
سعاد الصباح ..رحلة بحث دائب عن المعنى	86
سعاد الصباح.. تباشير المطر	90
عزف منفرد على ربابة كويتية	100
انفعالات الفكر والعاطفة	104
(كلمات خارج حدود الزمن) رصد الحياة بمفهوم إنساني	107
أسئلة ديمقراطية في زمن غير ديمقراطي	111
سعاد الصباح.. رحلة الشعر والحياة	122
شاعرة الحب والحرية	125
سعاد الصباح.. ودّ كثيف وجرأة في الاعتراف	132
امرأة بلا سواحل	138
عبدالله المبارك في فكر سعاد الصباح	144
سعاد الصباح تشدو لـ(سيّد الحبّ)	160
أجمل القلائد لأفضل القصائد	169
سعاد الصباح شاعرة المدى	212